إتنين.. إتنين

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الثانية

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

الطبعة الثالثة

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

أنيس منصور

إتنين.. إتنين

دار الشروق

أكثر من اثنين دائما !.

عندى مسرحية كوميدية اسمها « الأحياء المجاورة » . ظهرت فى الستينات . والمسرحية لها بطلان : سناء جميل وحمدى غيث . فى ثلاثة فصول . ليس لها أولاد ولا خدم . ولا يزورهما أحد . ولكن من المتوقع أن يجئ أحد غير أن أحدا لايجئ . ولكن هذا الاحتمال وهذا التوقع هو الذى يجعلها ، ويجعلنا نتلفت إلى الباب والشباك .. ولكن أحدا لايجئ . وعلى الرغم من أن الزوجين لاينفصلان ولا يتركان المسرح إلا قليلا ، فالدنيا كلها عندهما .. أخبارها واسرارها ومشاكلها .. ثم ان الراديو ينقل إليهما آخر الأحداث والكوارث .. التى أصابت العالم وأصابت هذه الأسرية أيضا . فليسا وحدهما . ولكن الدنيا الصغيرة تنتقل إليهما من تحت الباب .. من الأصدقاء فى الشارع وعلى السلم .. من الراديو ..

فعلى الرغم من أنهما اثنان فقط ، فالحقيقة أنهما ليسا كذلك فى أى وقت .. وبعد عشرين عاما من ظهور هذه المسرحية قررت أن أعدل فيها .. وبدأت التعديل بأن جعلت لها اسما آخر هو : أكثر من اثنين دائما !

أى أن هناك أكثر من اثنين فى أى مكان وفى أى وقت . منذ آدم وحواء فى الجنة ومعهما الشيطان والأفعى والملائكة ومخافة الله ، حتى نزلا إلى الأرض فامتلأت بهما الدنيا ..

بل ان الإنسان إذا كان وحده فى زنزانة فى سجن .. أو كان راهبا فى صومعة .. أو

كان جاجارين فى أحد الأقمار الصناعية .. فرائد الفضاء الروسى كان وحده فى القمر الصناعى ، ولكن عشرات الألوف من العلماء يتابعون نظراته وأنفاسه وقطرات العرق على وجهه ودقات قلبه .. أنه يشبه سائق سيارة بلا عجلة قيادة .. فالعجلة والقيادة على الأرض فى أيدى العلماء .. فهو-إذن- ليس وحده فى أى وقت .. بل إنه فى عيون وآذان مئات الملايين من سكان الأرض ..

و « روبنسون كروزو » بطل الرواية المعروفة التى كتبها دانيل ديفو ، لم يكن وحده فى الجزيرة .. فمن اللحظة الأولى لهبوطة هذه الجزيرة كان وحده .. لم نر غيره ولم ير هو غيره .. ولكنه هو خلاصة الحضارة الغربية .. بملابسه وأفكاره وقدرته على أن يصنع لنفسه بيتا وأن يدافع عن نفسه بما حمل من أسلحة هى من صنع الحضارة الأوروبية .. فهو ليس وحده فى أى وقت ..

وعندما سئلت رابعة العدوية المتصوفة وقد جلست وحدها : من معك ؟

قالت : أنا وحدى مع الله وحده ؟

وأنت عندما تنظر إلى أعماقك فلست وحدك .. فأنت أكثر من إنسان ، أكثر من صورة لنفسك ..

فأنت كما ترى نفسك
وأنت كما يراك الناس ، أصدقاؤك وأعداؤك
وأنت كما تتمنى أن تكون ..
وأنت الأب وأنت الأبن .. وأنت المرءوس وأنت الرئيس ..
فأنت كثيرون !

ومن أجل أن تتخذ صورتك شكلا اجتماعيا فلابد من امرأة .. تحبها وتتزوجها ، أو تتزوجها بلاحب .. أو تستخدمها أو هى تستخدمك .. تكون فى يدها ، أو تكون هى فى عنقك .. فى قلبك أو على قلبك ..

والناس أمام المرأة نوعان :

ساسة وعشاق ..

والرجل السياسي هو الذى يرى أن كل الناس « أدوات » لتحقيق طموحه .. أنهم مثل السكين والملعقة .. أنهم مثل السيارة والجزمة .. انهم « وسيلة » لتحقيق مايتمنى ولذلك فلا إنسانية عنده ، ولا إنسانية لهؤلاء الناس .. إنه جردهم من كل صفات الإنسان .. وجعلهم « أشياء » تخدم مصالحه ، وتحقق له القوة التى يريد .. ولذلك كانت قسوة الساسة وحشيتهم وسفالتهم أيضا :

والمرأة – عندهم – هى الأخرى أداة من هذا النوع .. هى ضرورة اجتماعية .. ضرورة من أجل الأناقة ، وسيلة لكى يظهر السياسى مستقيما اجتماعيا يحب الأسرة والزوجة والأولاد ، مثل كل الناس ..

فعالم السياسة ، عالم بلا إنسانية .. عالم ليس فيه ناس ..

والعاشق هو الذى لايرى فى دنياه إلا المرأة التى يحبها .. هى الناس .. وكل من عداها لاشىء .. فلا يرى أحدا غيرها ، ولايسمع سواها .. وكل الطرق تؤدى إليها ، أو تدفعه أن يبلغها ..

فالناس جميعا أدوات ووسائل من أجلها .. هوامش على طريقها .. فراشة على أشجارها ، سحاب فوق غاباتها .. وهو مستعد أن يضحى من أجلها ، وبنفسه أيضا .

فعالم العشاق ليس فيه ناس .. عالم العشاق فيه المحبوبة .. ويتمنى العاشق والمعشوق أن تخلو الدنيا لهما ، فلا رقيب ولا حسيب ولا عذول ولاحسود ..

السياسى يريد القوة

العاشق يريد الغناء

السياسى يرى الناس جميعا أشراراً

العاشق يرى الناس طيبين والمحبوب أطيبهم ..

السياسى يكذب حين يتحدث عن المبادئ ..

العاشق لايكذب ولايتحدث عن المبادئ ، فالذى يعمله هو المبدأ ، والذى يعانيه هو العقيدة ، والمحبوبة هى الكائن المقدس ..

وإذا كان السياسى عاشقا ، فهو سياسى فقط .. مهما قال ..

وأمير الساسة وأكثرهم سفالة هو مترنيخ .. كان عاشقا لعشرات من الأميرات والغانيات .. ولكن جميعا يعملن جواسيس له .. يعملن أجهزة للتصنت ، شباكا ومصائد لخصومة السياسيين .. فقد استغل أشكالا كثيرة من الضعف .. ضعف المرأة وضعف الرجل أمام المرأة .. وضعف الاثنين أمام المال .. وخوف الجميع من الغدر ..

* * *

وليس فى الأداب العالمية مثل هذا العدد من « الثنائيات » التى جاءت فى كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصفهانى من الجوارى والعشيقات والمغنيات والملهيات والقاتلات ومصاصات دماء الأمراء من أجل الشعراء ، وقاتلات الشعراء من أجل الأمراء .. ولكن القاتل والقتيل فيهما صفة مشتركة : حب الجمال .. جمال الجسم والصوت والفن ..

كلهم عاشوا وماتوا من أجل العشق ..

لاشغلتهم السياسة ولا الحكم ولا السلطة : فالسلطان هو الشعر.. والملك هو الحب .. والمملكة كلها : تسودها المرأة وتلعب بها . والرعايا سعداء أن يكونوا ألعوبة : الخمر والموسيقى والجنس .. والجمال دائما !

بل فى كتاب « الأغانى » تجد الزوج المحافظ الغيور يدخل بيته والسيف فى يده فيجد زوجته على راحتها مع رجل غريب .. ويرفع السيف فى وجه الغريب .. حتى إذا قالت له زوجته : أنه الشاعر فلان ..

هنا يهبط السيف ويجلس الزوج يستمع مع زوجته إلى الشاعر..

فالذنب مغفور والعذر مقبول إذا كان الغريب شاعرا .. وإذا كانت الفتنة هى الجمال .. ويجلس الرجل يسمع الشاعر يتغزل فى زوجته ، ويسمع زوجته ترد عليه وتشيد برجولة زوجها وإخلاصه لها وإخلاصها له .. وبالسعادة والأمان الذى يعيش فيه .. والفضل للزوج الذى اتسع صدره للغريب مادام شاعرا !

ولانهاية للثنائيات فى التاريخ الإنسانى ..

فهناك نساء تمر ، ولم تتركن أثرا .. ولكن هناك من حاولن ..

وهناك نساء أمسكن التاريخ وجعلن منه عجينا وصنعن منه تماثيل .. وهناك نساء حولن مجرى التاريخ ، عندما وضعن قلب الرجل فى مكان عقله ، وعقله تحت الأقدام

فالنســاء نوعان :

المرأة « الحادث » ..
والمرأة « القدر » ..

أى المرأة التى كانت حادثا عابرا لم تترك أثرا .. وإنما لفتت نظرا ، واحتلت أذناً ، وشغلت قلبا ، وراحت ضحية عقل .. وفى حياة المشاهير كثير من هذا الطراز من النساء .. إنهن مثل الفراش حول الضوء .. يدرن حوله ويحترقن به ، وتجئ غيرهن إلى نفس النهاية ويتسلى العظماء برؤية الفراش يتحول إلى رماد ..

وهناك المرأة « القدر » التى تجذب العظماء فيدور العظيم حولها فراشة .. فاذا هى تدخل حياته .. وتكون حياته .. وتوجهه يسارا ويمينا .. وتضيف إليه بغريزتها العميقة فى البقاء والسلطة والابداع أيضا .

وهذه هى المرأة التى تلهم الشاعر ، وتحمى ظهر السياسى ، وتصون العالم ، وتعكس الإبداع ..

وفى التاريخ زوجات شهيرات وعشيقات أيضا وعاشقات ولكن لسن جميعا « قدرا » ..

فزوجة سقراط كان جهلها بعظمة الفيلسوف سقراط نكتة أطلقها هذا الفيلسوف .. ولكنها لم تجعله يكره المرأة ويحتقرها .. فيبقى هذا الاحتقار عشرات القرون .. فليس بسبب زوجته كره المرأة ، ولكنه احتقر المادة والجنس والرغبات العابرة ، ولم ير أرفع من الفكر والتأمل والفلسفة .. وكانت زوجته تراه رجلا عاطلا باطلا لايأكل ولايشرب ولا ينشغل ببيته وزوجته .. فليس عنده وقت ، ولا عنده وظيفة ، ولا هو يحب النساء .. كان يفضل الغلمان .. فهى امرأة مشهورة فقط . وهى المرأة « الحادث » وليست المرأة « القدر » .. وكذلك زوجات الأديب لورانس وأوجينى والخديو إسماعيل وجولييت آدم ومصطفى كامل وطه حسين وسوزان ..

ولكن المرأة « القدر » هى دوقة وندسور وهى ايفا بيرون وهى كليوباترة ..

وشجرة الدر التى قتلت زوجها بالقباقيب وقتلها ابن زوجها بالقباقيب وثار عليها العلماء وفى مقدمتهم قاضى القضاة العز بن عبد السلام . لم تكن « قدرا » فلم يترتب على وجودها أو اختفائها أى تحول فى مسار الأحداث والتاريخ ..

بينما كليوباترة التاسعة ملكة مصر التى قتلت نفسها ، حتى لاتقع أسيرة فى أيدى أعدائها ، ولم تكن جميلة . وإنما كانت سمراء متوسطة القامة ذكية هى التى غيرت تاريخ المعارك وتاريخ الحكم فى الدولة الرومانية بعد وفاة الإسكندر ..

أما النساء « القدر » فهن :

الراهبة هلويز التى أحبها الراهب ابيلار ، والفتاة بياترتيشة التى أحبها الشاعر دانتى وكلارا التى أحبها الشاعر بترازكة .. وسالومى التى أحبها الفيلسوف نيتشه والعالم فرويد والشاعر ريكله .. وكذلك زوجات فرويد وكارل ماركس وداروين ولفتجستون .. ومئات من ساحرات البادية : لبنى وليلى وعبلة وعزة وهند وغنية وغنيمة وفاضية والفارغة والف فاطمة وأم الفضل وفكيهة وقرة العين وأم كلثوم وكلثم ولبابه ولهب ولحاظ

ولؤلؤة وألف عائشة وعاتكة وعاصية وعبرة وعثمه وعفيفة وعمره وزاهده وزلفى وزمرد وعين النساء وعين العرب وألف زينب وزنوبيا وسارة وست الأجناس وست الأخوة وست الأدب وست الأهل وست الجميع وست الشام وست العراق وست العلماء وست القضاة وست الفقهاء وست النعم وسديده وألف سعاد وسعدى وسعده وألف سكينة وسلامة وسلطانة وسلمى وسمراء والشطباء والشعثاء والشقراء والشلبية وصالحة والصماء والصاخبة والطافية وطيبة دماء السماء ومارية وماوية ومحبوبة وملدلله ومزاج ومصباح ومعتزة وملح وملك وملكة ومليكة ومنورة ومنية ومهرى وموافقة ومؤنسة ومية وميسة وميسون وميمونة ونائلة ونائفة وناجية ونزهة ونشوان وهاجر وهيلانه ووالهة ووجيهه وولادة وياسمين .. وغيرهن كثيرات فى كتب الأغانى والعشق فى الأدب العربى القديم ..

* * *

وسوف تمضى الثنائيات فى التاريخ علنا وسرا ..

ومنذ قال امرؤ القيس ، عندما وقف عند جبل « عسيب » بالقرب من أنقره :

أجارتنا إن المزار قريب
وأنى مقيم ما أقام « عسيب »
أجارتنا أنا غريبان ههنا
وكل غريب للغريب نسيب

حتى قال كامل الشناوى :

أحببتها وظننت أن لقلبها
نبضاً كقلبى
لاتقيده الضلوع
أحببتها
وإذا بها قلب بلا نبض

سراب خادع
ظمأ وجوع
فتركتها
لكن قلبي لم يزل طفلا
يعاوده الحنين إلى الرجوع
وإذا مررت وكم مررت ـ
ببيتها
تبكى الخطى منى
وترتعد الدموع !
ومنذ قال عمر بن أبي ربيعة :
تقول وليدتى لما رأتنى
طربت وكنت قد أقصرت حينا
اراك اليوم قد أحدثت شوقا
وهاج لك الهوى داء دفينا
وكنت زعمت أنك ذو عزاء
إذا ماشئت فارقت القرينا
بربك هل أتاك لها رسول
فشاقك أم لقيت لها خدينا
فقلت شكا إلىّ أخ محب
كبعض زماننا إذ تعلمينا

* * *

وذو الشوق القديم وإن تعزى
مشوق حين يلقى العاشقينا !
حتى قال إبراهيم ناجى :

أحببت مية حبا لايعادله
حب وأفنيت فيها العمر أجمعه
أحب عمرى الذى فى قرب مىّ وما
قد مر من دونها ماكان أضيعه
يامىّ ياقلبى الثانى أعيش به
وإن يكن فوق ظنى أننى معه
يابضعة من كيان الصب نابضه
بكل حب به الرحمن أودعه !

ومن القائد هانيبال الذى طلب من ضباطه أن يمر على البيوت حتى وتصرخ النساء ويبكى الأطفال ، فتتحطم قلوب الرجال ..

حتى هتلر الذى قال : سوف أجعل لكل امراة المانية عشرين طفلا .. فالمرأة الألمانية لكى تلد ، ويتضاعف الجنس الارى ليسود العالم .. فالمرأة أم أولا وزوجة ثانية وعاشقة معشوقة ثالثا ..

سوف تبقى المرأة هنا فى الظل ، أو تجعل كل شيء فى الظل ، لتبقى هى فى النور وغيرها فى النار ، أو هى النار والنور الذى يحرق ويضىء ..

سوف يكون هناك اثنان .. بل أكثر من اثنين دائما !

أنيس منصور

القاهرة ١٨ أغسطس ١٩٨٧

هذا النوع
من النساء

الناس يقولون: لطيف.. تقول هي: بل رجل ضعيف.. يقولون: عبقري.. وهي تقول: مجنون.. يقول عنه الناس: كان من الممكن أن يكون نبياً.. أما هي فتقول: يجوز.. ولكن من المؤكد لا يصلح ملكاً.. وإن كان يصلح ملكاً بعض الوقت، فلا يصلح زوجاً أي وقت!

ويقول المؤرخون: أكبر غلطة أنه تزوج هذه الفتاة.. أما الفتاة فتقول: بل أكبر غلطة ألا أتزوجه.. إذ كيف أجد كل هذا العدد الهائل من العشاق، بعلمه واختياره وقراره وعلى جثته وكبريائه أيضاً!

أما هي فاسمها مسالينا (٢٢ ق.م - ٤٨م) أقوى وأقسى امرأة في التاريخ. زوجها الأمبراطور كلوديوس، أرق الملوك في التاريخ.. والقاعدة: وراء كل ملك لطيف امرأة عنيفة.. ووراء كل ملك يكتفي بشرب الماء، امرأة لا يرويها الدم. جميلة كاذبة محدثة لبقة. قادرة على إقناعه بأي شيء. إذا أرادت منه شيئاً بكت وتلوّت وتمرّغت عند قدميه.. ثم مرّغته في الوحل بعد ذلك. وكانت قادرة على إقناعه بأن هذا الذي يعمله بنفسه، هو قمة الحكمة والتواضع

كانت أمها تعمل بالسحر والدعارة. وقد ورثت عن أمها الدعارة، وسحر كل الناس أما الدعارة فكانت ترغم الجميلات على أن يقبلن ذلك ثم تفضحهن أمام أزواجهن!

إبنتها تزوجت الأمبراطور السفّاح نيرون.

تتباهى مسالينا وهي على فراش الموت: لم أكن مخلصة لرجل واحد يوماً واحداً!

لماذا؟ تقول هي أيضاً: يكفي أن تخلصي للرجل وأنت بين ذراعيه.. إنهم لا يستحقون أكثر من ذلك!

كانت متسلطة سليطة. وكانت تريد أن يظل زوجها الأمبراطور كلباً مربوطاً في ذيلها. ولا يهم أن تلتفت إليه، أو لا تفعل ذلك.. فعزلته عن كل الناس. ولما علمت أن الأمبراطور يحب زوج أمها، قتلته. وإذا نظر الأمبراطور في إحدى الولائم إلى واحدة. إلى ذراع أية سيدة، قطعتها.. أو إلى ساقها بترتها. أبعدته تماماً عن كل الناس، وأخافته من الحارس والطبيب والصديق.

وكان الأمبراطور يؤمن بالأحلام ويتفاءل ويتشاءم. فاتفقت مع

خادم له بأن يروي للأمبراطور أنه يحلم كل ليلة بأن أحـداً قد علَّق الأمبـراطور من شعـره، وأغمد سكينـاً في بطنـه. ثم راحت تروي للأمبراطور نفس الحلم!

هرب الناس من البلاد وانتحرت النساء، خوفـاً من مسالينـا. وأحبت راقصاً جميلاً ووضعت تماثيله في كل مكان. . وكان يحب فتاة أخرى. أتت به أمام الأمبراطور وشكت أنه لا يطيع أوامرها. . أمره الأمبراطور بأن يطيعها. فكان عشيقها بالأمر. ثم قتلته بالسم.

ثم أحبت رجلاً طويلاً عريضاً وسيماً وطلبت إليه أن يطلِّق زوجته. فطلَّقها. ثم قررت أن تتزوجه بالإضافة إلى زوجها الأمبراطور. وأن يكون ذلك في حفل راقص، وفي غياب زوجها.

وكان عندها خادم قتلت زوجته لأنها تحبه! فذهب إلى الأمبراطور ونقل إليه أن الأمبراطورة قد أقامت قصراً للعشيق وملأته بالتحف من قصر الأمبراطور. فاستدعاها الأمبراطور لتعترف أمامـه. فطلبت أن يكون لقاؤهما غداً، حتى يهدأ. وكان في نيتها أن تساعد العشيق على الهرب. ولكن حراس الأمبراطور حاصروها، وخيَّروها بين أن تموت بيدها، أو بأيديهم. . وأخرجوا من صدرها منديلاً معـطَّراً. ثم أتوا بالعشيق وقتلوه أمامهـا. وشنقوهـا بمنديلهـا. . وعند العشـاء تذكـر الأمبراطور أنه أمر باستدعاء زوجته والتفت حوله في هـدوء: لماذا لم تحضر الأمبراطورة؟

فقيل له: لن تحضر يا مولانا. .

فهزَّ رأسه: أعرف. . لا بد أنها نائمة!

فقالوا: نعم!!

* * *

إمرأة أخرى دخلت التاريخ باسم «المرأة الذئبة». وهي تختلف عن مسالينا في أن الإخلاص ليس مما ينـاسب زوجات الملوك والكهنـة. فهؤلاء الرجال قد اختاروا شيئاً أهم وأبقى. واختاروا المـرأة تكملة لذلك. فإما أن تقبل المرأة أن تكون هذه التكملة.. هذه البقية.. أو هذه الإضافة، وإما أن تخرج من حياته.. أو تخرجه هو من حياتها.. وإن لم تجد المرأة كلاماً كالعسل، فلديها ما لا نهاية له من السم تضعه في الكلام والقبلات والطعام والشراب.

إسمهـا ليفيا (٣٠ ق.م - ٢٩م). وهي بكـل المقـاييس امـرأة متوحشة. تكره باسم الحب وتقتل في سبيله، وتعيش على جثث غيرها من أجله.. سمع القيصر عن جمالها. فناداها ومعها زوجها وقال له: أعطني زوجتك الآن!

وأحنى الرجل رأسه، بينما اتجهت الزوجة فوراً ووقفت إلى جانب الأمبراطور. واندهش الزوج فلم يكن يعرف أنها سوف تستسلم بهذه السرعة.. وأشـارت إلى بطنهـا. أي أنها حامـل. ولما ولـدت بعث الأمبـراطور بـالطفـل لكي يقوم زوجهـا السابق بتـربيتـه. وانشغـل الأمبراطور بالحرب. فهزم مارك أنطونيو في موقعة أكتيـوم. وبعدهـا انتحرت كليوباترا فقد خافت أن تقع في يده فيمسح بها شوارع روما قبل أن تقبِّل قدميّ الأمبراطورة ليفيا.

كانت تقول له: أنا مثلك.. أنت تستعرض الشباب بملابسهم العسكرية.. وأنا أفضل أن يكونوا بلا ملابس.. صـدقني أن منظر

رجل عريان تماماً، مثل تمثال من الرخام بلا حياة!

بدأ الخلاف على العرش. . مات أولادها في يوم واحد قتلت أحد أبناء الأمبراطور. . وحفيداً له. .

كانت أذكى وأقوى وأشجع. ولم يكن غريباً أن تقول له في إحدى الليالي: هذا العرش الذي تجلس عليه أنا دافعت عنه سراً. . فمن أجله قتلت فلاناً وفلاناً. . وأحرقت فلاناً وشنقت فلاناً. . فعرشك على كفي. تعال وامسح وجهك في هذه الكف. . انهض!

ويكون الأمبراطور قد شرب حتى سقط على الأرض. . ويسانده الحراس حتى يقبِّل كفَّيها وقدميها!

تقول له: تظن أنني سعيدة بأن أرى الرجل الذي سبحت من أجله في بحور الدم هكذا ضعيفاً. . إن فماً يقبِّل قدمي امرأة يجب سده بالسم. . إن هذه الأكفّ لم تخلق إلا لصفع النساء!

وقبل أن تموت ليفيا، استدعت خادماً لها. وقالت: أنت تمنيت أن تلمس قدمي. . وتلمس يدي. . الآن هذه فرصتك وفرصتي الأخيرة!

وأشارت إلى كرباج من الجلد المجدول بالذهب: أغمسه في النار. . ثم في النبيذ. . ثم في النار. . وأقتلني به. . فقد تمنيت أن أرى القسوة في عيني رجل واحد. . لقد حرمتني الآلهة من كل شيء يوجعني. . فلم أر إلا دموعاً، وإلا صراخاً!

ولم يقو الخادم على ذلك. فأتت بآخرين يضربونه ولم يقبل: فشتموه وعيَّروه بأنه أعور وأنه أعرج وأنه لم يكن رجلاً قط. . فغضب

وثار وانهال على الأمبراطورة. . حتى ماتت سعيدة بهذا الهوان!

* * *

في الطريق إلى موسكو قالت لها أمها: إبنتي. . أكذبي لتعيشي. . لا تصدقي أن الرجال يحبون الصدق. . كلما كبر الرجال كان استعدادهم للكذب أكثر. . وأكثر الناس طلباً للكذب هم الملوك. . إنهم ولدوا في ظروف خرافية، وكل من حولهم يكذب عليهم. . فالصدق مثل الشمس، ولأنهم عاشوا في القصور فهم لا يرونها، ولا يحبون ذلك. . ولن يعطيهم أحد هذه الفرصة. .

ولم تفهم ابنتها. ولكن الأم عادت تقول لها: أنت ألمانية مائة في المائة. . وفرنسية ٥٠٪. . ولكن ليست في عروقك قطرة دم روسية. . وسوف تكونين أمبراطورة على روسيا. . فما لم تكذبي على كل الناس فلن يصدقك أقرب الناس. .

فقالت ابنتها: سوف أفعل!

وقالت الأم: أشكرك. . على هذه الكذبة. . أعرف أنك لن تفعلي. ولكن لن أموت قبل أن أراك أجمل وأعظم كذابة في أوروبا!

إنها كاترينا الثانية (١٧٢٩ ـ ١٧٩٦) ـ حكمت روسيا ٣٤ عاماً. وهي أعظم ملكة في التاريخ. ذكية قوية. ناعمة عنيفة. ليس لها إلا مطلب واحد من كل الناس ابتداء بالأمبراطور وانتهاء بكلبها: الطاعة المطلقة!

إن التاريخ قد وضع علامات استفهام كثيرة عن مقتل رجال واختفاء نساء وانتحار فتيات. ولكن من المؤكد أنها وراء كل ذلك ـ وكان زوجها واحداً من ضحاياها.

يوم استدعوها إلى القصر الملكي ليروها إن كانت تصلح زوجة لولي العهد، لم تكن لديها ملابس تليق. كانت شاحبة. ولكن بذكائها الفريد استطاعت أن تعرف من هم الذين سيحيطون بها، ومن الذين سوف ينقلون أخبارها ومغامراتها يوماً بيوم، وتزوجت. وفي أول ليلة جاء ولي العهد مخموراً مترنحاً. قيل له أن الألمانيات لهن سيقان جميلة وصدور أيضاً. فانكفأ يفتش في ملابس العروس عن مفاتنها. فنقلته العروس إلى السرير. وفوجئت به قد أخرج من جيوبه «لعباً» ـ على شكل دببة وثعالب.. تركته يلعب، ونامت على الأرض!

وايقنت العروس من أول لحظة، أن هذا الزواج صامت ـ أي لا حوار بينهما. لا هي تقول ولا هو قادر على أن يكمل حديثاً بدأه.. إنه زواج فاشل!

وعرف زوجها أن لها عشيقاً متزوجاً، فاستدعاه هو وزوجته. وطلب من الجميع أن يلعبوا الكوتشنية حتى الصباح!

وأنجبت ولداً آخر من عشيق لها. وفي إحدى الولائم قال زوجها، وقد أصبح أمبراطوراً: في الدنيا سؤالان بلا جواب.. الأول: كم عدد النجوم في السماء؟.. والثاني: من هم آباء أولادي؟

وغضبت الأمبراطورة كاترينة وغابت عن القصر وباتت في أحضان عشيق ثالث وعاونها هذا العشيق وإخوته على انقلاب ضد الأمبراطور. ونجح. وحبست الزوج. وعندما ذهبت تزوره في السجن وجدت سجيناً يقال له السجين الأول. عمره ٢٢ عاماً، دخل السجن

وهو في السادسة . . ولا يعرف شيئاً إلا السجَّان والقضبان . . وهو واحد من المطالبين بالعرش . . ولم تعد الأمبراطورة إلى قصرها إلا بعد أن أعدمت هذا الشاب وقلبته برجلها جثة هامدة على الأرض!

وكان لا بد أن تتخلص من الذين ساعدوها على الانقلاب. فهربوا إلى عواصم مختلفة. واحد منهم اختفى في باريس. ثم أرسل إليها أعظم ماسة في التاريخ واسمها «نادر شاه» . . ولكن عرفت بعد ذلك باسمه هو «ماسة أورلوف» . . وكانت كلما تذكرته تقول لمن حولها: كل خلية في جسمي تناديك أيها المتوحش . .

ولما علمت أنه مات أغمي عليها. فلما أفاقت قالت: أين هو؟

فسألوها: من هو . .

فذكرت اسماً لم يعرفوه . . وكان ذلك عشيقها الجديد الذي يصغرها بثلاثين عاماً. ولما علمت أنه انتحر طلبت أن يأتوا بشفتيه وأن يسحقوهما وتشربهما في كأس من النبيذ في ضوء الشموع والموسيقى وقالت عبارتها المشهورة: نحن الملوك اعتدنا على أن نحتوي كل الأشياء وكل الناس . . فإن لم نستطع اكتفينا بسلب أرواحهم!

* * *

كانت القضايا المعروضة على مجلس الوزراء هامة وعاجلة. وتلفت نابليون إلى القادة والخبراء وسأل أين . . فلم يرد أحد . . واقترب منه واحد ليقول كلمة في أذنه . وظهر الغضب على وجه نابليون قائلاً: مرة أخرى يا بولين! مرة أخرى!

أما بولين (١٧٨٠ ـ ١٨٢٥) فهي أخته . . أحب الناس إليه . .

رقيقة ناعمة جميلة.. لطيفة.. تجلس على ساقيه كأنها قطة صغيرة وتضع رأسه على صدرها وتلعب في شعره القليل وفي أذنيه وفي شفتيه.. وقبل أن يلومها ـ وكان يلومها دائماً ـ تقول: ما ذنبي.. أخي أعظم رجل في التاريخ.. وأنا أجمل امرأة.. عظمتك تحتم عليك أن تدخل المعارك وأن تنتصر فيها. وجمالي يحشد العشاق حولي وأخوض معهم معارك لا بد أن أنتصر فيها.. أنت وأنا محكوم علينا بالعذاب.. عذاب المجد، وعذاب الحب.. إنني أجد لك ألف عذر، فاعذرني!

وكانت بولين قد اتخذت من أحد معاوني نابليون عشيقاً لها، وانفردت به في الغرفة المجاورة لمجلس الوزراء.. وهي لم تترك واحداً من معاونيه من الشبان.. فقد كان يختار أجمل الشبان، وكانت هي سعيدة بذلك..

وهي رقم ٦ بين إخوته الثلاثة عشر. وكانت ترافق نابليون في كل مكان إعجاباً به وحباً له. وانتقلت من جزيرة كورسيكا، فتاة ريفية عادية، إلى بريق باريس.. فأخذتها الأضواء، ودوّختها، وكانت هي ألمع نجوم باريس جمالاً وانحلالاً..

عندما تزوجت كتب إليها نابليون: بولين حبيبتي.. أحبي الناس.. أحبي زوجك وبيتك، أسعدي نفسك. واعقلي. عمرك الآن ٢٤ سنة. أنت ناضجة. كوني عاقلة!

دار حولها رجال كثيرون فأداروا رأسها، ودوّختهم. كان عندها ٦٠٠ فستان ومجوهرات بالملايين. وعربتها تجرها ستة خيول. كانت

تخـرج من الحمام لتـدخله مرة أخـرى. . تستحم بالـزيـوت واللبن والعطور - في زمن لم تكن المرأة الفرنسية تعرف الاستحمام إلا نادراً . . كانت تبدو كأنها مخلوقة فوراً، كأنها نزلت من السماء برسالة محددة إلى الأرض أن تكون معبودة معشوقة عاشقة!

وكان عندها خادم زنجي يحملها إلى الحمام الدافىء ثلاث مرات يومياً. . وأحياناً خمس مرات. . حتى هذا الخادم عندما زوَّجته فتـاة زنجية جميلة، كانت تصر على أن يحملها من الحمام وإليه. .

وعندما عاتبها أخوها الأمبراطور كيف تفضح نفسها وتفضحـه فتجلس عارية تماماً أمام الفنانين لكي يصنعوا لها تمثالاً مثل فينوس. قالت: لم أشعر بالبرد فقد كانت هناك مدفأة!!

وتزوجت مرة أخـرى. . وأرسلها بعيـداً إلى إحدى جزر المحيط الهادي. ومات زوجها هناك لتعود تبحث عن عشيق جديد. ثم زوجها نابليون ثالثاً. . ولكنها خانته. . وعندما نفي نابليون إلى جزيرة ألبا، سافرت معه. وكان نابليون يبحث عنها فيجدها قد جلست عارية فوق إحدى الأشجار. وقبل أن ينطق بكلمة كانت تقول له: ألا ترى أنني آخر أساطـير الإغريق. . ألا تـرى أنه يتحتم عليـك أن تجعلني آلهة للجمال والحب؟

ثم تقول: لا داعي. . لقد جعلت من نفسي آلهة. . كما أنك قد وضعت بيدك التاج على رأسك!

آخر كلماتها: كانت حياتي تفسيراً يـومياً لهـذه الحكمة: أتعس

الـرجال أقـواهم جداً وأتعس النســاء أجملهن جداً. . وكنت أتعس الجميع فقد كنت الجمال والقوة معاً!

* * *

لم يعرف الجنرال الكبير أن المقعد الأمامي قد تصلب لا يندفع لا إلى الأمام ولا إلى الوراء. . فكان لا بد أن يجلس إلى جوار السائق ـ وكان السائق جندية جميلة. . ولم يلاحظ أيضاً أن «الجوب» قد نقصت بضعة سنتيمترات. ولا أن الوقوف المفاجىء للسيارة كان ينتهي عادة بأن تلتوي السائقة إلى ناحيتـه لعله يرى شيئاً من صدرها. .

وكانت لكل هذه الحيل نتيجتها. . فقد قرر أن يتزوجها. وتقدم لها ولكن الرئيس ترومان منعه من ذلك!

ذلك هو الجنـرال أيزنهاور (١٨٩٠ ـ ١٩٦٩) قـائد الحلفـاء في أوروبا وبطل غزو نورمانديا وبداية النهاية للحرب العالمية الثـانية في أوروبا وشمال أفريقيا. وأمامه استسلم الألمان يوم ٧ مايو سنة ١٩٤٥، إنه بطل الحرب، رئيس الجمهورية لفترتين (١٩٥٣ ـ ١٩٦١).

أبوه بائع لبن. فقير طبعاً. كان يعمل لينفق على إخـوته. . ثم دخل الجيش. تزوج إبنة رجل غني. الزوجة اسمهاميمي .قال لها يوماً: أقول من أول يوم في زواجنا: أحب بلادي أولاً ودائماً. وأنت ثانياً.

وهو كجندي محترف تنقّل في أماكن كثيرة في هذا العالم ـ ٣٤ مكاناً في أمريكا وفي آسيا وأوروبا.

وكان صديقاً لكثير من القادة، فكانوا يبحثون عنه لأنه بارع في لعبة البريدج. لم يكن من الذين يحبون المرأة. لقد كرهها صغيراً. وكان

يرى أن الزواج علاقة كمالية . . إنه مثل الكرافتة : لا تدفىء الصدر . ولكنها تتعلق من رقبة كل إنسان، كالزوجة بلا سبب معقول .

كانت زوجته تضيق بالسكنى مع الضباط . أول أبنائه مات بالحمى القرمزية . وقرر ألا يكون له أولاد . . ولكن جاء الأولاد . .

ولم يعرف الحب إلا يوم عرفت السائقة الإيرلندية أن تثيره . ولكنه قال لزملائه القواد : شيء غريب قتله الزواج في أعماقي ، قتله بالتدريج . . إنني غير قادر على أن أحب . .

وكتب في مذكراته . . استطاعت هذه الفتاة أن تنفخ في كل شيء قد مات في جسمي ونفسي . . فهذه النهضة الجسمية والنفسية هي من حقها وحدها . وسوف أتزوجها!

ولكن الجنرال ماريشال عندما علم بذلك قال : لو فعل فسوف أطرده من الجيش . وكان يكتب لها خطابات غرامية . . وهدده ترومان بأن هذه العلاقة سوف تنسف مستقبله السياسي .

وكان مرشحاً للرئاسة . ونجح وانشغل . ولكنه في إحدى الليالي قال : لم تعطني الرئاسة شيئاً . . ولا أنا أحببت زوجتي ، ولا هي أحبتني . . إن أجمل كلماتها في ساعات السعادة والهناء العائلي : أنت رجل مجنون!

وعندما كان أيزنهاور ضابطاً صغيراً كان هو الذي يعد القهوة ويطهو الطعام ويحيك الملابس لزوجته . ويرى تفسيراً لذلك : أنه ليس

الحب العائلي. وإنما هي روح الجندية. . فالجندي يعتمد على نفسه. . وإذا احتاجت جارته إلى مساعدة، ساعدها!

وآخر كلماته: عشت طول عمري حريصاً على حياة مئات الألوف من البشر، وعندما انفردت بواحدة، لا أنا استطعت حمايتها، ولا هي استطاعت. . فقط تلك الفتاة التي كانت تقود سيارتي، كان في استطاعتها، أن تجعل هذه السيارة قمراً صناعياً في الطريق إلى الجنة. . وأنا في داخله أدعو الله ألا تهتدي إلى الجنة. . فنحن معاً ـ وهذا يكفي!

* * *

يقول: لا تصدق أن المرأة تكره الكذب. . إنها تحب من يكذب عليها إذا كان يتحدث عن جمالها وذكائها. . فاكذب عليها. . اكذب. . حتى لو تأكدت أنها لا تصدقك!

وكان يواجه الناس بأزياء مستعارة من ريش الببغاء: البنطلون أخضر. والجاكتة زرقاء والكرافتة حمراء. . والزراير ذهبية. . وعينان تلمعان كأنهما من الماس الأسود. . ثم لديه هذه القدرة النادرة على الحديث وإطلاق النكت واحتمال النساء. . ثم يعود إلى البيت يحسب الخسارة والمكسب في رصيده اليومي. ثم يقول لنفسه دائماً: اليوم كسبت. وسوف أضاعف هذا المكسب غداً!

إنه دزرائيلي (١٨٠٤ - ١٨٨١) رئيس وزراء بريطانيا، أقدر رؤساء الوزارات ومستشار الملكة ومؤسس حزب المحافظين. وأكبر ذئب عرفته ليالي لندن.

خاض الطريق الصعب إلى مجلس العموم ليبقى فيه ٣٠ عاماً. إن

السلم الذي صعد عليه كل شبر منه: إمرأة ترفعه إلى الأمام أو إلى الخلف. ولكن الأيدي التي امتدت إليه كانت ناعمة دائماً!

يصفه خصومه: بأنه انتهازي حقير.

وكان يرد على ذلك قائلاً: دلّوني على طريقة أخرى لكي ينجح أي سياسي!

وهو رجل صناعته الأدب.. أدب في الحديث وأدب في الكتابة أيضاً، يقول: تحدث دائماً إلى المرأة. في أي مكان. ولا تكف عن الحديث إليها ومعها وعنها. سوف تكون حديث المدينة. سوف يتضايق منك الرجال. استعن بالمرأة أيضاً. سوف يكون لك نفوذ. لا تحاسب نفسك على كل ما تقوله للمرأة. ولا تكن حساساً. قل ما شئت في أي وقت. لا تخف إن المرأة تريد أن تسمع الكثير عنها وعن غيرها وعنك ومنك.

وينتقل من عشيقة إلى عشيقة نبيلة ثم إلى غنية. ثم اختار عشيقة أرملة أكبر منه ١٢ عاماً. طلب إليها في يوم من الأيام أن تتزوجه قائلاً: بدلاً من أن أكون عشيقاً مأجوراً، أكون زوجاً مجاناً!

فصفعته على وجهه. ولكنه تمسك بثوبها.. وأخرج ورقة وقلماً وراح يكتب لها اعتذاراً من ألفيّ كلمة. واعترف بأنه كان وقحاً. فقد أنساه الغرور من تكون سيدته، وما الذي فعلته من أجله.. واعترف بأنه أرادها لفلوسها، ولكنه الآن يريدها هي.

ووافقت على الزواج الذي دام ٣٣ عاماً.

تقول زوجته في مذكراتها: يسألونني إن كان مخلصاً. وجوابي ما دمت قد اخترت من كل الطيور نسراً عظيماً، فكيف يكون نسراً لا يطير. . ولا يمزق ملابسك بمخالبه ولا يهددك بمنقاره. . وكيف نحاسبه على أنه يعيش في القمم، وأن رائحة الدم تفوح من ريشه الطويل الجميل؟!

* * *

عندما قابلها الصحفيون وسألوها إن كانت تريد حقاً أن تفضح عشيقها؟

أجابت: ليس أسهل من ذلك. . ولكنني فكَّرت كثيراً. وبكيت على فشلي معه. وضحكت على سذاجة عظمته: إنه يستطيع أن يحمي قارة، ولكنه لا يستطيع أن يحمي امرأة واحدة!

ذلك هو ماك آرثر (١٨٨٠ ـ ١٩٦٤) ألمع قادة الحرب الأمريكان وأكثرهم نياشين وحفلات تكريم. . وأعظمهم عند الشعب. طويل عريض قوي. من معالمه: منظاره الأسود والكاب والعصا والبايب.

أعداؤه يصفونه: بارد جامد شرس.

أصدقاؤه يصفونه: لطيف. . رقيق ودود.

الأصدقاء والأعداء معاً: بل مغرور بلا حدود!

طلب منه الرئيس الفليبيني كرزون أن يكون قائداً لقواته المسلحة. فكان صاحب أكبر أجر في تاريخ العسكرية في العالم. وعندما أعلنت أمريكا الحرب على اليابان اختاروه ليكون القائد الأعلى لقوات الحلفاء في المحيط الهادي. وأمامه استسلمت اليابان سنة ١٩٤٥ .

وأصبح دكتاتور اليابان. واستدعته الأمم المتحدة ليدافع عن كوريا الجنوبية. واختلف مع الرئيس ترومان، الذي استدعاه وفصله، لأنه تجاوز سلطاته العسكرية، وراح يصدر قرارات سياسية!

ولكنه فشل في معركتين للحب. عرف فتيات كثيرات. وفي إحدى المرات فوجىء بأنه عرف الكثيرات. وقال: لم أكن أتصور أن تكون لي مثل هذه العلاقة مع الأعداء!

عرف فتاة غنية مطلقة تحب الحفلات والرقص حافية ونصف عارية. تزوجها. لم تحضر أمه هذا الزواج. فقد كانت تتمنى لابنها من هي أجمل وأشد تمسكاً بالدين والشرف!

سافر مع زوجته لويزة هذه إلى الفلبين. لم تطق الحياة هناك ولا أحد كان يطيقها، قررا الطلاق ـ وتم الطلاق.

وعرف إيزابيلا فتاة صينية الأم اسكتلندية الأب. عاشت معه. نقلها إلى واشنطن أسكنها في جناح بأحد الفنادق. اشترى لها كل ملابس النوم، ولم يشتر لها فستاناً واحداً تخرج به ـ حتى ترى الشارع مطلقاً! وكان ينفق عليها ببذخ. وفي غيابه ترددت على صناديق الليل وعرفت عدداً كبيراً من العشاق وسافرت إلى كوبا وخسرت أموالها في القمار. كتبت إليه تقول: عندي التهاب رئوي. ربما البرد!

فأدهشه ذلك وكتب يقول: هذه أول مرة أعرف أنه من الممكن أن يصاب الإنسان بالتهاب رئوي في السرير.. احرصي على قفل النوافذ والباب، فقد قرأت أن الجو شديد البرودة؟!

وماك آرثر قد أغضب بعض الصحفيين. فتصيدوه ووصفوه

بالمتوحش الدكتاتور. وكان قد طرد الفتـاة الصينية بعـد أن اكتشف خيانتها له، فاتصل بها الصحفيون الذين اشتروا لها مـلابس أنيقة. وحصلوا على خطاباته الغرامية لها. وهددوه بالنشر. ودفعوا لها مبلغاً كبيراً من المال. وسحب شكواه ضدهم وكان قد طلب مليونيّ دولار تعـويضاً عـلى القذف والتجـريح. وفتحت الفتـاة الصينية صـالونـاً للحلاقة.. ثم هاجرت إلى كاليفورنيـا. وهناك انتحـرت في ظروف غامضة!

ومن عباراتها التي نشـرتها الصحف أيضـاً: أنا أحب سـذاجته الفخمة.. فهو قائد عظيم.. ولكنه عبيط عظيم أيضاً!

وقالت: شيء واحد كان يحبه جداً وهو أن أستمع إليه وأنا جالسة عند قدميه، وهو يروي معاركه العسكرية وكيف فكَّر ودبَّر وانتصر.. وأحياناً كان يأتي بالخرائط.. أحب هذه العظمة.. أحب هذه القوة في صوته وفي حركاته.. أحب هذا القائد، وإن لم أكن قد فهمت شيئاً واحداً مما يقول!

وقالت أيضاً: ليس صحيحاً أن الرجال العظماء يحبون الكلام.. ولكن الصحيح هو أن المرأة تحسن الاستماع.. وعندما يتحدث الرجل فإنه لا ينظر بدقة إلى وجه المرأة أو عينيها ليتأكد إن كانت تسمعه.. إنه يريد أن يقول.. ولا يهمه كثيراً إن كانت تسمعه ـ وهنا تكمن قدرة المرأة على الصبر.. وهو صبر مثل شبكة حريرية ناعمة، أعدتها غريزة المرأة ليسقط فيها هذا الصياد المغرور!

الكبار والكبائر
والكلمات الصغيرة!

في البدء كانت الكلمة الصغيرة. والكلمة الصغيرة سمعتها أذن مرهفة. والتقطت الكلمة نفس متوهجة، فكان الانفجار العظيم..

وتكون الكلمة: أحبك..

أو تكون: كرهتك..

أو تكون: بل أحببتك لأن فيك شبهاً من فلان..

أو تكون: كرهتك لأنك لا تحب فلاناً..

وشيء عجيب من مثل ذلك.. فهذا الساحر الذي اسمه الحب قادر على أن يجعل الصغير عملاقاً، والعملاق قزماً، ويجعل الجنة ناراً، والنار فردوساً..

وإلا فكيف يتحول قدّيس إلى إبليس.. وكيف يتحول رجل يدعو الناس إلى حب الله، إلى رجل يدعو إلى الحب الذي يجعل الناس ينسون الله..



إنها كلمة تقولها فتاة، دون أن تدري، إلى من قالت وكيف قالتها.. ثم تمضي إلى حياتها، فإذا العاشق الكبير فاسق أكبر، وإذا بالمحب الغارق في دموعه، وحش يخوض في دموع الأخريات..

إنها «كيمياء» عجيبة التي تجعل الكلمات دماراً على العاشق والمعشوقة. وعشرات الأبرياء..

مثلاً: كيف استطاع البابا جون الثاني عشر (٩٣٨ م - ٩٦٤م) أن يستولي على أموال الكنيسة، وأن يجعل الكنيسة ماخوراً وأن يحكم روما والعالم المسيحي بمعاونة عدد من النصّابين والبلطجية. وكيف أنهم كانوا يستوردون له العشيقات وهو ما يزال في العشرين من عمره.. فتيات من كل طول وعرض ولون. كيف وقف البابا يتصيد المؤمنات الجميلات ويستدرجهن إلى فراشه..

مرة واحدة فقط رأى أحد الأزواج البابا وهو يطيل النظر إلى زوجته.. وإلى زوجة تخرج من الصفوف وتتجه إلى قداسته، والإثنان معاً يتجهان إلى الداخل.. وسار وراءهما الزوج.. ثم

انهال ضرباً على البابا حتى مات بعد أيام.. وكان الزوج لم يكفه ما فعل بل راح يستعدي عليه الناس جميعاً. يصرخ ويقول: أنت الذي تمسك مفاتيح السماوات.. أنت مجرم مقدّس.. أنت؟

أما البداية فقد كانت أن البابا وهو في الثامنة عشرة قد رفضته فتاة صغيرة. تهجَّم عليها. فأسقطته.. وداسته بقدميها. ونهض البابا الصغير ينفض خجله وعاره ويتوعد.. ولكن الفتاة اختفت لتظهر عشرات الفتيات ينتقم منهن البابا!

إنها مرة أخرى قصة الملك شهريار الذي خانته زوجته، فقرر أن ينتقم من كل النساء. فكان يقتل واحدة كل ليلة.. حتى ظهرت له شهرزاد تشغله عن الاستمرار في الجريمة ألف ليلة وليلة!

وحتى في القرن العشرين عندما ظهر رجل في نيويورك يدعي الألوهية.. إنه الأب المقدَّس (١٨٧٧ ـ ١٩٦٥) جورج كيلر الذي أسس بعثة السلام. وسارت وراءه ألوف النساء يعشن بلا جنس، حتى لو كنَّ متزوجات. ولكنه كان غارقاً في الجنس. وفوجئت المؤمنات بأنه متزوج من زنجية.. ثم من واحدة بيضاء.. وله عشيقات.. وفي سنة ١٩٣١ اعتقل البوليس هذا المقدس الزنجي.

ولما سئل كيف تكون مقدّساً تدعو إلى الطهارة وأنت هكذا.. وإلى الإخلاص، وأنت بلا إخلاص، كيف تعتدي على المؤمنات؟

فأجاب: بل إنني أخرج الشر من أجسادهن، ثم أقضي عليه!

وأدخلوه السجن عشرات السنين. وفي السجن كتب اعترافه

يقول: زوجة أبي عندما وجدتني أعانق فتاة صغيرة بيضاء بالإكـراه، أمسكتني ووضعت رأسي عند ذيل إحدى الأبقار وهي تقـول: يجب أن نعطيك ما هو أسـوأ من الوحـل. . ولم أنس هذه الكلمـات ولا هذه العقوبة. . ولا أعرف كيف انقلبت هكذا على كل الناس!

* * *

وكـذلك السيـدة المقدسـة إيمي ماكفـرسون (١٨٩٠ ـ ١٩٤٤) مؤسسة الكنيسة العالمية، وأتبـاعها كثيـرون. وفي سنة ١٩٢٦ أعلن البوليس أنها نزلت إلى البحر فغرقت. . ولكن اكتشف البوليس أنها ظهرت في المكسيك وقد أقفلت الكوخ على نفسها وعشيقها عشرين يوماً. .

وأفلحت في أن تقنـع المؤمنـات بـأنها في ذلـك الـوقت تتلقى الوحي. . وجاءها الوحي وأمرها بأن تعود إلى الكنيسـة، لأن ألوف النسـاء سـوف يسـرن وراءهـا. . وصـدقتهـا النسـاء، وتضـاعف عددهن!

أما سر هذه المقدسة فقد أعلنه واحـد من عشاقهـا بعد ذلـك. إنها لم تكن جميلة ولا مثيـرة. . ولكن صوتهـا فقط. فهي تصب كل مشاعرها في حنجرتها إنها مطربة لا تغنيٍّ. . فإذا استمـع إليها أحـد وهي تهمس في أذنـه فهو ضحيتهـا لا شـك، وإذا زارت مـريضـاً، أصبحت هي المرض الجديد. . وإذا هنَّأت عروساً بـزفافهـا، أحس العـريس أنها هي التي يجب أن تكـون عـروسـاً. . فصـوتهـا دافىء

هامس. . كأن كل نبراته أصابع ناعمة تلمس وتدغدغ وتثير. وهي تعلم ذلك تماماً!

أما مأساتها فقد اعترفت بها إلى إحدى المؤمنات. . فقد وقفت أمام المذبح تقول: يا ربي. . يا سيدي أنت خلقتني شديدة الحساسية، نافذة الصبر. . مفتونة بالرجال. . لا أقوى على انتظار عقابك. . سامحني. . اغفر لي. . سأتولى عنك تعذيب الرجال. . فإن كان عذابك أكبر من عذابي، فعاقبني، وإن كان دون عذابك، فالذي فعلته يرضيني. . سامحني!

أما عذابها الذي دفعها إلى الانتقام: فقد أكرهتها زوجة أبيها على أن تكون عشيقة لعشيقها هي أيضاً ـ وكانت في الثامنة عشرة!

أما التفسير النفسي لهذا الطراز من الناس فهم جميعاً يعذِّبون ويتعذَّبون. فكلما اعتدى واحد على واحدة بكوا لذلك. . ولكنهم لا يستطيعون أن يتوقفوا. لا يقدرون على أن يكفوا. يغسلون أيديهم في الدم ثم يشربون، ولا يرتوون.

أما الضحية فقد كان عذابها ساعات، أما القاتل فعذابه سنوات. .

* * *

وفي تاريخ الحب ثلاث قصص تناولها الأدباء والشعراء والموسيقيون. وفي هذه المآسي الثلاث كثير من الدم والعار، وكثير من الآهات والأسى. . وفي واحدة: رجل يقول أنه ظل الله على

الأرض. . وهـو قد أذل الإنسـان ومسح العـرض بـالأرض. . وفي المأساة الثانية: الحب أقـوى من كل عـاطفة أخـرى. . وباسم هـذا الحب ترتكب المعاصي والجرائم. . وأقصى وأقسى درجات ودركـات العذاب والهوان على الناس. . وفي الثالثة: لا حب ولا قداسة وإنما وحشيـة تتسلط عـلى النســاء، فيـركعن عنـد قـدمي القــداســة المتوحشة. .

لا أحـد لا يعـرف قصـة البـابـا إسكنـدر السـادس (١٤٣١ ـ ١٥٠٣). وليس من رجـال الدين واحـد لا يضع يـديه عـلى عينيـه عندما يقرأ اسم الرجل، وليس من الراهبـات واحدة لا تهـرب من سمـاع اسمه. . والجميـع على حق: فقـد استباح هـذا البابـا كـل المقدسات باسم القداسة، واعتدى على كل الحرمات، وكان مجنونـاً ويدعو إلى الجنون أيضاً. .

ولد في أسبانيا. واستطاع أن يصل بالمـال والمغامـرة إلى مكانـه الرفيع في الكنيسـة الكاثـوليكية. ولا أحـد يعرف عـلى اليقين، كم عدد أولاده غير الشرعيين.

وقد اعتمد هذا البابا على أسرته الغنية القوية: أسرة بـورجيا. واستخدم المال في الحصول على لذاته وشهواته. . ثم أنه ككل أفراد أسرة بورجيـا قد احتكر صناعة السموم. فهو يضعه في النبيذ. وهو أول من استخدم حبات العنب ووضع فيها السم ينقله من فمـه إلى فم المعشوقة، لتموت بين يديه وسعـادته الصـارخة. . وبـدأ حياتـه

الفاجرة في سن مبكرة. . وكانت له عشيقة وهو في السادسة عشرة. . وثانية وثالثة. . وكان الناس يسمون عشيقته «عروس السماء».

وامتلأت الغرف المقدسة بالفتيات العاريات. . الراهبات والمؤمنات. . والراقصات. . وكانت للبابا نزوات شاذة. . فقد كان يأتي بالراهبات العاريات، ويلقي على أجسادهن «أبو فروة» ساخناً ملتهباً. وكنَّ يصرخن، وهو في غاية السعادة. . ثم يلقي على أجسادهن الملتهبة بالنبيذ، ليزداد صراخهن ونشوته. .

وكانت إبنته لوكريسيا، سفاحة دموية. . وكان أبوها المقدس يدرِّبها على الجنس فكانوا يأتون لهما بالخيول والكلاب ويشرح لها أبوها بالضبط ما هذا الذي يفعله الذكور بالإناث. . وأن هذه الطرق أفضل وأقوى وأمتع. .

ولا أحد يعرف إن كانت لوكريسيا هذه قد أنجبت أولادها من أبيها أو من أخيها. . وهذا الفاجر المقدس يجد له المؤرخون مكاناً عريضاً في عالم الفن. . فهو قد شجع الفنانين على الرسم والنحت. . وأنفق عليهم الكثير من المال. . أما تفسير ذلك فهو أن قداسته كان يحب أن يكون جو المذابح فنياً فريداً. . أي أنه يجب أن يعتدي على الفنانين أيضاً، وأن يشركهم معه في الجريمة. . وليس الفنانين وحدهم، وإنما الملائكة أيضاً. وكان في جنون نشوته يقول: إنني أرى الملائكة تتدلى من سقف الكنيسة تبارك هذا

السحر الحلال والقداسة الحرام!

أما كيف كانت بداية هذا الفجور فالبابا قد رواه بنفسه في إحدى الليالي وقد جلس على العرش البابوي. . وهو لا ينسى ذلك اليوم حين اعتدت سيدة كبيرة عليه وهو طفل وقد أحبها بجنون. . والفارق كان ثلاثين عاماً. . أكرهته. . ضربته. . ثم أكرهته فأحبها أكثر. . ثم هددته بأن تحرقه بالنار. . ثم أحرقته. . وكلما صرخ من الاحتراق غطت جسمه بالزيت. . وراحت تبكي لبكائه، ثم ألبسته فستاناً من الحرير وأشعلت فيه النار. . هو يصرخ وهي تبكي على ذلك. . ولم ينقذه إلا حين أغمي عليها. .

ولم يكن البابا في حاجة إلى أن يرفع صوته، عبر القرون، لنسمعه وهو يقسم على أن ينتقم. . وقد انتقم!

* * *

وفي سيبيريا السوفياتية ظهر فلاح ضخم طويل عريض. . كان يتهجَّم على الفتيات. . وكان يتوارى وراء الأشجار. . ولا يكاد يرى فتاة تمشي وحدها، حتى يقترب منها. . وبعد لحظات يعتدي عليها. . ثم يعتذر لها ويقول: لا أعرف. . إن في داخلي شيطاناً يستولي على عقلي ويسخِّرني لخدمته!

وعرفت النساء هذا الفحل راسبوتين (١٨٧١ ـ ١٩١٦). وتحدَّثن عنه. وتعرَّضن له في الطريق. وقد أدرك بذكائه أن المرأة هي أحسن داعية لأي شيء. . وكان لا بد أن يهرب من القرى خوفاً

من غضب الأباء والأزواج. ولم يجد مفراً من أن يتزوج، حتى يأمن له الناس. في العشرين أنجبت له الإبن الأول.. والرابع والخامس..

وكانت له ذاكرة قوية. فقد حفظ كتاباً في السحر والعلاج الروحي.. وكان ذلك سبيلاً مضموناً لقلب المرأة، ولجسمها قبل ذلك. وكان قد درس الدين. وأقسم أن يكون قسيساً.. وهكذا تجمع له الدين والسحر والجنس.

ولا أحد يعرف كيف استطاع هذا الفلاح القس أن يعالج المرضى، وأن يشفي النساء من كل مرض.. لقد كان مرضاه من النساء. وكنَّ أكثر الناس إيماناً بقوته وعظمته وقداسته أيضاً. وكانت النساء تقف بالطابور. وكل واحدة تعرف بالضبط ما هو العلاج الذي ينتظرها.. وكان قادراً على شفاء عشر وعشرين في جلسة واحدة!

واتجه إلى العاصمة. وانتقلت سمعته إلى آذان الأمبراطورة. وقبل أن يصل إلى العاصمة كانت جلالتها تفكِّر في طريقة للوصول إليه.. فإذا به يصل إليها ويستولي عليها وعلى القصر وعلى كل قرار تصدره جلالتها. وفي القصر عرف أجمل جميلات الأسرة المالكة. وبدأت مغامراته بالجملة: زوجات الأمراء وعشيقاتهم وزوجات الجنرالات وعشيقاتهم وخادماتهم.. وتسللت إليه أيضاً نبيلات الدول الأوروبية.. وكان راسبوتين يجد متعة في أن يتحدث عن

قدراته الخارقة، ويجد سعادة أكبر من أن يترك النساء يتحدثن عن ذلك. . ويطلب إليهن المزيد من الوصف الدقيق. وله نظرية: إذا أردت أن تستولي على امرأة، فاترك امرأة أخرى تمهِّد لذلك. . فهي أقدر على فهم المرأة. . وهي في نفس الوقت لأنها مغرورة سوف تتباهى وتضيف إلى نفسها صفات ليست لها. . وهي بذلك تتحدى كل امرأة أخرى أن يكون لها حظ معي. . ولا شيء يشعل النار في امرأة، إلا غيرتها من امرأة أخرى. . وإذا أردت أن تحطِّم قلب امرأة، فاطلق عليها امرأة أخرى. . وإذا كان من الصعب أن تستخدم امرأة في القضاء على امرأة، فأسهل من ذلك أن تقضي على رجل. . أي رجل. . والسلاح هو المرأة دائماً. .

وكانت له عقيدة دينية ـ هي لا دينية أيضاً، يقول كيف نطلب من إنسان أن يستغفر إذا لم تكن له خطيئة. . كيف يعفو الله عن الذين لم يرتكبوا إثماً. . إذن لا بد من الخطأ والخطيئة حتى يكون العفو والمغفرة، والجنة بعد العقاب والحساب. وكلما كانت الخطيئة فادحة كان احتياجنا إلى الصلاة وطلب العفو أكبر!

وطبيعي بعد ذلك أن يتكاثر عليه أعداؤه ـ الذين أهينوا في عرضهم، والذين يتطلعون إلى السلطة التي استولى عليها عندما احتكر الأمبراطورة والأمبراطور. . ووضعوا له السم. فكان أقوى من السم. فأطلقوا عليه الرصاص، وكان أقوى من الرصاص. فألقوا به تحت الجليد. . ليموت رجل الدين الذي ادعى أنه كان

يعبد الله على طريقته. . والذي كان يساعد العدل السماوي على تحقيق الرحمة والعفو عن الناس!

وراسبوتين يشغل مكاناً بارزاً في علم نفس الجريمة. . وعلم نفس الشذوذ. . . وقد حاول كثير من العلماء أن يتسللوا إلى نفسيته المعقّدة، وكان لكل واحد رأي. ولكن راسبوتين، لم يدع لأحد أن يجتهد في تفسير هذا الساحر النصّاب. فقد جاء في مذكرات له نشرت في سنة ١٩٤٧ أنه اكتشف فجأة هذه القدرة الشاذة. وأدرك أيضاً أنه من الصعب أن يكون داعياً للحب والرحمة والاعتدال والزهد. فقد أكل عشرين سمكة وشرب وراءها زجاجة فودكا وابتلع رطلاً من السكر، وكان في الثانية عشرة من عمره!

وفي إحدى الليالي أمسك فانوساً ووقف أمام البيت حتى الصباح في انتظار والدته ـ وعندما طلع النهار كان مثل تمثال من الجليد، تطل منه عينان لامعتان لم تعرفا النوم ـ وكانت أمه قد عادت دون أن يدري بذلك. ولم يصب بمرض!

أما البداية الأليمة فعندما استدرجته إحدى الغانيات إلى فراشها. . ولم تمض لحظات حتى ألقت به من فوق السرير وهي تقول: كأنك ثور خرج من الزريبة تواً!

ولم يكن من عادته أن يستحم!

ويعلّق راسبوتين على هذه الحادثة بقوله: منذ ذلك الحين

قـررت ألا أستحم حتى الموت. . وأن تكـون رائحتي الكـريهـة هي العطر المفضَّل عند النساء!

* * *

ومن خمسة وعشرين عاماً صدرت مذكـرات الفيلسوف الألمـاني الكبير باول تليش (١٨٨٦ ـ ١٩٦٥) وهـو أيضاً من رجـال الدين. وقـد تحدث عن راسبـوتين. وراح يبـرر كل خـطايـاه. . إلا أنـه لا يستخدم الماء، ويفضل عليه العرق! ويختلف معه في أن أجمل ما في المـرأة، ليس وجهها وإنمـا قدمـاها. . ففي هـذه القدم تـوجد كـل ملامح الوجه: العينان والشفتان والنعومة والانسياب. .

تقول زوجة الفيلسوف تليش: لو لم ير قدمي، ما تزوَّجني!

ويقول: إن الإغريق والرومان قد اخترعـوا الأحذيـة. . ولكن لأنهم عشـاق لأقـدام المـرأة، جعلوا الصنـدل في قـدميهـا مئـات السنـين. . وقد عـرفت المـرأة ذلـك، فكـانت تضـع العـطور بـين أصـابعها. . وتضـع الخواتم المـاسية أيضـاً. . وكان من عـادة المرأة الرومانسية أن تلقي بالخـاتم من إصبعها في أقـداح النبيذ. . وكـان الرجال يتبـارون في امتصاصـه ووضعه في أطـراف أصابعهـا ليتوالى سقوطه حتى الصباح!

ويقول تليش أيضاً: وعنـدما انتشـرت موضـة شرب النبيـذ في أحذية راقصات الباليه، كان السبب هو أن النبيذ الذي يتساقط من الأقدام لا يكفي لارتواء الرجال. .

وكـان راسبوتـين هو الـذي يضع النبيـذ في حـذائـه الضخم، وتتسابق النساء في شربه. . أو إلقائه على أجسادهن!

* * *

وأخيراً. . لا بد أن تحتار العيون مع هذه المأساة الخالدة. . هل نبكي عليهـا بعين واحـدة. . هل نلطم خـداً واحداً. . هـل تفتـح الجنة لهما، عفواً عنهما؟ هل نكمل عذابهما حين نتعاون على إلقائهـما في النار التي دخلاها معاً في بـاريس وفي أديرة أخـرى كثيرة. . هـل لأنه رجل دين، ولأنها راهبة، فالعقـاب أعنف واللوم أشد والقـدوة الحسنة واجب. . هل لأن الحب سيد الموقف الآمـر الناهي. . هـل لأن الموت هو الأمل. ولذلك فقوانين الأرض والسماء لا تسري على المحبين. . هل نرفع أيدينا فلا نرجمهما بالطوب والحجارة. . أو هـل نبني لهما بالطوب والحجارة قبراً من الشوك والأفاعي ـ عذاباً لا نهائياً لهما؟!

إنه الفيلسوف الـديني أبيلار (١٠٧٠ ـ ١١٤٢) من أسـرة غنية قادرة على أن تستأجر وتشتري له بيتـاً فخماً. وأن تسـاعده عـلى بناء المدارس والأديرة لمن يؤمن بفلسفته التي اصطدمت بالأفكار المنتشرة في ذلك الوقت. .

هـل لأنه بتكـوينه الـطبقي والفلسفي غـير تقليـدي، ومخـالف للمألوف، قـد اندفـع دون أن يدري إلى حب إحـدى تلميذاتـه. . راهبة اسمها هلويزه في الرابعة والعشرين من عمرها وكان في الثامنة والأربعـين، إنها كارثـة. مصيبة سـوداء. أن يفتح الفيلسـوف كـل

كتاب ويقلب صفحاته فلا يجد إلا صورتها، وإلا صوتها. إذا دقت الكنائس أجراسها أحس كأنه عريس شرف وأن هذه الأجراس زغاريد..

وكلما أحس بالفجيعة التي سوف تصيب راهباً عظيماً، انكفأ يكتب على طريقة العصور الوسطى خطاباً باللغة اللاتينية إلى أحد الأصدقاء يعترف بما أصابه. وبما سوف يصيبه. إنه الحب العنيف. إنه سلطان سلاطين مملكة الفكر وشيطان شياطين الحب.

وكانت هلويزه تعيش مع عمها. وعمها رجل بخيل. ولم يعترض على أن يقوم أبيلار بإعطائها دروساً خصوصية ـ ما دامت بالمجان. وليس معروفاً إن كان عمها. فلا أحد يعرف شيئاً عن أبيها وأمها وأسرتها. ولكن هذا العم يتكفل بها. وكانت هلويزه جميلة ذكية واسعة الثقافة الفلسفية والدينية والأدبية. وعندما اكتشف الأثريون بقايا جسمها من قرون لاحظوا أنها عريضة الجبهة وأن جسمها متناسق وأنها رقيقة.

وكان أبيلار لا يمل وصفها في كل رسائله. يقول: لا أرى لك نظيراً بين النساء. ولا لك نظيراً بين العلماء. ولا أرى لي حياة بغيرك، ولا سعادة مع سواك، فهذا قدري وقدرك، هذا قدرنا.. كما أن العذاب قدرنا.

وتقول هي: لا ملك ولا فيلسوف يرقى إلى مستواك.. يا من هو أعلى من كل جبل، وأسمى من السماء، وشمس تبهر الشمس!

يقول الفيلسوف أبيلار أنه القلم وليس اللسان وسيلته الوحيدة لأن يعيش الحب، وأن يصلي له.. إنها وحدة الكلمات المكتوبة. أما الكلام فذلك شيء بعيد..

وهرب أبيلار إلى الحياة في الأديرة يقاوم الحب الذي جرفه بعيداً عن الدين. وظل في الدير سنوات. وبعدها خرج أكثر اندفاعاً يبحث عنها.

وعاد عم هلويزه يطلب إلى الفيلسوف أن يتفرغ لتعليم هلويزه ليلاً ونهاراً. يقول أبيلار: وهكذا وجد الذئب الجائع هذا الحمل الوديع!

ويقول: في تلك الأيام قلنا معاً كل ما له علاقة بالحب والحنان والحرام والحلال والهرب والانتحار، كل هذا قلناه ولمسناه وعشناه.. وقررناه، وكل ما عدانا أصبح صغيراً، وكل من حولنا أصبح شبحاً وظلاً.. لقد كبرنا جداً، وصغرت الدنيا جداً.. لقد حكمنا بالإعدام على الكون، وأفرغناه من الناس والقوانين، وظلت لنا الكرة الأرضية: بلا أحد!

وأرهقته الليالي الطويلة. ولاحظ الطلبة أن أستاذهم لم يعد قادراً على أن يكون أستاذاً. انشغل بنظم الشعر وتأليف الأغاني والموسيقي..

وفاجأ العم الفيلسوف والراهبة في فراش واحد. وكانت صدمة للعم. وطردهما، أما هي فكانت سعيدة. تقول: أخيراً وجدت واحداً، أي واحد، رأى وأيقن من هذا الحب الذي بيننا!

ثم دخلت أحد الأديرة وأنجبت إبنها الذي أسموه «أسطرلاب» ـ وهو اسم تلك البوصلة القديمة التي يضعونها في السفن. ولكن أحداً لم يعرف لماذا هذا الاختيار؟

وذهب أبيلار إلى عمها يعده بالزواج من هلويزه!

واختلف العاشقان: هل يتزوج الرجل الذي نذر نفسه لله. إن القديس بولس لم يتزوج، والفيلسوف شيشرون والحكيم سنيكا. . فكيف يتزوجان؟

إن أبيلار يقدِّس الله، وهي تقدِّس الله الذي في داخله. ولكنها تقدِّس النظام الذي أهانها وفضحها. . إنها تقدِّس رجلاً أهان الدين والقداسة!

وقالت له: إن زواج سقراط كان فادحاً. . فضيحة. . فلم يكن من السهل أن يتزوج فيلسوف. فالفيلسوف يجب أن يتفرغ لشيء ليس عادياً، والزواج يجعله رجلًا عادياً. .

وقد طلبت منه ألا يتزوجها. ولكنه كان العاشق الغيور عليها من أن تحتويها أحضان رجل آخر. .

وتركا الطفل عند أخته في شمال فرنسا ولم يذكره واحد منهما بعد ذلك. .

وعاد الإثنان إلى باريس وتزوجا سراً.

وقرر عمها أن يعرف الناس هذا الزواج. فأقام حفلاً دعا إليه كل الأصدقاء والأقارب والخدم والأعداء، وتحدثت باريس عن هذا الزواج، الذي أنكره أبيلار وهلويزه.

ولكن العم قرر أن ينتقم منه. فاستأجر عدداً من البلطجية. وهجموا على أبيلار ومزَّقوا أعضاءه! وتوارى أبيلار في أحد الأديرة مع الفضيحة والعار عشر سنوات. لم يشأ أن يبحث عنها. ولا أن يبعث لها بخطاب واحد..

وسافر إلى روما، والتقى برجال الدين والبابا.. يكسب عطف الناس عليه..

ومات بعد ذلك بعشرين عاماً. وفي هذه العشرين عاماً كان يحدِّث الناس عن عذابه وعن هوانه.. وكانوا يستمعون مرة إلى عذابه ومرة يشمتون في هوانه.. وكان له أعداء في الفلسفة والدين، وأصدقاء في الحب والعشق..

والتقى بهلويزه.. ورأت كهلاً محطماً. ورأت قبراً يمشي على قدمين. ورأت أفكاره مثل تراب القبر، وقلبه مثل كهف مظلم رطب.. ولكنه في داخل الكهف ما تزال شمعة الحب تضيء، ولو لم يكن هناك أحد.

ومات ودفنوه. ولما ماتت هي أيضاً دفنوها في نفس القبر. ويقال أنهم عندما أنزلوها إلى القبر نشرت ذراعيها ونشر هو

ذراعيه. . واستأنف الإثنان عناقهما الأبدي!

* * *

تقول هلويزه في رسائلها: ما حيلتي. . إذا كان الإيمـان يجعلني بلا جسد، وإذا كان الحب يجعلني بلا إيمان. . وإذا كنت أجد فيك الحب والإيمان. فما تقوله لي: أمر. . وما تفعله: واجب مقـدَّس. . فكيف أقـاوم من استطاع أن يجعـل السماء لحـماً وشحماً ودمـاً ونـوراً ودفئاً؟ قل لي أرجوك كيف؟!

ويقول أبيلار: أنت أحسن حـالاً. . أنت استطعت أن تفـرِّقي بـين السـماء والأرض. . بـين الإنسـان والمـلاك. . بـين الـله والشيـطان. . بـين نـداء الحب وصـوت الـرب. . ولكن أنـا لم أستـطع. . لم أعرف الفـرق بين الألـوان. . وبين الأصـوات وبـين الناس. . فكل الأصوات صوتـك، وكل النـاس أنت، وكل نجـوم السماء عيناك، وكل رحيق الزهور شفتاك، حتى أنا أجدني فيـك. . فأنت أنا وأنا أنت، والذي أختاره لنفسي، لنفسك أيضـاً. . فنفسي نفسك. . وليس عندي وقت أفكِّر فيما تقولين، فالذي تقولين هو ما أقول. ولا أعرف كيف أفكِّر فيما أقول. . فأنا مندفـع إليك. . بـل إنني لا أبـرح نفسي. . فأنـا مندفـع في داخلي. . اعـذريني. لم أعد ذلك المدرِّس القادر على الشرح. فالـدرس صعب، والمدرِّس قليـل الحيلة، ولا أتوقع منك خطابـاً، فخطابي إليـك هو خـطابك إلي. . اعذريني. فأنا عندما حاولت بك ولك ومعك أن نمحو الكون كله، من أجـل أن نبقى وحدنـا، نسيت ومحوت.نفسي ومحـوت نفسـك.

محونا أنفسنا . . فانمحينا . . إن عدمي يخاطب عدمك . . فيا عـدمي الذي هو أقوى من الوجود . . لم أعد في حاجة إليك ، فقد استغنيت بك عن كل شيء وكل الناس . . استغنيت بك عنك!

أمـا ردها عليـه ، وهو آخـر كلمـاتهـا إليـه معـك حق . . معي حق . . أنت وأنا: الحق!

المستحيل: زوجة السلطان؟

هذا فيلسوف عاشق لم أجد اسمه بين الفلاسفة أو العشاق. هي الصدفة التي جعلتني أقفز في أعماله الأدبية وحياته. هل هي مأساة؟ هو يقول أنها كذلك، إنه دوموس فيكتور. من أصل إيطالي؟ يجوز. من أصل مجري؟ ربما.. هل لا أصل له؟ محتمل..

ولكن من المؤكد أنه «غجري» الطباع.. نافر.. بعيد.. متباعد.. وحريص على أن يظل كذلك. هو يقول: إنني لم أتزوج، وليس في نيّتي. والحقيقة: أنه متزوج.. ويفسر ذلك بقوله: إن الزواج شعور بقيود كثيرة، ولكني لست أشعر بشيء من ذلك.. ولا يريد!!

يقول كثيراً وطويلاً هكذا: لها حياتان: حياتها وحياتي! نحن عقلان في رأس واحد: رأسها!

أفضِّل أن أذهب إلى طبيبة الأسنان، فعندها أجد من يقول لي: إفتح فمك!

أحب أن أنظر إلى الأرض عند قدميها كلما حدثتني: إنها قطعة أرض في مقابل قطعة سلام!

ليس صحيحاً أن المتزوجين أطول عمراً، فقط إنهم يشعرون بأن سنواتهم تتحرك ببطء!

أنا وهي نحب شخصاً واحداً: هي!

تزوجنا على الحلوة والمرة ـ لم أستطع أن أكون أحلى، ولم تستطع هي أن تكون أكثر مرارة!

متناسبان تماماً: فكل منا يكره الآخر!

الحب كأفلام التصوير يجب تحميضها وطبعها في الظلام.

وكأفلام السينما القديمة لها نهاية سعيدة. . وكأفلام السينما الجديدة، لا تنتهي بالزواج!

ــ أحب ومستعد أن أموت من أجلك؟

ــ متى؟

ــ ما الذي يجعلك على يقين من أنهما مخطوبان؟

ــ هي تضع دبلة وهو مفلّس!

ــ ما الذي تعرفه عن الحب؟

ــ كثيراً جداً. . لقد عملت سائق تاكسي لخمس سنوات!

ــ لقد أرهقني حبها؟

ــ إنها غلطتك لماذا لا تكف عن الجري وراءها!

قبل الزواج وعدتني أن تمسح وتكنس وتكوي ـ فلم تتوقف عن مسح دموعها، وكنسي من البيت. . ثم كوتني بنار الغيرة!

لم أكد أوافق على الزواج حتى أخرجت ورقة من جيبها وكتبت: الشقة ومدرسة الأولاد. . وهل من الضروري أن تزورني أمك ما دامت لا تتفق مع والدتي!

ــ يقال أنه سوف يتزوج!

ــ يستاهل. إنني أكرهه!

ــ هل هو زواج سعيد؟

ــ أعتقد ذلك . . فهو ما يزال يبتسم رغم مرور يومين على هذا الحادث!

ليس عاراً أن تكون فقيراً، ولكنه في غاية التعاسة!

قلبها من ذهب: جامد لامع بارد!

من المؤكد أن قلبها معي، ولكن بقية أعضائها، مع الآخرين!

بعض فساتينها تفضحها، ولكنها تفضح أكثر فساتينها!

أسميها: قهوة ـ فقد عرفت معها الأرق والليالي الطويلة!

* * *

إن قصة هيامي بالغجر وحياة الغجر طويلة . . فإنني أرى حياة الغجر أنسب حياة للفنانين والفلاسفة: أن يكونوا بعيداً عن الناس ولكن يرقبونهم . . ومن حين إلى حين يذهبون إليهم، يتزودون بالمعاني ثم يعودون إلى أبراجهم يفكرون ويتأملون . . دون أن يطاردهم حاكم أو قانون أو تقاليد: إنهم دودة قز . . إنهم حيوان لؤلؤ . . إنهم نسور يبنون أوكارهم فوق! سعداء؟ ليس من الضروري . . فالسعادة ترف عظيم . . إنهم على الحافة بين الرضا والسخط، بين الأمن والقلق، تعساء؟ ليسوا سعداء ولكنهم معذبون بما لديهم من حساسية شديدة . . هل هناك حل؟ لا حل فهم مشكلة إنسانية مهمتها حل مشاكل الإنسانية . . إنهم مثل مخترعي العدسات . . أكثرهم ضعيف النظر. ولكن مهمتهم خلق

شيء يستخدمه الناس ليروا أوضح وأبعد وأعمق . .

فما الذي يريده دوموس فيكتور (٨٥ عاماً) من حياته ومن غرامياته؟

إنه اختار المستحيل. وكفى.

وكل فنان يختار نوعاً من المستحيل، ويمضي العمر كله يحاول الوصول إليه . . كل الشعراء أحبوا القمر . . ولياليه . . وأحبوا معه المحبوبة . . وكرهوا مع لونه الغيرة، وخافوا مع اختفائه من الهجر والموت . . وأحبوا الأماكن البعيدة المهجورة . . ليبقى الحبيبان وحدهما .

وكان الشاعر الجاهلي القديم يقول لمحبوبته : لو كنا جملين أجربين في صحراء مقفرة ـ فلا يقربها أحد، ولا يراهما .

وكل فتاة تحلم بمن يجيء والناس نيام ويضعها على حصان أبيض . . ويظل الإثنان على ظهر الحصان حتى الموت . . أو قبل الموت بدقيقة واحدة في مكان مهجور . . فقط تريد أن تكون وحدها معه، حتى ولو لم يكن هناك هدف ـ حتى في القبر!

وفي الأساطير القديمة : كانت بنت السلطان ـ أي الرجل القوي العظيم صاحب القلاع والحراس ليلاً ونهاراً . . ثم يجيء الحب ويدوس القلاع والحراس ويجمع بين العاشق الولهان وبنت السلطان المحرومة من السعادة . . ولكي يصل العاشق إلى بيت السلطان، لا بد من معجزة . . وتكون المعجزة أن تهرب بنت السلطان . . أو

تجيء ساحرة وتساعد العاشق على دخول قصر السلطان.. أو يمرض السلطان ويرى في نومه أن شاباً فقيراً واقفاً بالباب هو وحده الذي سوف ينقذه من الموت، وتكون المكافأة: زواجه من بنت السلطان!

وكانت أول قصص دوموس فيكتور أنه أحب إبنة قائد الشرطة التي حاصرت أحد مخيمات الغجر على حدود مدينة ميلانو الإيطالية.

وفي نومه قام بطل قصته «وعلقت حذاءها في عنقي» وقتل جميع أفراد القبيلة.. ثم فرش بملابسهم الأرض.. وزرع رؤوسهم أشجاراً، ومن زراير بدلهم عقوداً وأقراطاً.. ثم ألقى بقلوبهم في النهر.. لتجيء إبنة قائد الشرطة لترى الفضيحة التي قدمها العاشق.. فتعلق حذاءها في عنقه.. وأسعده ذلك.. وفي نهاية القصة يقول: هناك شعوب خلقت للعرش، وشعوب للركوع أمامه، وشعوب تتفرج على ذلك.. ونحن نكتفي بذلك الشرف العظيم: أن نكون على مقربة من حفلة التتويج هذه. وأن أحمل إلى قومي دليلاً على صحة ما حدث.. فهذا حذاء بنت السلطان قلادة في عنقي!

* * *

ولكن دوموس اكتشف، مع الأسف الشديد، أنه يحب زوجة السلطان.. متوسطة الطول سمراء لها ابتسامة جميلة ونظرة أجمل ولمسة من أصابعها مع هزة من رأسها، والتفاتة من جيدها، تجعله

يـدوخ في مكـانـه، ويتقلب في فـراشـه. . ولكن مـا الـذي يقـولـه لأحد. . إنها زوجة السلطان. . ولكن مـا الذي يستـطيعه السلطان لمن يحلم كـل ليلة بزوجتـه ويجعلها زوجتـه. . ويحدثهـا طويـلاً عن السلطان الـذي هـو سلطان لكـل النـاس. . ثم لا أحـد يحب السلطان. . ولا هي. . ولكنه هو وحـده الذي يستـطيع أن يعـطي وأن يقول. . وأن يرد لها إنسانيتها. . وأن يوقظ النائم في أعماقهـا: قلبهـا. . كرامتهـا. . أنـوثتهـا. . ومـا قيمـة السلطان. . إنـه رأس رسمي مزركش. . هو يصفق لـه والناس لا يحتـرمونـه. . أين هذا من الفستان الحريري والسرير الحريري والعطر المترنح في فراشه كل ليلة. . أين هذا من المغنيات والـراقصات عـلى سقف الغرفـة وعلى جـدرانه كـل ليلة. . أين العرش من زورق حـالم على سـطح الماء، وهي على سطح الزورق وهو. . كل ليلة.

ـ فاشل هذا الحب؟

ـ نعم. وكل حب فاشل. فالـذي يتحقق قد انتهى. والـذي انتهى لم يعد حباً وإنمـا هو ذكـرى حب. فالحب الحقيقي يـولد ولا يمـوت! وإنما الحب يتـوالد. . كـالشمس تشرق وتغـرب وتشرق. . والحب كـالشمس أطول عمـراً عـلى الأرض التي يشـرق عليهـا. . ولكن إذا ماتت الأرض فلا شروق ولا غروب.

فهـذا الحب من عمر عمـري. . ومن فشلي أيضـاً! ثم أن أكثر الشعوب حضارة أكثرها فشلاً في الحروب: ألمـانيا وفـرنسا والصـين

والنمسا والمجر وتركيا ومصر!

ــ هل هو حرام؟

ــ ليس حراماً. . ولكن العذاب حرام، ما ذنب المحب إذا اختار المستحيل فالذي يحب المستحيل لا يستحق الموت، فليس مجرماً، ولا يستحق العذاب فهو لم يغتصب حقاً ولم يهتك عرضاً. . إنه يضيع خياله وأحلامه ويبكي على عمره!

* * *

ويوم اختلف دوموس مع صاحب الفندق. ولم يدفع فهدده بالحبس فقال له:

ــ الحبس أرجوك.

ــ لماذا؟

ــ أنا حبيس طول عمري. في هذا الجسم. في هذا المجتمع.

في هذه الطبقة. . في هذه الفئة الضالة من مخلوقات الله. . حبيس هذه الأرض. . ضعني في السجن يا سيدي. . ففي السجن سوف أشعر ببرودة الجدران والأرض والسقف والحشرات. . احبسني يا سيدي. . ففي السجن سوف أجد عذاباً محدداً. وخارج السجن فلا حدود لعذابي.

ــ هل هو القدر؟

ــ قدري يا سيدي. . لو كنت عند بدء الخليقة لسألت الله: ولماذا قلب واحد يا رب؟ لماذا لا يكون لي ألف قلب، فيكون ذلك

توحيداً للعذاب وتركيزاً له في عضو واحد ومكان واحد. . لسبب واحد هو أنني أحببت زوجة السلطان. . أحببت المستحيل. . أحببت عرشاً أحلم بأن أجعله فراشاً وثيراً. . بل حصيراً ممدوداً. . بل تراباً ناعماً أتمرَّغ عليه في شمس الوفاء. . وأموت بعد لحظات من ذلك. . هل هذا كثير؟. . ليس كثيراً!

ـ وبعد؟

لا بعد. . هذا هو «بعد». . فلا بعد وراء ذلك! انتهى كل شيء. . إنها نقطة في نهاية السطر. . إنها ذرات الكلمات في هذا السطر. . بل إنني صدى أصداء التراب على التراب. . حرام والله يا الله!

ـ ليس حراماً ما أراده الله!

ـ آمنت بالله. . ولكنه حرام!

ـ كيف تؤمن بالله وترى الحرام حلالاً؟

ـ إنه حلال فوق، حرام تحت. . لو سقط نيزك من السماء، فلا أحد في السماء يشعر به، ولكن الأرض تهتز والزرع يموت والحيوانات. . وأنا أحترق. . ألا يحق لي أن أرفع صوتي صارخاً: حرام يا رب!

ـ سقوط نيزك ليس حراماً. . إنه حجر ملتهب يسقط على حجر بارد. . ولكن الحرام هو أن كل هذا الكون يتحرك ضدك. . أن تتصور ذلك وتصدقه وتحاول إقناعنا به. . وأنك المظلوم، لا واحداً من ملايين، ولكن الواحد المظلوم. . فلست عظيماً إلى هذه

الدرجة، ولا هذا الكون تافهاً إلى هذه الدرجة!

ــ ولكن ألا ترى أن صرخة مظلوم في وجه الكون، شيء جليل.. ألست ترى أن يكون للإنسان ألف قلب، أكبر من احتماله.. ألا ترى أن كائناً طويلاً جداً يحرق رأسه في قرص الشمس.. ألا ترى أن قزماً صغيراً جداً، يتخبط برأسه في بيوت النمل.. ألا ترى في ذلك درجات من العذاب بلا جريمة!!

* * *

وعندما دخلت الخادمة عليه وقد ألقى أوراقه على الأرض.. ثم نهض وكدسها في جانب من الغرفة.. ثم عاد ففرّقها على الأرض.. وقسّمها يميناً وشمالاً.. ومسح بها عرقه ودموعه.. ثم أعاد ترتيبها والتفت إليها. فقالت له: كل هذا للحريق!

فأجابها: بل بسبب الحريق!

وهزت رأسها وكتفيها وأقفلت الباب. فلم تفهم!

* * *

والتقى به أحد رجال الدين، ولم يقل لنا من أي دين. فتارة يوهمك بأنه يهودي وتارة بأنه مسلم أو بوذي شيوعي أو ملحد.. أو وجودي أو غجري. ثم لا نعرف من الذي يسأل ومن الذي يجيب؛

ــ كان من الممكن أن نصبح واحداً من رجال الدين.

ــ نعم. كذلك كان من آمال العالم الفلكي كبلر وعالم الأحيله

داروين وعالم النفس فرويد. . فلا بد أن يكون للإنسان دين. . وكل من يحب هو مؤمن.

ـ ولكنك فيلسوف لم تكتب إلا قصة واحدة وقصيدة واحدة.

ـ وتشرشل كتب رواية واحدة وكذلك موسوليني والممثلة سارة برنار. فعندما كتبوا كانوا أدباء، وإن كانت لهم اهتمامات أخرى أكثر بريقاً!

ـ وفي هذه الرواية كانت جنتك؟

ـ جنتي هي حيث أكون. إنني أستطيع أن أعيشها فوراً. أغمض عيني فلا أرى غيرها ولا أسمع سواها. . والجنة هي أحلام يقظة الشعوب أيضاً. . فما من شعب إلا ويقنع نفسه بأن الجنة سوف تكون على أرضه، مصر والعراق واليمن وأندونيسيا وأمريكا. . وربما الصين وروسيا. . فهم جميعاً يحلمون بأن يكونوا شعب الله المختار. وأرضهم هي الجنة الموعودة. . ولكنهم ينتظرون حتى تقوم القيامة. . أما أنا فأقيم الدنيا وأقعدها. . وأبني جنتي فوق كتفي وأحملها ذهاباً وإياباً. جنة وهمية وجهنم مؤكدة!

* * *

تعلّم دوموس فيكتور في مدرسة صغيرة في إحدى القرى الصغيرة لمدينة تورينو الإيطالية. ورحل إلى مدينة أخرى. . ثم رحل إلى ثالثة. . وكان ينظر من فتحة في العربة التي تنقله إلى الحقول والوديان والجبال والغابات ولا يفهم شيئاً. . لماذا كل شيء له صوت. . له دوي. . لماذا كل شيء متحرك. . وحتى عندما

تتوقف القبيلة الغجرية فإنه ينقل السرير وأدوات الطعام والمقاعد ويجري من السوق إلى الخيمة. . وفجأة.

يعاد كل شيء إلى ما كان عليه وترحل القبيلة الغجرية. . مرة واحدة أدخلوه السجن. فقد رأى أحد عساكر المرور جليلاً مهيباً فقفز من العربة واتجه إليه وحاول تنحيته عن مكانه ليقف بدلاً منه راسخاً ثابتاً وكل شيء يتحرك حوله بأمره وإذنه. . فقد كان يرى في عسكري المرور أعظم إنسان في الكون. . فهو الآمر الناهي. .

ومرة أخرى دخل السجن. فقد تسلل إلى إحدى الكنائس وألقى طوبة على القسيس فقد رآه أبيضاً لامعاً مشرقاً. والناس ينحنون له ويسجدون ثم يقبلون يديه ويتركونه!

ثم دخل المستشفى بعد أن أصيب بالتهاب رئوي، فبحث عنه أهله ووجدوه قد ربط نفسه بالحبال فوق شجرة في يوم مطير. . ولما سألوه قال أنه قرأ قصة لأحد الرهبان قد جلس فوق شجرة يأكل ويشرب بعيداً عن الناس الذين يمشون حوله فيبصق عليهم!

وظهرت موهبته الفنية. .

فقد علمته أمه أن يغني وأن يرقص وأن يمد يديه بخفة إلى جيوب الناس وأن يسرق وأن يهرب. . وأن يبتلع الذي سرقه إن كان ذهباً أو كان من الماس!

وظهرت موهبته في العزف.

وعلَّمه أبوه ترقيع الأحذية وعلَّمه أيضاً ذبح الطيور. .

وكان أعظم يوم في حياته عندما علَّمه أبوه، أن يقود السيـارة. رغم صغـر سنه. ولكن والـده بدأ يشكـو من آلام الرومـاتيزم. ولم يكن أبوه لطيفـاً ولا كان عنيفـاً. ولا شيء على وجهـه يدل عـلى أن لديه أي نوع من الإحساس.

وفي يوم سأله دوموس وكان في الخامسة عشرة من عمره:

ــ يا أبي هل كانت أمك تضربك؟

ــ كثيراً.

ــ وهل كنت تتعذب لذلك؟

ــ نعم.

ــ وإذا تذكرت هذه الأحداث الآن ألا يحزنك ما حدث؟

ــ جداً.

ــ ولكن شيئاً من ذلك لا يبدو على وجهك!

ــ نحن يا ولدي بلا وجوه.

ــ كيف؟

ــ إن أحـداً لا ينظر إلى وجـوهنا. . لا يعـرف مـاذا نـريـد. . لأنهم يعرفون ماذا نريد ولذلك فلسنا في حاجة إلى تعبـير. . ولا إلى وجه يبدو عليه هذا التعبير!

ــ ألست بشراً؟

ــ لا يا ولدي!

ـ إذن من نحن؟

ـ كما ترى.

ـ بشراً!..

ـ سوف تغيِّر رأيك عندما تكبر..

ـ ولكني كبرت.

ـ عندما تكون في سني؟

ـ وما رأيك الآن يا أبي؟

ـ لسنا بشراً.. ولكن الذي يرانا عن قرب يُخيَّل إليه كذلك!

ـ لأننا من الغجر؟

ـ نعم.

ـ والغجر ليسوا بشراً؟

ـ ما داموا بلا دولة!

ـ ولكن أناساً كثيرين لهم دول، يعيشون فيها كالحيوانات.. كالكلاب..

ـ ولكن لهم دولة.. فهم كلاب رسمية.. ونحن كلاب ضالة!

ـ وإذا كنت أخالفك في هذا الرأي!

ـ سوف تتفق معي فيما بعد!

ـ لن أتفق!

ـ ستفقد كثيراً يا ولدي.. معي أولاً.. ومعهم ثانياً!

ـ وبعد؟

ـــ إني مـريض يا ولـدي. . لا ترغمني عـلى أن أعود إلى قيـادة السيـارة حرصـاً على حيـاة أمك وأخـوتك. . فـأنت الآن لا تصلح لقيـادة السيارة. . أو قيـادة هذه القبيلة. . كنت أريـد أن أعلن لك عن اختيار القبيلة لك. . فهم يرون فيك أملاً لمستقبلهم. .

ـــ أنا شيخ لهذه القبيلة؟

ـــ ولكنك الآن خذلتني.

ـــ أنا شيخ لهذه القبيلة؟

ـــ نعم.

ـــ لماذا؟

ـــ لأنـك ذكي. . لأنك مـطرب وراقص. . وشاعـر. . ولأنك ولدي. . فقد كان جدك شيخاً لهذه القبيلة!

ـــ لكي أعمل ماذا؟

ـــ لكي تواصل.

ـــ أواصل ماذا؟

ـــ تواصل هذا!

ـــ وما هذا؟

ـــ هذا الذي لا تراه على وجهي. .

ـــ الصمت والغموض.

ـــ . . والهرب. .

ـــ من ماذا؟

ـــ من أن نبقى في مكان واحد فيتسع أمامنا فنفكر في حالنا. .

وإذا فكَّرنا أصابنا ما أصابك. . فثرنا على حالنا. . فندخل السجن فنفقد الشيء الوحيد الذي نحرص عليه: الهرب. . الهرب. . ولو لم تكن هناك جريمة. . وإلا قل لي ما هي الجريمة التي ارتكبها الحمار ليكون كذلك. . والخنزير والكلب والصرصار لا جريمة. . وكذلك نحن بلا جريمة وبلا خلاص ولا أمل في ذلك!

* * *

وأما أعماله الأدبية فهي دراسات عن التاريخ والإنسان. وعن الجماعات المنعزلة على أطراف الغابات ووسطها والواحات وجماعات الغجر في المجر وبولندا وأسبانيا والمغرب. . وكتب أخرى في الصناعات اليدوية. . وقراءة الطالع. . وتدوين للأغاني الغجرية، وبحث عن مصادرها الأوروبية والآسيوية. .

ومن أشهر أعماله رواية «أشجار لا تعرفها الطيور» ولها نفس المعنى الذي يتعذب بها أبناء الغجر. .

وله ديوان من الأغنيات الشعبية الإيطالية والفرنسية والألمانية والبولندية والصحراوية والزنجية. وقد حاول أن يجعلها رمزية. وقد ظهرت كل أعماله في لغات كثيرة. ولأنه بلا جنسية فهو لا يتعاقد مع أحد. وإنما يعطيها للناشر ويتقاضى أجرها فوراً ويتوارى.

* * *

وأما بطلات قصائده فلها أسماء سلافية أو خليط من الشرق والغرب: تها. . توخا. . هالينا. . سؤزي. . سوزان. . منونة. .
وأحدث أعمال دوموس الأدبية هو الذي نشره قبل مرضه. إنه

مـذكرات أدبيـة. أو مذكـرات بـأسلوب أدبي، وإن كـانت مـواقف ومحاورات ذاتية ـ مونولوجات.

يقول:

ـ يا دوموس حيَّرتني: إن كنت مريضاً فليس عندي شفـاؤك. إن كنت سلبياً فليس عندي ثوابك.

ـ أعـرف ولكن كيف لا أشكو. كيف لا أشكـو. كيف لا أشكو نفسي لنفسي!

* * *

ـ يـا دوموس إن كـان كل الـذي تريـده هو السلطان، فهـذا سهــل. كثيـرون استــطاعـوا أن ينــالـوا السلطة وأن ينــالـوا من السلطان.. ولكن زوجة السلطان يا دوموس كيف؟

ـ ولكن كيف لا أحلم بذلك؟

ـ ولكن من هو الحالم الذي لا يريد أن يكون الحلم حقيقة؟

ـ أنـا الذي لا أريـد الحقيقـة.. والـذي أعـرفـه من الحقيقـة يوجعني. أعرف حقيقة أننا بشر ولسنا بشراً! وأعرف أننا أناس دون الناس. أعرف أننا أحياء فضلاً وكرمـاً من الناس.. أعـرف أننا لا كـلاب ولا طيور ولا خنـازير.. بـل دون ذلـك.. فكيف تتصـور لحظة واحدة أنني أريد الحلم أن يكون حقيقة؟! فقط أحلم!

ـ ولا حق لك في أن تحلم.. فلست مؤهلاً لذلك.. يحلم أن يكـون ضـابطاً من هـو جنـدي، يحلم بـأن يكـون قـائـداً من هـو

ضـابط . . يحلم بـأن يكـون سلطانـاً من هـو ابن السلطان . . يَحلم ببنت السلطان ابن سلطان آخـر يحلم بـزوجـة السلطان مجنـون . . حتى أنت لست مجنـونـاً . . فـالمجنـون يجب أن يكــون وأنت لست كائناً .

ــ بل كائن ! !

نعم . ولكن على هامش الكائنات !

يسعدني كثيراً
أن تموت كل النساء من أجلي!

. تزاحمنا ووقفنا وجلسنا حول الرئيس السادات في بيت السفير المصري في واشنطن نريد أن نعرف أسرار «كامب دافيد» وكان الرئيس مرهقاً يمسح عرقه بمناديل من الورق وبيديه ولكن في غاية الحيوية. وفجأة طلب واحد منّا وكان صادقاً فيما يقول: ألا ينشر خبر استقالة وزير الخارجية حتى لا يؤدي إلى إفساد هذه البهجة باتفاقية السلام. . أو حتى لا يكون بقعة سوداء في ثوب الزفاف . .

وثار الرئيس السادات: وقال كلاماً موجعاً واندهشت عندما سمعته يقول:

ميمي بيه . . أما ميمي بيه حقة!

و«ميمي بيه» إسم شخصية كاريكاتورية لم يعد أحد يرسمها أو يتذكرها. هل لأن هذه الشخصية انقرضت بعد أن ظهرت كرد فعل على الخشونة المطلوبة بعد ثورة يوليو؟ أو لأن «ميمي بيه» أو «ميمي» لم يعد بينهما فرق كبير. . فكلاهما أصبح يضيق بالخشونة والتقشف!

فكيف تذكر الرئيس السادات «ميمي بيه» ووصف ووصم به أحد الزملاء. . لا بد أن الرئيس السادات قصد من ذلك أن يصف موقفه بالضعف وبأنه لا يفهم في السياسة العنيفة. . أو لا يعرف ما يجب أن يفعله السياسي الخشن في مثل هذه المواقف.

سألت الأستاذ الكبير مصطفى أمين متى ظهرت هذه الشخصية الكاريكاتورية. فقال لي أنها من اختراع المرحوم علي أمين والفنان الكبير رخا. وأنها كانت بقصد السخرية من الشخص الناعم أي من الرجل الأنثى ـ أي أقصى درجات الرخاوة والطراوة!

وظهرت في الخمسينات في مصر أيضاً تعبيرات لها نفس المعنى:

جيمس دين. . وهو الممثل الأمريكي الذي مات في حادث سيارة. وقد أطلقته السينما الأمريكية رمزاً للفتى الضعيف الذي يثير عاطفة الأمومة عند كل امرأة. وكانت له خصلة تتدلى على جبهته. . وكنا نصف من يقلّده أنه جيمس «دون»!

ومع ظهور أغنية عبد الحليم حافظ «أبو عيون جريئة». . ظهر بعض الشبان ولهم شعر جيمس «دون» ولهم عيون تبحلق في الفتيات. . وكان ذلك نوعاً من الخروج على الآداب والتقاليد. . أو على الانضباط المطلوب من أبناء مصر بعد ثورة يوليو. وقد اعتقل المشير عبد الحكيم عامر عدداً من هؤلاء الشبان وحلق رأسهم بالموسى ـ وهو نوع من الانضباط العنيف!

ولنفس الأسباب ظهرت شخصية مارلون براندو. . وأصبحنا نطلق هذا الاسم على الناس الذين يعتنون كثيراً بالوجاهة والأناقة وجاذبية النساء. حتى أننا أطلقناه على الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، أجمل الأصوات في ذلك الوقت وأكثر القرّاء أناقة وشياكة، فقلنا عبد الباسط براندو!

وقبل ذلك كنا نغمز ونلمز عند مرأى رجل أنيق أو سيدة «قنزوحة»: هه. . بتوع نادي الجزيرة!

أول مرة سمعت اسم نادي الجزيرة كان في اجتماع التحرير لمجلة «روزاليوسف» سنة ١٩٥٠. . فقد سمعت محرراً اسمه إسماعيل سري، إبن أخي رئيس الوزراء حسين سري باشا يشكو

الأستاذ صلاح حافظ للأستاذ إحسان عبد القدوس. أما الشكوى فجاءت هكذا: إنني لا أستطيع أن أدخل النادي.. سوف يأكلون وجهي.. هل معقول أن ترتدي «مولى» ـ يقصد آمال الشقراء الجميلة الفارعة ـ جوباً أسوداً وبلوزة حمراء بنقط سوداء؟ إنني أضحوكة نادي الجزيرة.. ثم أنني نبَّهت صلاح حافظ أكثر من مرة أن يراعي الدقة.. أن «روزاليوسف» هي نكتة نادي الجزيرة.. أقسم بشرفي!

أما الخطأ الفادح فهو أن صلاح حافظ عندما أعاد كتابة هذا الخبر جعل لون البلوزة أحمر، مع أنه كان أبيض؟!

وفي ذلك اليوم تسللت مع أحد أقاربي الأغنياء إلى نادي الجزيرة.. ولا أذكر بوضوح ما الذي رأيت.. هل صحيح أن كل الموجودين كانوا من الخواجات.. هل كانوا جميعاً يتكلمون الفرنسية.. هل كل سيدة تسحب وراءها كلبها وزوجها.. وكل شيء كان لامعاً: العيون والصدور والآذان والأصابع والأكواب.. والدموع في عيني.. عندما أمسكني أحد موظفي النادي وسألني إن كنت عضواً! (وهذا قد يفسر لي أنني عضو في نادي الجزيرة من ثلاثين عاماً ولم أدخله إلا خمس مرات ـ ربما؟!).

وبعد ثورة ١٩١٩ ظهر تعبير أصحاب «الجلاليب الزرقاء». أي الفلاحين والعمال في مواجهة أصحاب القمصان البيضا والبدل ـ أي الطبقة الأرستقراطية.. ثم ظهر أصحاب «القمصان

الزرقاء» أي شباب حزب «الوفد». . ومع ظهور الفاشية في إيطاليا ظهر أصحاب القمصان البنية. . ومع ظهور النازية ظهر أصحاب القمصان السوداء. . أي الذين لا يهتمون بمظهرهم الخارجي. . والذين لا يحرصون على الملابس المتنوعة الأشكال والألوان. وإنما هم أصحاب الزي الواحد الموحّد. . أي الذين يطالبون بالمساواة القومية بين العمال والفلاحين والجنود، في مواجهة الطبقة النبيلة: الأغنياء ورجال الأعمال والأسرة المالكة!

* * *

ولسبب ليس واضحاً تماماً ومن مائتي عام ظهر في بريطانيا اتجاه اجتماعي اسمه: شباب المكرونة. . ولم تكن المكرونة نفسها ـ تلك العجائن المعروفة ـ شيئاً جديداً في بريطانيا ولا حتى في أوروبا. . فهي اختراع قديم صنعه الصينيون وانتقل إلى ألمانيا واستقر في إيطاليا بأحجام وأشكال وألوان متنوعة لذيذة.

ثم ظهر في بريطانيا في سنة ١٧٧٠ سلوك اجتماعي وصفه الناس بأن هؤلاء الرجال: مكرونة. .

ثم كان النادي المعروف باسم «نادي المكرونة» وقد اتخذ النادي هذا الاسم لأن المترددين عليه يرتدون زياً مختلفاً: القميص الأبيض الحرير والبنطلون الأبيض ورباط العنق الأحمر الفاقع. والوردة الحمراء في الصدر ثم الإيشارب الأزرق والبنطلون المفتوح من أعلى المخنوق من أسفل. . ثم أنهم يفضلون الوقوف أمام باب النادي. ومن عادتهم أيضاً أنهم يدورون بعيونهم وأجسادهم كلما

مرت سيدة جميلة. وكانوا حريصين على الانحناء يميناً وشمالاً تحية للجمال العابر. . وبعضهم كان يحمل زجاجة من العطر في جيبه. ويلقي بقطرات منها في يده. . وأحياناً في يد غيره. . أو يلقي بالزجاجة كلها عند قدمي أية حسناء.

وأكثر هؤلاء الشبان لم يكن أحد يعرف إن كانت لهم وظيفة، أو أنهم من أولاد الذوات. .

ومن علاماتهم أيضاً: أنهم ينادون بعضهم البعض بأسمائهم الصغيرة. فلا أسماء عائلية.

وبعضهم كان يتباهى بأنه لم يذق نوماً ولا طعاماً أياماً. لماذا؟ إنه الضيق بكل ما في البيت. والبيت نفسه وبأنه مضطر إلى أن يعود إلى نفس الفراش ويتمدد إلى جوار نفس الزوجة.

وفي ذلك الوقت من نهاية القرن الثامن عشر انتشرت «قصيدة المكرونة» ـ أي الشعر الذي تنتهي أبياته عادة بكلمات أجنبية: يونانية أو لاتينية. .

وكان قد برع في هذا الفن الشاعر الراهب فولنجو وذلك في نهاية القرن السادس عشر، وكان له أثر كبير على الشاعر موليير. وعلى الأديب الفرنسي رابليه أيضاً.

وهذا الطراز من شباب المكرونة، لم ينتشر إلا في لندن وحدها.

ولكن ظهر هذا الشباب بصورة أخرى في باريس مع الثورة الفرنسية، وبعدها أيضاً. فمع الانضباط والقسوة والتقشف الذي أشاعته الثورة الفرنسية، ظهر تمرد على كل ذلك تعبيراً عن الضيق والسخط وإراقة الدماء والظلم. صحيح أن الشعب الفرنسي قد كفر بالملكية، وجاهلية الأسرة المالكة وحكم الغواني. ولكنه في نفس الوقت لم يحتمل أن يجيء ظلم جديد بدلاً من ظلم قديم.. فبعد أن كان الظالم ملكاً أنيقاً وغانية مثيرة، جاء الفلاحون الأجلاف والعمال الغلاظ يسومون الشعب الفرنسي ظلماً من نوع جديد.. ولذلك ظهرت جماعات تعيد الأناقة والميوعة والوقوف بظهورهم إلى الحائط يتفرجون على الوحوش الآدمية التي ترفع أسمى مبادىء الانسانية.

ثم أخذت الثورة الفرنسية تأكل أولادها زعيماً بعد زعيم.. ويوم أعدموا زعيمهم روبسبير سنة ١٧٩٤ كانت الفرحة تعم البيوت.. وفي ذلك اليوم اهتدى الترزية في باريس إلى قميص أحمر به نقط بيضاء.. وقمصان بيضاء بها نقط حمراء.. ثم قمصان بيضاء حولها أربطة زرقاء.. ثم اختفى اللون الأحمر. اختفى لون الدم ـ أو كان ذلك واحداً من آمالهم.

وكان الفرنسيون قد أطلقوا على الشعب اسم «سان ـ كيلوت» أي الذين لا يلبسون الكيلوت. والكيلوت هو البنطلون القصير الذي يرتديه أبناء الطبقة الأرستقراطية ـ يجب أن يكون قصيراً

مناسباً لركوب الخيل. أما الشعب فهو الذي يرتدي البنطلون الطويل أو السروال.

وظهرت الحفاوة الشديدة بالزي وبالمظهر الخارجي. والثورة الفرنسية هي التي دفعت الفرنسيين إلى التفنُّن في الأزياء الأنيقة ـ أي الأزياء التي تعبِّر عن الانفلات من قيود الثورة.. أي رفض الزي الواحد، والقالب الواحد والنظرية الواحدة.. فالثورة الفرنسية فجَّرت عبقرية فرنسية أخرى: عبقرية الأزياء وتصميم الأزياء وبيوت الأزياء، وإذا كانت ثورة فرنسا هي أم الثورات.. فهي أيضاً أم الأناقة.. أم هذا التغيير المتجدد في اللون والقماش والخط، فهي الثورة التي لا ينتهي إبداعها مع فصول السنة. فلا تزال باريس هي عاصمة النور والعطور والحور. وهي التي تحكم الذوق العالمي ـ ولا استئناف لهذا الحكم إلا في بيوت أزياء باريس!

ثم استطاع الشعب الفرنسي عاشق الحرية الفردية أن يعقد زواجاً سعيداً بين الثورية والأناقة. فكان الأنيق جداً ثورياً أيضاً. ما المانع؟ إنه حر، اختار الثورة الفرنسية واختار أن يكون فلاحاً أو عاملاً أو مفكراً اشتراكياً أو أنيقاً فوضوياً. وأصبحنا نجد الفرنسي الأنيق «ميمي بيه» أو «الرجل العايق» أو «المعجباني» وكذلك السيدة «المشخلعة» ـ وكلهم يعبدون البطل الأسطوري نابليون.

ولكن نابليون رغم ما يتمتع به من عبقرية عسكرية، ومن حرية ثورية جعلته كالبركان يقذف بالجديد في كل مجالات العلوم

والفنون، فإن إحدى الفتيات قد رفضت الزواج منه. . لماذا؟

قالت الفتاة أنها نظرت إليه من ثقب الباب فوجدته يمسح حذاءه في بنطلونه وأنفه في كمه ويدوس بحذائه ما بصقه على الأرض. .

وأكثر من ذلك: لم تجد معه صندوقاً للعطور والبودرة!

فنابليون الذي كان شمساً تضيء وتدفىء كل بيت، قد نسي نفسه!

وفي وليمة في بيت أحد النبلاء أمسك نابليون السكين بيده اليسري والشوكة بيده اليمنى. . ولما وقعت الملعقة على الأرض، أعادها إلى المائدة، واندهش الحاضرون. فقال نابليون: لا تنسوا أنني أنا الأمبراطور. . أليس من حقي أن أخرج على قانون وضعته أنا ولو مرة واحدة!

ويبدو أن الفرنسيين لم يستريحوا إلى هذا التفسير. فالأمبراطور يجب أن يكون أول من ينحني للقانون، ولو كان هو صاحب هذا القانون. أما هذا القانون فهو أن يمسك السكين باليد اليمنى والشوكة باليد اليسرى وإذا سقطت الملعقة أن يتركها في مكانها حتى يتشرف بتقديمها أحد من النبلاء أو الوزراء. ولم ينس الفرنسيون أن نابليون هو أول من رتب وضع السكينة إلى يمين الطبق والشوكة إلى يساره والملعقة فوقه والفوطة تحته!

ونابليون أيضاً هو أول من طالب بأناء صغير به ماء ساخن

ليغسل به أصابعه ـ فقد حدث أن كان مرهقاً غير قادر على أن ينهض لغسل يديه!

ومع الأمبراطور نابليون ظهرت موضة «الأمبير» أي الأمبراطورية في الأزياء وفي الحفلات وفي الطعام وفي الرقص. وظهر طراز من الرجال فائق الأناقة ـ ذئاب بالغة النعومة!

* * *

ولكن لم يعرف العالم كله رجلاً مثل جورج بروميل (١٧٨٨ ـ ١٨٤٠). وقد ولد معه في نفس الوقت شاعر عظيم معجباني ولورد بيرون. ولورد بيرون هو الذي قال: إنني أفضّل نابليون النظيف الأنيق على ولنجتون الذي انتصر عليه..

وبروميل هذا كان شخصية فريدة.. أو هو طراز عجيب من البشر. فهو رجل اختار أن يكون أنيقاً بأي ثمن. وأن يكون الثمن من جيب المعجبين والمعجبات به.

وله فلسفة: عندما أبدو أنيقاً فأنا متعة للعين. وهذه العيون التي تجد المتعة يجب أن تدفع الثمن، وأن تساعدني على أن أظل هكذا دائماً.

ويقول أيضاً: أنا ضد التضحية التي لا مقابل لها. كيف أضحّي من أجل أحد، لا يضحّي هو أيضاً!

ويقول: لا أفهم أن يتعذب رجل من أجل امرأة.. ولماذا لا

تتعـذب هي أيضـاً. . إن الحب فعـل مشتـرك، فلمـــاذا أكـون أنا الخاسر دائماً!

يقـول: مثلي الأعـلى شيوخ القبـائل في أواسط أفـريقيـا. إنهم يتزوَّجون بـالمئات، بشـرط أن تبقى كل واحـدة في بيتها، ثم يلتقي بها في الغابة ـ بعيداً عن بيته وبيتها!

وكان جورج بروميل قـد وجد الممـوِّل الكبير لمـلابسه الفخمـة الكثيرة. وكان ذلك أحد النبلاء. وقد أنفق عليـه كثيراً. فقـد كان شديد الإعجاب به.

يقول بروميـل: إن كان هـدفك أن تغـزو قلب رجل فتحـدث دائماً عن عقله وذكائـه وحكمته. . وإن كـان الهدف امـرأة فتحدث عن ملابسها واملأ جيوبك بالحلوى.

وكان بروميـل هو الـذي يصمم أزياءه بنفســه. . وهو أول من اختـرع القمصان بـلا ياقـات. . واختـرع القمصـان ذات الأكمـام القصيـرة. . وأول من صمم الجـاكيتـات المحـزقـة ذات الـزرايـر المتعددة.

بروميل كـانوا يسمـونه: بـو. . أي الجميل. والقميص الـذي نرتديه في الصيف واسمه «بوشيرت» أي قميص بروميل!

وكان يصمـم أزياء النساء اللاتي يعجب بهن. . ومؤرخو الأزياء يرون أن قمصان النوم ذات «الأجور» والتي لها ورود على الـذراعين

من تصميم بروميل. . ولا أحد يعرف من أين اخترع بروميل رسم كلمات جميلة أو أبيات من الشعر على حزام قميص النوم ـ لقد قرأنا في «ألف ليلة وليلة» عن مثل القمصان. . ففي «ألف ليلة» نجد شهرزاد تقول للملك شهريار: ولما اقترب من ذات الحسن والجمال وقد دار رأسه من فتنتها، وقام بأصابع مرتعشة وقلب يعلو ويهبط، وفك تكتها. أشارت إليه أن يقرأ ما هو مكتوب عليها. إلخ وبروميل هو أول من جعل الحذاء من قماش الفستان. . وهو أول من صمم «حزاماً» لروب الرجال. . وهو أول من ربط حزام الروب بحزام قميص نوم المرأة، ليرقصا عاريين!

يقول بروميل: إن حبي الشديد للمرأة ليس سببه إعجابي بها، فأنا معجب بالطيور والزهور، ولكن ليس من الضروري أن أتزوج عصفورة وأعشق وردة! إن إعجابي بالمرأة هو إعجابي بشيء انتقل مني إليها. . أحب خضوعها، لأنني متسلط، أحبها أن تحبني. . أعشقها إذا هي عشقتني، أصلِّ عليها إذا ماتت من أجلي. . يا ليت كل النساء يمتن من أجلي. . أو يمتن لكي أستريح!

يقول: إنني مثل نابليون العظيم، عندي قوات احتياطية لكراهية المرأة!

وقد اختلف بروميل مع المعجب الوحيد به، ذلك الأمير الذي أصبح ولياً للعهد، فهرب إلى فرنسا هرب من الأمير ومن الدائنين ولم يفلح في أن يكون له أثر في باريس ولكنه استطاع أن يعرض

ملابسه بالمئات في مزاد علني. وقد اشترت النساء معظم المعروضات وبأسعار مرتفعة. وكان بروميل هو أول من وضع الحروف الأولى من اسمه واسم الفتاة التي يحبها أو تحبه على المنديل!

وله فلسفة جاءت في مذكراته التي نشرتها إيطاليا منذ خمسين عاماً وصادرها موسوليني وصادرها هتلر أيضاً. المذكرات عنوانها «حياتي ملابسي»، يقول: لا يزال الريش الجميل يصنع الطيور الجميلة!

* * *

عندما ينام العقل يصحو الفستان!

هذا رجل عجوز، ألا ترى ملابسه داكنة؟

مؤكد هذا رجل عجوز فهو يخلص لامرأة واحدة هي زوجته!

الأناقة تبدأ من ملابسك، والنظافة من تحتها!

المرأة ترتدي أي شيء لكي يظهر منها أي شيء: إلا سنها!

الفستان ثلاثة أنواع: قصير وطويل وثالث اسمه: عيب لا تنظر أكثر!

كلما قصر الفستان طالت النظرة إليه!

هذه المرأة مثل الفستان الطويل جداً: إنها لا يمكن أن تنحط أكثر من ذلك!

قالت لي سيدة: إن ملابسك الفضفاضة تعجبني فأنا عندما أراك لا أعرف إن كنت لم تكمل ارتداء ملابسك أو شرعت في خلعها!

وأنا أحب الفستان الذي تبدو فيه المرأة كأنها هربت من حريق وأنها اختارت الفستان الخطأ ـ هذا الاضطراب وهذا الفزع واليأس يثيرني تماماً!

أنت لست في حاجة إلى أغلبية لكي تشعل ثورة، فقط أقلية قوية مصممة وقضية عادلة ـ وكانت قضيتي أن أكون أنيقاً إلى أقصى درجة!

إذا لم تستطع أن تقدم لها ثوباً من حرير، فاجعل كلامك كذلك!

وبروميل هذا هو طراز من الناس. تجدهم في كل مكان. ولو لم تكن بينهم صلة. أو هو مزاج نفسي وأسلوب اجتماعي. وفلسفة سياسية.

في مستهل حياتي الصحفية كان لي صديق هو «عدلي جلال» المحرر بـ«الأهرام». إنه إنسان لطيف رقيق ودود، قد أحزننا على أنفسنا.. ففيه كل ما ليس فينا.. فهو شديد الأناقة. شديد الحفاوة بصحته، لا يأكل مثلنا ولا يشرب مثلنا ولا يضحك مثلنا. كل شيء محسوب. ولم نكن نعرف كيف يستطيع هكذا أن يختار ألوان

ملابسه. ولا من أين يأتي بالفوط إذا جلسنا على رفارف السيارات أو المناديل الورق لكي يمسك بها السندوتشات. ولا كيف يصفف شعره واحدة واحدة. ولا أين تعلم - وهو الفلاح من دمنهور - كيف ينحني للسيدات. ولا لماذا هو أسرع من يدعونا إلى الغذاء والعشاء وأسرع من يدفع. ولا يحاسبنا. أو يطالبنا بأن نقتسم الثمن. ولا كيف يعرف هذا العدد الهائل من الفتيات. ولا كيف هو ضاحك دائماً..

وكان الشاعر الغنائي مأمون الشناوي يسخر منه قائلاً: إنه إذا رأى القمر طالعاً في السماء، إلتفت إليه قائلاً بمنتهى الرقّة والنعومة: يا قمر نورك زاهي مرسي والله!

أو يقول عنه أنه ذهب للحلاق مرة فاعتذر له بأنه جاءه طويل الشعر! وأنه طلب إلى الحلاق أن يقص له أظافره فجرحه.. فاستأذنه في أن يتألم، فقال له الحلاق: تفضل يا بيه؟ فقال: آي!

ولم يخطر على بال أحد منا أن يقول عنه أنه «ميمي بيه» فهو في تمام الرجولة والشهامة والكرم فقد كان ذئباً مدرباً تدريباً جيداً!

ومن قراءة قصة حياة بروميل وجدت فيه حوادث من هذا النوع، بل تكاد تكون هي هي.

ومن المؤكد أن بروميل المصري لم يقرأ عن بروميل الإنجليزي.. ولا واحد منا قرأ عنه في تلك المرحلة المتقدمة من حياتنا.

الرجل «العيِّل»
مشكلة العصر!

منذ أيام شاهدت فيلم «آخر الفراعنة» عن حياة وسقوط وموت الملك فاروق. وفي الفيلم رأيت الأستاذ علي أمين يحكي أن الملكة فريدة أخبرته بأن الملك فاروق جاءها باكياً حزيناً. ولما سألته عن السبب قال أن محبوبته طردته.

تقول الملكة فريدة أنها لم تتضايق فهي تعتبر الملك إبنها.. وأنها حريصة على أن يظل هكذا.

على أن يظل طفلاً وتظل هي الزوجة الأم. هو لا يكبر، وهي لا تريده أن يكبر!

فالطفل نوعان: الطفل.. والرجل الذي لا يريد أن يكبر!

اليتيم نوعان: الذي مات أبواه.. والذي عاش أبواه ولا وجود لهما!

والأم نوعان: الأم.. والزوجة التي تريد أن تظل أماً لزوجها!

والطاغية نوعان: الطاغية.. والحماة التي تريد أن تبقى أماً، مهما كان عدد أحفادها!

وفي عصور المساواة بين الرجل والمرأة، اتخذ الرجال تحذيراً يقول: فتّش عن المرأة ـ لأنها وراء كل مصيبة تلحق بالرجل، وكارثة تصيب المجتمع!

لماذا؟ لأنها خرجت من البيت إلى العمل، ووقفت إلى جوار الرجل تطالبه بالمساواة في الحقوق، اعتماداً على ما قاله الرجل بأنه

يؤمن بالحرية للرجال والنساء والسود.

أي أن المرأة طالبت الرجل بأن يكون صادقاً فيما يقول. فليس من الحرية أن يكون حراً، وألا تكون.

وعندما ذهب الرجل إلى الحرب، قامت المرأة بما كان يقوم به الرجل في الحقل والمصنع والمكتب.. وكانت هي الأب والأم في البيت. ولم يعد الرجل قادراً على أن يتراجع عن هذا القرار.

وكأنما أراد الرجل أن يعاقب المرأة على ذلك، فأساء إلى سمعتها وراح يعمِّق لديها الشعور بالندم على أنها خرجت، وعندما خرجت تآمرت على سيدها الذي منحها الحرية.. وأن يحفر في أعماقها هذا العقوق له، لعلها تعود إلى البيت، كما كانت.. وهكذا تختفي المرأة، ويصبح الرجل وحده هو المسؤول عن كوارث الدنيا ـ ومع ذلك منذ أصرَّ الرجل على أن المرأة أم لهذه الكوارث بل أن أمومة المرأة لا حدَّ لها، فلو جلس عزرائيل على حجرها لفتحت صدرها وأرضعته!

ولكن كيف تكون المرأة عبداً ذليلاً للرجل مغلولة اليدين والشفتين والعينين ثم تقوم على تربية أطفال يؤمنون بالحرية وينادون بها، ويستشهدون دفاعاً عنها؟

وفي مرحلة تالية لممارسة المرأة لحريتها، أصبح الشر رجلاً وامرأة. والخطيئة: شركة. واللعنة: مناصفة. والجناية على الأطفال متكاملة!

أي أن كل شيء قد بدأ في الأسرة، أو بسبب الأسرة. فإن اعتدلت الأسرة، اعتدل الطفل. وإن انحرفت انحرف. وإن كانت مريضة فلا بد أن يمرض، وإن كانت سوية فهو مستقيم.

ولأن تربية الطفل جزء من مسؤولية المرأة، فاتخذ التحذير شكلاً واحداً في العالم: فتش عن الأم!

فالمرأة لأنها خرجت تركت الطفل وحده أو مع والدتها أو خادمتها.. وعندما كبر انفردت به الخادمة والتليفزيون الذي يقوم بدور الأب والأم والمدرِّس ورجل الدين وبنت الجيران: يعلِّم ويربِّي ويسلِّي ويفسد..

وتدحرجنا إلى عصر «العبيد» ـ حكم العبيد.. أي عصر الخادمات.. فالأم ليس لديها وقت لكي تكون أماً.. وإذا خُيِّرت الأم الآن بين أن تعمل وأن تكون أماً، اختارت أن تعمل.. وبعد ذلك تتزوج لكي تكون أماً. وإذا خُيِّرت بين أن تكون أماً بغير زواج، وأن تكون زوجة بلا أولاد، اختارت الأمومة مع التحرر من قيود الزوجية.. ولأن أعباء الحياة المادية قاسية، فإن المرأة تختار المعادلات الصعبة: الزواج الفاشل والأمومة الفاشلة والعمل الفاشل أيضاً ـ أي تختار شيئاً من كل شيء.. ولكن التعاسة مؤكدة للجميع: للأب والأم والأولاد.

ولكن ذلك كله لا يهم ما دامت تعمل!

فكأن المرأة اختارت أن تكون أماً بعض الوقت وزوجة بعض الوقت وعاملة بعض الوقت وتعيسة كل الوقت!

ومن النتائج الخطرة على الطفل في هذا العصر: أنه حرم من حنان الأم. ولذلك فهو يريد أن يتجدد فيه هذا الإحساس. فإذا تزوج فلانة يريد أن يستقل بحياته عن أبويه، عن أسرة تعيسة.. وهو يريد أن تكون زوجته أماً له.. يريد أن يعود إلى الطفولة. والزوجة بسرعة غريزية تصبح أماً له.. يريحه ذلك ويرضيها أيضاً. وهذه هي مشكلة مشاكل العصر الحديث.. قد تضيق المرأة بهذا الطراز من الرجال الذين لا يكبرون، ويضيق الرجال أيضاً بهذه الأمومة التي تحتم عليه أن يكون عاجزاً. ولكن لا مفر: الزوج طفل والزوجة أم. لقد اعتاد واعتادت. والإنسان أسير العادة. والرجل إذا تحرر فإنه بسرعة يرتد إلى عاداته القديمة. فكأنه تحرر ليكون عبداً من جديد..

ومن الغريب أن الرجل الذي هو «عيِّل» - أي يعول على أمه كثيراً - عندما يتزوج فإنه يكون حريصاً على كل عادات وتقاليد الأسرة التي تمرد عليها!

أرجو أن تلاحظ أننا دخلنا معاً في مصيدة شديدة التعقيد في حياتنا الحديثة: فكل الذين نواجههم: عيَّال.. الرجل عيِّل والمرأة عيِّلة.

وهم جميعاً يعتمدون على بعضهم البعض، وفي نفس الوقت يتشككون كثيراً في قدرتهم على القيام بهذا العبء الصعب. الرجل يبحث عن الأم، والزوجة تبحث عن أم..

وفي السنوات الأخيرة ظهرت مئات الكتب ـ عندي منها عشرات ـ تفسِّر لنا ظاهرة: الرجل الذي أوقف نموه والمرأة التي تعاظمت شخصيتها، رغم إحساسها بالهوان وأنها لم تتهيأ نفسياً واجتماعياً للقيام بهذا الدور الكبير..

و«الرجل العيِّل» هو الظاهرة الخطيرة التي تجتاح الدول الصناعية التي فتحت الأبواب والنوافذ فقفزت منها المرأة إلى الشارع، ولم تعد. ولن تعود.

وهذا «الرجل العيِّل» ليس لديه شعور بالأمان. فهو قلق. وهو ينتظر ما تقدمه الزوجة الأم أو الصديقة الأم أو الخادمة الأم ـ فهي التي تقرر وهي التي تختار. ولذلك فليس لديه شعور بالمسؤولية. فقد ألقى عند قدميها كل شيء. وهي وحدها التي تتعب له وتتعذب من أجله، أو تجد لذة في التسلط عليه.. وهو يتفرج. هي اعتادت أن تقرر، وهو اعتاد ألاَّ يفكر في ذلك. هي تدفعه يميناً وشمالاً، وهو مستسلم..

والتاريخ يحتفظ لنا بذلك الحوار النموذجي بين الطاغية نيرون وبين زوجته. يقول لها: قولي بسرعة ماذا تريدين وأنا أنفِّذ لك كل

رغباتك. لماذا لا تأمرينني أن أقتلك. إنني على أتم الاستعداد لذلك.. أنت التي تختارين ملابسي وعشيقاتي لماذا لا تأمرينني أن أذبحك وأن أحرقك فوراً!

هو الطاغية المستبد الجبار لا يملك أن يتخذ قراراً.. إنه ينتظر من ضحاياه أن يأمروه بماذا يفعل بهم - إلى هذه الدرجة يعتمد على زوجته التي هي أصغر منه وأضعف. ولكنه لا يريد إلا أن يكون رجلاً عيِّلا!

والرجل العيِّل مشغول بنفسه.. فقد اعتاد على أن يجد كل شيء من أجله. كل شيء يدور حوله. فهو مركز البيت. مركز الكون. وهو لا يمد يده للآخرين.. إنه ينتظرهم يمدون له الأيدي. إنه لا يبحث عن الغير، إنه يتوقع الغير أن يجيء إليه. وهو هكذا منطو على نفسه، فقد أدخل نفسه في نفسه. ووضع يديه في جيوبه، وساقاً على ساق، وأحنى رأسه على صدره.. لقد تكور وتدور. وامتلأ بنفسه، وانتظر.. أن تجيء المرأة إليه وأن يجيء الرجل.. وكل الدنيا. فإذا لم يحدث كل ذلك، أصابه الشعور بالخيبة واليأس..

فهو مدلل.. أناني. نرجسي. متعصب. لأنه شخصياً هو المهم. الأهم. وأفكاره هي الصحيحة. ودنياه هي الدنيا.

وهو في السياسة «وطني متعصب» - لا مانع من أن يكون وطنياً. ولكنه وطني متعصب. أي أنه وطني ضيِّق الأفق. فهو يؤمن

بأن بلاده هي البلاد. أجمل ما في الدنيا وأكملها. وهو لذلك لا يحب البلاد الأخرى. ولا يحب الأجانب. ويرى أن سلامة بلاده، مثل سلامته هو، أن تنطوي على نفسها. وأن تنعزل عن غيرها.

وهو يؤمن بأن العالم كله يتربص به، لأنه يريد أن يقتلعه عن عرشه ـ العرش الذي هو صدر الأم وصدر الزوجة الأم وصدر الوطن الذي هو أم الجميع!

وعلماء النفس لا يتعبون من تفسير قسوة هتلر وموسوليني وستالين ونيرون وكاليجولا بأنهم أطفال لم يكبروا. فهم يريدون الطاعة التامة من كل الناس، فإذا لم يجدوا ذلك ثاروا وقتلوا وحاربوا. . فلم تكن المرأة هي مشكلة حياتهم، وإنما المرأة الأم. . الزوجة الأم. . أو العشيقة الأم ـ أي أن الذين تزوجوا فقامت الزوجة بدور الأم، يبحثون عن الزوجة التي تقوم بدور العشيقة. وكثير من هؤلاء الطغاة قتلوا عشيقاتهم. لأنهم يرون أن العلاقة بين الرجل والمرأة طاهرة نظيفة. فالمثل الأعلى لها: هي أن تكون أماً ـ فهم ـ إذاً ـ حائرون بين الأم التي لا يجدونها، والعشيقة التي لا يريدونها.

أي أنه إذا وجد الأم لم يجد الزوجة وإذا وجد الزوجة لم يجد العشيقة وإذا وجد العشيقة لم يجد الأم فانتقم من كل الناس الذين ينعمون بالأمومة والزوجة والعشيقة؟!

وفي التاريخ أطفال عندما لم يجدوا الأم هربوا إلى أمهات من

الحيوانات. . فأطفال صغار أرضعتهم الذئاب. حدث ذلك في أسبانيا والأردن والهند وتونس. فوجيء الناس بأطفال بين قطعان الذئاب. والأطفال يمشون على أربع ولا يتكلمون. وقد اكتسبوا بعض صفات الذئاب كالخوف من الإنسان وأكل اللحوم النيئة والعواء. . ولما حاول الناس استئناس هذه الأطفال ماتت!

وبعض الفنانين الكبار يرون في الحياة بين الوحوش أو كالوحوش، مثلاً عالياً للحرية. . أي الانطلاق والتمرد على قيود الأسرة الصغيرة أي العائلة والأسرة الكبيرة أي المجتمع والمجتمع الكبير أي العالم. فهم يفضلون أن تكون لهم عقول آدمية وأجسام وحشية. وإن هذا السلوك هو خلاصة العبقرية الإغريقية. فالإغريق جعلوا آلهتهم يسكنون قمم الجبال. ولكن إذا أرادوا أن ينعموا بالحياة ولذاتها، تحولوا إلى بشر. . أو إلى حيوانات ونباتات. . ولذلك كان آلهة الإغريق يحقدون على الإنسان. . فالإنسان قصير العمر، وهم خالدون. . والإنسان يخاف ويتعذب ويقلق ويستمتع. . ويحب ويكره ـ وهم محرومون من كل ذلك. فآلهة الإغريق يحققون هذه المعادلة يومياً: عقول الآلهة وأجسام البشر. . أو عقول البشر وأجسام الحيوانات ـ وهذا أقصى ما يتمناه الفنان. .

وفي العصر الحديث تقدمت صناعة اللعب. . وهذه اللعب حلّت مشكلة عائلية. والحقيقة انها أجّلت الحل إلى ما بعد. بل

أجّلت الحل إلى الأبد. وبقي الأمل في الحل عميقاً في نفس كل طفل. فالأب يشتري اللعب لأطفاله، أي يشتري للطفل ما يجعله ينشغل عنه. فكأن الأب يشتري سكوت الطفل. لأن الطفل لديه سؤال واحد: أين أنت؟

فأبوه ليس موجوداً ولا أمه. وهذه الهدايا والفلوس التي يعطيها الأبوان للطفل، هي تعويض عن غيابهما. والطفل ينشغل باللعب عن أبويه.

ولكن شيئاً خطيراً يحدث. وهو أن الطفل يرى أن اللعب والفلوس حق مكتسب. حق مفروغ منه.. تماماً كالأكل والشرب والملابس. وهذا الشعور بالأمان. وعلى ذلك فلا معنى لأن يبحث الطفل عندما يكبر عن عمل أو مكان آخر يحقق فيه حريته، ويشتري فيه طعامه، ويكون له الأمان الخاص به وبمن يحب.. وهكذا يجرد الأب ولده الصغير من البحث بنفسه عن مستقبل حياته. فكأن الأب والأم معاً، بدلاً من أن يربيا الطفل ليكون رجلاً، يفرضان عليه طفولة طويلة ليظل في البيت يتلقى الطعام الشراب والفلوس.. فهو رجل يلهو والأبوان يريان الطفل لعبة يلهوان بها ـ حين يعودان إلى البيت!

ولكن هذا الإبن يضيق بهذه الحياة، ولذلك يبحث عن ملذات جديدة خارج الأسرة. ويجد فيها حريته التي تنمو وشخصيته التي تريد أن تستقل. وهذه الملذات النفسية والاجتماعية سوف تكون

خارج البيت، بل خروج عن البيت. . وكل من في البيت.

هنا فقط أصبح الإبن هدفاً لعائلات أكبر. هذه العائلات هي الجماعات الشابة: الساخطون في بريطانيا والصاخبون في أمريكا والخنافس والأحجار المتحركة، والمافيا والحب في الكهوف والدخان الأزرق. . ـ ومئات غيرها من الجماعات التي تجذب الشبان من كل الدنيا ليستأنفوا الحياة التي حرموا منها.

والشباب في عصرنا لديهم هذا الشعور: السخط والهرب من الأسرة والإدارة والقيادة. . إنه يريد أن «ينتمي» إلى هيئة. . إلى جماعة. . إلى شلة. . ولكن هذه الجماعات لها شروط. أول هذه الشروط أن ينسى العضو كل ما كان يميزه عن الآخرين: الأسرة والطبقة والزي والجنس. . أي مطلوب منه أن يكون واحداً مثل الآخرين.

شيء عجيب حقاً: فهؤلاء الشبان أو الأطفال الكبار الذين يعانون من الضياع في الأسرة الصغيرة، يختارون الضياع في داخل هذه الأسرة. . ويرون أن الضياع العائلي مفروض عليهم، ولكن الضياع الجماعي باختيارهم. . أي أن هناك فارقاً بين أن تعطيني حقنة بنج فأدوخ، وبين أن آخذها بنفسي. . وإذا كانت عائلته تفرض عليه النظافة والنظام والانضباط، فإنه يقبل في داخل هذه الجماعة أن يستسلم للقذارة والبهدلة والتراخي. وأن يلتزم بذلك!

وكذلك الفتيات. . مطلوب منها إذا دخلت هذه الجماعات أن

تنسى أنها أنثى، ولذلك يجب أن تكون غليظة صلبة.. كما الولد في ملابسها وتعاملها وأن تختار هي الولد، وأن تغتصبه. أي على الرغم من هذا المظهر الخشن، فإنها لا تنسى أنها أنثى وإن كانت قد استعارت أسلوب الرجل!

وفي الدول الصناعية الكبرى: أمريكا وبريطانيا واليابان وألمانيا وفرنسا ألوف الجماعات من كل لون سياسي وديني وجنسي.

ولأن هذه المجتمعات الصناعية الكبرى تقدّس الحرية الفردية، فهي لا تعترض على الشذوذ لأنه مظهر من مظاهر الحرية الفردية. ولذلك تؤيد الشذوذ الجنسي. والشذوذ الأخلاقي. وحتى إذا كان المحترفون أقلية. فإن الأقلية وحمايتها أكبر دليل على أن الحرية لا تتجزأ.

فهذه الجماعات الخارجة عن الدين، لها نفس تقاليد الجماعات الدينية.. فلكي ينضم أحد إلى أحد الأديرة، فلا بد أن يغيِّر ملابسه وأن يغير اسمه وأن يحلق شعره وأن يمشي حافياً.. أي يقطع صلته بالدنيا، ليدخل في عالم يتساوى فيه كل الناس.. ومن بين الأسماء التي يختارها الرهبان: الغلبان.. المسكين.. العريان.. الأعرج.. المشلول.. الأقرع..

وإذا كان هذا دليلاً على التجرد والزهد والتواضع، فهو دليل جديد على أنه أصبح شخصاً آخر، لا ميزة له.. إنه مثل كل الرهبان..

وكذلك الذي ينضم إلى الجيش: يدخل إطارات حديدية من الانضباط والربط والاستعداد للموت. وحتى يكون موته مميزاً فهم في الجيوش يقولون لا «الموت» وإنما :الشهادة والاستشهاد. . وفي الجيش ينادونه: يا دفعة. . يا عسكري. . يا نفر. . يا كتيبة. . يا مواطن!

تماماً كما يفعل عسكري المرور الذي يجد أمامه سيارات من كل نوع. . كتل من الحديد تتحرك فينادي عليها: أنت يا فيت. . يا مرسيدس. . يا نقل. . يا دقهلية. . يا كارو. . فهذه السيارات قد تساوت عند عسكري المرور: ماركات وألوان وأشكال فقط - ولا يهمه من يكون راكبها أو صاحبها!

وفي السجون يدخلون في سلاسل وفي جدران مظلمة ولا يكون لهم أسماء: أرقام فقط!

وكذلك في المستشفيات. .

أي أن الشبان - الرجال العيال - الذين لم تسعدهم الحياة العائلية لأنه لا أثر فيها للحرية والحنان يستسلمون إلى جماعات يفقدون فيها حريتهم أيضاً، ويفتقدون فيها الحنان. ويختارون نوعاً من اللجوء العاطفي والاجتماعي - أي أن هذه الجماعات هي «بدل فاقد». . فهم تركوا البيت الدائم واختاروا البيت «المؤقت»، لقد قلبوا الأوضاع. تمردوا. ثاروا. فالبيت الدائم جعلوه مؤقتاً عندما هربوا منه، والبيت المؤقت توهموه دائماً عندما هربوا إليه!

فما هذا الـذي حدث؟ أرجـو أن تتذكـر أننا نتعمق أكـثر وأكثر هذا السلوك المعقد لشباب يمارس الحرية الفعلية والحرية المفتعلة.

إن الحرية هي المسافات. فالإنسان الحر يستطيـع أن ينطلق في طيارة أو سيارة. . أي يمكنـه أن يقترب ويبتعـد عن الناس يـوماً أو شهراً. . إنه حر في أن يختار المسافة التي بينه وبين الناس. . والذي لا حرية له فالمسـافات من حـوله قـد تحددت. تجمـدت بين أربعـة جدران وفي سلاسل وفي زمن محدود حديدي. والسجين لا يستطيع أن يخرج من هدومه، ولا أن يمحو الرقم على قفاه.

والعلاقات الإنسانية: مسافات نفسية واجتماعية: فالمسافة بيني وبينك قصيرة إذا كنا أصدقاء. بعيدة إذا كنا أعداء. قـريبة إذا كنـا أزواجاً. . قريبة جداً إذا كنا عشاقاً.

والقرب والقرابـة والقربى والـزمالـة والعداوة ـ كلهـا تدل عـلى طـول وعـرض وعمق المسـافـات التي بيننـا. والمسـافـات واضحـة الاتساع بين أبناء العمارة الواحدة والمدينة الواحدة والدولة الـواحدة والكوكب الواحد والمجرَّة الواحدة!

وفي هذه الجماعات تنعدم المسـافات فـالكل في زي واحـد. زي عقلي واجتماعي وديني وسياسي. ومن مظاهر انعدام المسافات التعصب الشـديد لهـذه الجماعـة وشكلها وحجمهـا ونـظريـاتهـا في مواجهة المجتمع والسلطة.

أي الذوبان التـام للفوارق بـين الأعضاء وذلـك بالإسـراف في تعاطي المخدرات: المخدرات المادية والمخدرات الفكرية أيضاً.

شيء عجيب حقاً: أن يهرب الأبناء من دكتاتـورية الأب والأم ويستسلمون لدكتاتورية أخرى: لرئيس الجماعة أو النبي المزيف.. أو الإلّـه.. ـ نعم لقـد ظهـر في قلب أمـريكـا رجـال زعمـوا أنهم أنبيـاء. فسـار وراءهم الألـوف، وزعمـوا أنهم آلهـة فسـار وراءهم الملايين.. وواحد من هؤلاء قد استدرج أتباعه إلى الموت الجمـاعي ـ فماتوا معاً.. استشهدوا؟!

وفي معركة الحرية، أو سوق الحرية، أو معرض الحرية، تحاول المرأة وهي حديثة العهد بالحرية، أن تتضامن مع الرجل أو تبالغ في هذا التضامن وفساتين المرأة هي أوضح أساليبها في التعبير. فارتدت المرأة ملابس الرجال وقصّت شعـرها. ثم عـادت فثارت احتجـاج على العصمة وأوامر الوالدين ورجال الـدين.. ثم كشفت صدرها إعـلاناً منهـا أنها لا تعتز بهـذا الصدر الـذي يميِّزهـا عن الرجـل.. وكفراً بأنوثتها وسخطاً على الرجل الذي لا يرى فيها إلا: الأنثى. إلا جسداً مثيراً..

ثم ظهرت ملكات الإثارة في حالة غضب.. ودعوة إلى الثـور على الرجل. فصوفيا لورين: بعـد أن تقلبت في كل أدوار الجنس اتجهت إلى دعوة المرأة أن تربي عضلاتها..

وكذلك فعلت أجمل امرأة في العالم: راكيل ولش..

وبريجيت باردو طفلة فرنسا التي لا تكبر . .

وفي المكتبات والأندية الرياضية ونوادي الفيديو كتب وأفلام عن «المرأة العضلية» ـ أو «المرأة المعضلة» لجين فوندا، الممثلة الأمريكية الشهيرة.

أي أنه ما دامت المرأة أصبحت مثل الرجل في أشياء كثيرة، فلماذا لا تكون لها عضلات. إنها مسألة تدريب وتربية واستمرار . .

فكما أن الإنسان لا يولد رجلاً، وإنما يصير رجلاً ذكراً ورجلاً أنثى . . فكذلك المرأة تصير امرأة رجلاً، وامرأة أنثى . . وامرأة ذات عضلات . . وامرأة إرهابية .

شيء غريب في قلب وأجسام هذه الجماعات المتطرفة ـ أي التي تعيش على أطراف المجتمع والدين والسياسة . . والتي تصل في اعتقادها إلى أقصى طرف اليمين أو اليسار . أي لا تقف في الوسط . . هذا الذي يحدث يذكّرنا بما كان في حريم السلطان التركي . . ففي حريم السلطان، كان يوجد رجال. مهمة هؤلاء الرجال هو خدمة حريم السلطان دون أن يمسوهن. . ولذلك جعلوهم أغوات ـ أي خصياناً . . فلا هم رجال ولا هم نساء . . ولكن الشيء المؤكد أنه لا ضرر من وجودهم . . فلا عدوان منهم على ممتلكات السلطان . . فلا تحمل واحدة منهن بولد يصبح سلطاناً، ولا يكون أبوه الحقيقي هو السلطان نفسه ـ فقد كان من

عادة السلطان إذا ولدت واحدة من الحريم ولداً ذكراً، جعله ولياً لعهده. . وسلطاناً بعد ذلك!

وفي هذه الجماعات يفقد الأعضاء كل إرادة وكل سلطة. . فقد نزعوا ريشه واستأصلوا أمله في أن تكون له أية حياة بعيدة عن الجماعة. .

ولذلك يصبحون ألعوبة في أيدي زعماء أذكياء نصَّابين. .

حدث هذا في أمريكا بعد حرب فيتنام. . وفي بريطانيا بعد العدوان الثلاثي على مصر. . واليابان بعد إلقاء القنابل الذرية عليها وفي ألمانيا بعد زيادة البطالة. . هؤلاء الشبان لم يعودوا أفراداً في عائلة وإنما هم كتل متراصة متساقطة منهارة دائخة في هذه الجماعات المتطرفة. . لقد شطبوا أنفسهم من كشف المجتمع الكبير. . سقطوا من الرصيد. . أصبحوا ديوناً معدومة. . مخلفات حرب. . طرح البحر. . تجاوزوا عمرهم الافتراضي ـ مع أنهم في غاية الشباب والحيوية!

وأخيراً هذه القصة عن الأمبراطور نيرون. . عندما حملت به أمه رأت في نومها أن الرعد يخرج من فمها والبرق من بطنها. . وذهبت أمه إلى قارئة الكف فقالت لها: إبنك سوف يكون أمبراطوراً وسوف يقتلك أيضاً. قالت الأم: المهم أن يكون أمبراطوراً. .

وذهب إبنهـا الأمبراطـور إلى قـارئـة الكف فقـالت لـه: وأنت حظك من السماء!

وبعد أن قتل أمه انتحر فصعدت روحه.

أما العذاب الحقيقي للأمبراطور فهو أنه كان يطلب من أمه أن تأمره..

وعذاب الأم أنها كانت تـطلب من إبنها أن يـأمرهـا وأن يكون مجرماً!

فلا هو يريد أن يكبر، ولا هي تريـد أن تكبر ـ الـرجل العيِّـل والأم العيِّلة والزوجة العيِّلة..

وقصة أخرى لأم الملك لويس الرابـع عشر عندمـا أحسَّت أمه بأنه يتحرك في أحشائها، أقامت الأفراح والليالي الملاح. وعندما ولد وزعت النبيذ على الشعب مجاناً من احدى النافـورات.. وعينت له عشـرين خادمـاً.. وعندمـا بلغ الرابعـة من عمره خلف أبـاه ملكاً لفرنسا.. فكانـت أمه تركع أمامه، وتطلب من كل الناس أن يفعلوا ذلك.. وكانت تعرض عليه المراسيم الملكية وتضعهـا وراء ظهرهـا وتطلب إليه أن يختار. فالذي يختاره هو النافذ فوراً!

وهي التي قالت له عـلى مسمع من كـل رجال الحـاشية: شيء واحـد أحسد عليـه الفراعنـة أن الأم كانت تتـزوج إبنهـا ـ لتكـون زوجته وأمه حتى الموت!

ومشكلة هـذا العصر أن ملايـين النساء مثـل أم هذا الملك.. وملايين الرجال مثل السفاح نيـرون، اختلطت عند الجميـع الحدود التي تفصل بـين الـرجل والـطفل وبين الزوجـة والأم ـ مما ضـاعف تعاسة الجميع واضطراب هذا الزمان!

السندوتش:
مقبرة الحضارة الإنسانية!

من مائة وخمسين عاماً رجع الشيخ رفاعة الطهطاوي من باريس، مبهوراً: بالمطاعم والمقاهي وعربات الرش وملابس النساء وطعم الخوخ.. والحرية.. وكان الشيخ الطهطاوي قد سافر مع أولاد الباشا يعلّمهم مكارم الأخلاق ويحميهم من الانحلال والفساد. ولم يفلح.. وإنما هو الذي تعلّم وجاء يعلّم مصر والعالم العربي.. واستحق من العلماء عظيم الاحترام، ومن السلطان الجاهل الطرد والنفي.

وكتب الشيخ الطهطاوي مشاهداته في فرنسا في كتابه الممتع «تخليص الإبريز في تلخيص باريز - أو - الديوان النفيس بايوان باريس..». والكتاب بما فيه من معلومات وانبهار بالعالم الجديد، متعة تاريخية مسلية، لولا الكثير من الشعر السخيف والاستطرادات المملة.

ويوم ذهب الشيخ الطهطاوي إلى باريس بلغ عدد المطاعم في ذلك ٥٥٤ مطعماً. وأما المقاهي فهي ضعف هذا العدد. وأول مطعم عرفته باريس انشيء سنة ١٧٦٤. وكان يبيع الشوربة الساخنة فقط..

إقرأ ما كتبه الشيخ الطهطاوي عن المطعم (الرسطراطور):
«وعادة الفرنساوية: الأكل في طباق. كالطباق العجمية أو الصينية لا في آنية النحاس أبداً. ويضعون على السفرة دائماً قدام كل إنسان شوكة وسكيناً وملعقة. . والشوكة والملعقة من الفضة. ويرون أن النظافة أو «الشلبنة» أن لا يمس الإنسان الشيء بيده، وكل إنسان له طبق قدّامه، بل وكل طعام له طبق، وقدام الإنسان قدح، فيصبّ فيها ما يشربه من قزازة عظيمة موضوعة على السفرة ثم يشرب، فلا يتعدى أحد على قدح الآخر، فأواني الشرب دائماً من البللور والزجاج. وعلى السفرة عدة أوان صغيرة من الزجاج أحدها فيها ملح والآخر فيه فلفل وفي الثالث خردل إلى آخره. وبالجملة فآداب سفرتهم وترتيبها عظيم جداً. وابتداء المائدة عندهم الشوربة، واختتامها الحلويات والفواكه. والغالب في الشراب عندهم النبيذ على الأكل بدل الماء. وفي الغالب خصوصاً لأكابر الناس، يشرب من النبيذ قدراً لا يسكر به أبداً، فإن السكر عندهم من العيوب والرذائل. . ثم أنهم مع شربهم من هذه الخمور لا يتغزّلون بها كثيراً

في أشعـارهم. . وليس لها أسماء كثيرة تـدل على الخمـرة كـما عنـد العرب أصلاً. .

ومـع كثـرة تفننهم في الأطعمـة والفـطورات فـطعـامهم عـلى الإطلاق عديم اللذة ولا حلاوة صادقة في فواكـه هذه المـدينة إلا في الخوخ. . ».

ثم إقرأ للشيخ الطهطاوي يبدي دهشته وتعجُّبه من المقهى:

وكـان أول ما وقـع عليه بصـرنـا من التحف قهـوة عـظيمـة. دخلناها فرأيناها عجيبة الشكل والترتيب. والقهوجية: إمرأة جالسة على صفة عظيمة وقدَّامها دواة وريش قـائمة، وفي قـاعة بعيـدة عن الناس محل لعمل القهوة. وبـين محل جلوس النـاس ومحل القهـوة: صبيان القهوة. ومحل الجلوس للناس مرصوص بـالكراسي المكسـوة بالمشجرات، ومن الطاولات المصنوعـة من الخشب الكابـلي الجيد، وكل طاولة مفروشة بحجر من الرخام الأسود أو المنقوش. وفي هذه القهوة يباع سائر أنـواع الشراب والفـطورات، فإذا طلب الإنسـان شيئـاً طلبه الصبيـان من السيدة القهـوجية وهي تـأمـر بـإحضـاره. وتكتبه في دفاتـرها وتقـطع به ورقـة صغيرة فيهـا الثمن وتبعثها مـع الصبي للطالب الذي يريـد الدفـع. والعادة أن الإنسـان إذا شرب القهوة أحضروا له معها السكر ليخلطه فيها ويذيبه ويشربه. ففعلنا ذلك كعادتهم. وفنجان القهوة عندهم كبير نحـو أربعة فنـاجين من فناجين مصر. وبـالجملة فهو قـدح لا فنجان. وبهـذه القهوة أوراق

الوقائع اليومية ـ يقصد الصحف ـ لأجل المطالعة فيها. . وحين دخولي بهذه القهوة ظننت أنها كبيرة جداً مليئة بالناس. فإذا بدأ جماعة داخلها أو خارجها ظهرت صورهم في كل جوانب الزجاج وظهر تعددهم مشياً وقعوداً وقياماً فيظن أن هذه القهوة طريق. وما عرفت أنها قهوة مسدودة إلا بسبب أني رأيت عدة صورنا في المرآة. فعرفت أن هذا كله بسبب خاصية الزجاج. فعادة المرآة عندنا أن تثني صورة الإنسان، وعادتها عند الإفرنج، بسبب تعددها على الجدران أن تعدد الصورة الواحدة في سائر الجوانب والأركان».

ويصف ملابس الفرنسيين فيقول: ومن العوائد العظيمة عند الرجال انتشار لبس القمصان والألبسة والصديريات تحت ملابسهم. فالموسر يغير في الأسبوع عدة مرات. وبهذا يستعينون على قطع عرق الواغش. فلذلك لا أثر للعمل ونحوه إلا عند من اشتد به الفقر. . وملابس النساء ببلاد الفرنسيس لطيفة بها نوع من الخلاعة. . خصوصاً إذا تزينت المرأة بأغلى ما عندها. وليس لدى النساء حلى كثيرة: الحلق المذهَّب ونوع من الأساور الذهبية يلبسنه في أيديهن وخارج الأكمام. وعقد خفيف في أجيادهن. وأما الخلاخل فلا يعرفنها أبداً. ولبسهن في العادة: الأقمشة الرقيقة من الحرير والشيت أو البفت الخفيف. ومن عوائدهن أن يحتزمن بحزام رفيع فوق أثوابهن حتى يظهر الخصر نحيفاً ويبرز الردف كثيفاً. ومن خصال النساء أن يشبكن بالحزام قضيباً من صفيح من البطن إلى آخر الصدر، حتى يكون قوامهن دائماً معتدلاً لا اعوجاج به. ومن

خصالهن التي لا يمكن للإنسان ألا يستحسنها منهن: عدم إرخائهن الشعور كعادة نساء العرب. فإن نساء الفرنسيس يجمعن الشعور في وسط رؤوسهن ويضعن فيه دائماً مشطاً ونحوه. ومن عوائدهن أيام الحر كشف الأشياء الظاهرة من البدن: الرأس إلى ما فوق الثدي، حتى يمكن أن يظهر ظهرهن، وفي ليالي الرقص يخلعن عن أذرعهن، ويمكن كشف شيء من الرجلين، بل هن دائماً لابسات للجرابات الساترة للساقين خصوصاً في الخروج إلى الطرق. وفي الحقيقة سيقانهن غير عظيمة أصلاً.. ومن المتداول عندهم استعمال الشعور المستعارة لنحو الأقرع ورديء الشعر. بل قد يستعملونها في اللحى والشارب. وقد شاعت عندهم تلك العادة من زمن لويز الرابع عشر ملك فرنسا وكان هذا الملك لا يخلعها إلا عند النوم. ومن الغريب أنهاتستعمل الآن في مصر بين نساء القاهرة..

لقد وصف الشيخ الطهطاوي الحياة في باريس من بعيد لبعيد.. شاهدها.. سجّلها.. حلّلها. ولكنه ـ طبعاً ـ لم يستطع أن يعيش ولا أن يعايش أحداً.. دخل المقاهي والمطاعم. ولكنه لم يعرف أن أسلوباً جديداً من الحياة قد دخل المجتمع، وأن المقاهي قد فرضت على الإنسان في العصر الحديث أسلوباً في الحياة خارج البيت. وأخرجته من جلده ومن دينه أيضاً.

* * *

وعلى الرغم من أن أجمل مقاهي الدنيا هي مقاهي باريس، فإن المقهى نفسه اختراع أمريكي، يتفق مع الحياة الأمريكية في

بداية القرن الماضي. فالمجتمع الأمريكي عظيم الحركة. مندفع إلى الغرب يبحث عن الذهب. ولكنه يزرع الأرض ويبني، وهو ينقّب عن المعادن، وهو يرتفع بالمباني إلى السماء. فهو مجتمع متفجّر في كل الاتجاهات. وقد ظهرت في سان فرانسيسكو: الكافتيريات.. وهي إدماج لكلمتين معاً: الكافيه: البن والتيى - أي الشاي، ومنذ أكثر من ثلاثين عاماً اخترعت ترجمة لهذه الكلمة وأسميتها «القهوشية أو القهوشيا» وقلت أن هذه الكلمة قد وضعها المجمع اللغوي. وإذا بالمرحوم محمود تيمور يكتب مقالاً طويلاً ينفي عن المجمع هذه التهمة. ثم ترجمت «بيت الشاي» الياباني بكلمة: مشهى - على وزن مقهى، واستحسن المعجم اللغوي هذه الكلمة. ولم يأخذ بها - لأن الكلمات يجب أن تنبع منه وحده!

وظهرت الكافتيريات في أمريكا يقف فيها الناس يشربون ويأكلون ويخطفون السندوتش ثم يتابعون الاندفاع إلى الذهب..

وبسبب نقص الأيدي العاملة، كان على الزبون أن يقف في الطابور وأن يختار لنفسه الطعام الذي يريد.. ثم ظهرت الحاسبات الألكترونية التي يدفع فيها الزبون ثمن الطعام..

وظهرت محلات الأدوية وفيها إلى جانب الدواء: الأطعمة والمشروبات. فكانت محلات الأدوية والعقاقير نوعاً من السوبر ماركت أيضاً.

وعلى الرغم من أن السندوتش إنجليزي الصنع، فإن أمريكا

أصبحت أكبر منتج ومستهلك للسندوتش على شكل لحوم أو فراخ.. أو علب من الورق فيها اللحم والبطاطس.. ثم ظهرت المطاعم الكبرى في أمريكا وفي أوروبا. وتحولت هذه المطاعم إلى نزهة أسبوعية لكل أسرة.

وتطورت هذه المطاعم الشعبية فأصبحت مطاعم فخمة أرستقراطية صغيرة الغرف. يشعر فيها الزبون أنه وحده بعيداً عن آذان وعيون الآخرين..

وأدخلت الموسيقى.. ولكن الشعوب اللاتينية وشعوب البحر الأبيض جمعت في المطعم الواحد بين المقهى والكاباريه. ولذلك ظهرت الموسيقى والرقص والغناء..

ولكن أكثر الدول الأوروبية ـ تفصل تماماً بين الأوبرا والمسرح وبين المطعم. فإذا كان لا بد من الطعام الخفيف ففي الاستراحة.. ولكن الشعوب اللاتينية وأبناء البحر الأبيض يأكلون كثيراً وثقيلاً ويتفرجون على الرقص والغناء. ولذلك اعتادت الموسيقى أن تكون عنيفة لإيقاظ الذين أتخمهم الطعام وأغرقهم الشراب..

وبعد دخول القوات الأمريكية إلى أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية انتشرت الكافتيريات والبارات السريعة والأكل وقوفاً والشرب خطفاً.. وانعدم «الجو» الشخصي والعائلي.. فانفتحت المطاعم على البارات على المقاهي على الكباريهات واختلط الناس

بعضهم ببعض. وضاعت معالم الخصوصية التي كانت موجودة في المطاعم الأوروبية.

وكان شيئاً غريباً أثناء الاحتلال الألماني لفرنسا، أن يتجه الأدباء إلى المقاهي. وأن تقوم المقاهي بحمايتهم والتستر عليهم. فقد كانوا يفكرون ويضعون خططاً لمقاومة الاحتلال الألماني. لذلك تحولت المقاهي إلى لجان سرية لمحاربة النازية.

وظهرت الحواجز الخشبية والزجاجية. ووراءها جلس الأدباء والشعراء والفنانون والثوار. وكثيراً ما هاجمها الألمان ليجدوا أناساً متقاربين ليس معهم ورق ولا كتب ولا قلم.. فقط يتناقشون وهم يدخِّنون ـ لقد استعدوا تماماً لهذا التفتيش المفاجيء!

وإذا كانت الثورة الفرنسية هي التي نشرت المطاعم ـ وذلك بأن جميع طهاة الملوك والأمراء والنبلاء قد فتحوا لأنفسهم مطاعم ومقاه، فإن الاحتلال الألماني لفرنسا قد حول المقاهي إلى غرف للعمليات الفكرية والسياسية والعسكرية..

وفي أعمارهم القرن التاسع عشر كان أدباء فرنسا وشعراؤها يقضون في المقاهي.. في ركن مع زجاجة نبيذ وكثير من القهوة المرَّة. وكان الأديب الفرنسي بلزاك يطلب من الجرسون: المزيد من القهوة أرجوك..

ويلتفت الجرسون فيجد عشرين كوباً من القهوة قد شربها الأديب ويطلب مثلها مرة أخرى. . وفي يوم شرب مائة كوب. .

وفي يوم صرخ الأديب بلزاك قائلاً: أريد طبيباً. . أريده أن يخترع لي طريقة لا أذهب بها لدورة المياه. . وأظل طول الوقت أشرب وأكتب. . لا بد أن هناك طريقة سوف يعرفونها في القرن العشرين!

وكان الشاعر الرومانسي يول جيرالدي ينهض مبكراً. ويقف أمام المرآة طويلاً. ثم يحلق لحيته ويسوِّي شعره، ويتلفت يميناً وشمالاً ثم يقرب منها ويقبِّل الوجه الجميل الذي يراه ويقول: وداعاً يا أجمل وجه رأيته أمس واليوم وسوف أراه غداً.

وفي قصيدة له يقول: حبيبتي إن كنت تغارين من هذا الذي أرى، لماذا لا تقفين ورائي. . أمامي. . لماذا لا تدخلين في زجاج المرآة. . إن السعادة الحقيقية ألاَّ تزاحميني في مرآتي. . أو فراشي. . أو حياتي. . أن تكوني على شاطىء، وأنا على الشاطىء الآخر. . وأن تكون الذكريات نهراً يتدفق بيننا. . صدقيني. . من أجل هذا وحده نجح الحب، وفشل الزواج. . كل زواج. . حتى زواجنا. .

وقد علَّق مقهى «دي فلور» هذه القصيدة. ونزع كل المرايا الزجاجية من الجدران. . ولولا مقاهي الحي اللاتيني في باريس، ما انتظمت الدراسة في السوربون ـ عبارة قالها الرئيس ديجول وهو يتحدث عن الرذائل الصغيرة للشباب. .

أما الفيلسوف الوجودي سارتر فقد كتب أروع أعماله في مقهى «دي فلور» كـان من عادتـه أن يصعد الـدرج. وأن ينحني يسـاراً. وأن يدخل «غرفة الفيلسوف» وفي الغرفة منضدة عليها زجاجة نبيذ. وأما المقاعـد فمن الجلد. والغرفـة ليست معزولـة عن بقية المقهى. فإليها تنتهي كـل الضوضـاء. وهذه الضـوضاء تحـاول تشتيت عقل الفيلسوف فيبذل جهداً أكبر في التـركيز. . يقـول سارتـر: فيلسوف عـظيم ذلك الـذي اخترع المقهى. ففيهـا كـل ضـوضـاء النـاس: أصواتهم وصراخهم. . اختلاط آرائهم. . ودخانهم والرغبة القـوية عنـد الناس في أن يكـونـوا معـاً. . والـرغبـة الأقـوى في الانعـزال عنهم. . ثم هـــذه الفـواصــل أنها من زجــاج. . إنها تفصــل ولا تفصل. .

بالضبط هذا ما يريده الناس. . أن يكـونوا معـاً، ولكن بشرط ألا يكونوا كذلك. .

ويقـول سارتـر: ومن أين لي بهذا الـدفء. . من أين لي بهـذه الضـوضـاء. . إنني لا أجـد شيئـاً من ذلـك في البيت. . ثم هـذه العـلاقات الإنسـانية كلهـا «موقـوتة». . نلتقي ونتحـدث ونتلامس وننفصل. . أما في «البيت» فكل العلاقات ارتباطات. . كل النـاس مربوطون بخيوط وبعقـدة. أو بدلاً من العقـد هناك دبـابيس. . أو هنـاك صمغ فـالناس ملتصقـون. . ملتزجـون وهـذه بـالضبط هي العلاقات التي يجب أن ننفر منها. . لأنها قيـود على الحـرية الفـردية

للإنسان. . فالبيت صورة متطورة من الكهف القديم - أما المقهى فهو صورة للحرية والانطلاق من أي قيد. .

ويقول: كل علاقة في المقهى تنتهي بالبيت فاشلة. لأن فيها تنازلاً عن حريتي. . وكل علاقة تبدأ بالبيت وتنتهي بالمقهى: هي علاقة بلغت كمالها بالانطلاق. . بالانفلات. .

يقول سارتر: ومن الطبيعي أن يكون رواد المقاهي من الطلبة. . ورواد المطاعم من الآباء والأزواج. . فالمطعم صورة أجمل - أي أنه البيت وقد تحسنت ألوانه وأضواؤه وأثمانه. . أما المقهى فهو صورة من الرصيف ومن مدرجات الجامعة وملاعب الكرة. .

لقد شاهد الشيخ الطهطاوي مقاهي ومطاعم باريس ولكنه كان غائباً عن التعبيرات العميقة التي أصابت المجتمع الأوروبي في أعقاب الثورة الفرنسية. . والتي زادت بعد الحرب العالمية الثانية في أوروبا وفي أمريكا أيضاً.

* * *

وتجربة الأمريكان طويلة مع المطاعم والكافتيريا. . ولكنهم بعد الحرب العالمية الثانية قضوا نهائياً على كل ما يغري الشاب بأن تكون له أسرة أو يكون له بيت. فلا أحد عنده وقت لكي يطبخ. فالأطعمة جاهزة. ولا أحد عنده وقت لكي يغسل الأطباق، فهي من ورق والسكاكين من بلاستيك. . ولا من الضروري أن يتزوج لكي يكون له بيت. . ولا من الضروري للفتاة أن تكون «ست بيت». فالبيت لا يساوي هذا العناء وأن تكون خادماً لأي زوج. .

ولا يهمها أن نلقبها بست البيت، وهي في الواقع ليست إلا خادمة في البيت. .

ولا يهم أيضاً أن يكون عندها أولاد. . فإذا اضطرت إلى ذلك، فالخادمة تتولى أمرهم. . وإذا لم تجد الخادمة تركت طفلها في أحد الملاجيء. . حتى المرأة الأمريكية عندما أنجبت كان ذلك بنصيحة من الأطباء. فلا بد من أن تحمل وتلد حتى لا تضطرب غددها الصماء وأعصابها. . فمن أجل صحتها يجب أن تكون أما ولكن من أجل جمالها يجب ألا ترضع طفلها، ومن أجل حريتها يجب ألا تربط نفسها بهذا الطفل. .

ولذلك اختارت المرأة الأمريكية والأوروبية العلاقات الواسعة، أو القيود الفضفاضة. وبعد حرب فيتنام ـ أي بعد الهزيمة الأمريكية الأولى في تاريخها ـ خاب أمل الشباب في مستقبل أمريكا ومستقبل الحرية أيضاً. وهربوا إلى الإصطبلات والزرائب. . والخرابات ـ والخيام عند أطراف الغابات ثم إلى الغابات الإستوائية. . لماذا؟ لأن الشباب لا يريدون أن تكون لهم بيوت. . أو ما يشبه البيت. . ولا أن تكون لهم علاقات عائلية. .

* * *

يظهر في أمريكا أدب «الشبان الصاخبين» وقد اتخذوا مثلهم الأعلى من سائقي اللوريات. . فأمريكا مجتمع يتحرك على عجلات ففيها ثلاثة ملايين سائق لوري. ولهم أكبر نقابة تديرها عصابات المافيا التي تتحكم في الحياة الصناعية والاجتماعية الأمريكية. إنهم

مجموعة من البلطجية الأقوياء الأذكياء الأغنياء الذين يستخدمون مئات الأطباء والمحامين والمهندسين والمخترعين وأعضاء الكونجرس الأمريكي. . وهم الذين قتلوا كنيدي ووضعوا السم لمارلين مونرو. . وهم الذين قتلوا ألوف الأغنياء في كل مكان. . إنهم القوة التي تقهر القانون وتفتت العائلة وتدير بيوت الدعارة وكازينوهات القمار وهي التي تطلق بين الحين والحين نبياً جديداً أو إلهاً يسحب وراءه مئات الألوف من الشبان. . وتطلق الشعارات والنظريات التي تسحق المجتمع! فسائق اللوري هو الجندي المجهول المحتقر، ولكنه هو الذي يبني أمريكا ليلاً ونهاراً. .

وهو على سفر دائم، ينام سائقاً، ويصحو في أقسام البوليس. . ليس له بيت ولا أهل ولا يهمه أن يكون هناك بيت أو يكون هناك أسرة. . إنه مشترك في مؤامرة غامضة ضد المجتمع الأمريكي. . وضد الشركات التي يعمل فيها. . ويرى أن زعماء هذه النقابة من البلطجية، ينتقمون له من الأغنياء والسياسة. . وهو في حالة انتقال مستمر. فليس عنده وقت لكي يفكر. . ولكي يفكر يجب أن يتوقف. ولكنه لا يستطيع. فهو ينام في السيارة أو تحتها، وهو يخطف الأكل والشرب خطفاً، والعمل اليومي قد خطف عمره وسلبه تفكيره وجرّده من إرادته. . وهو ينظر إلى المدن في طريقه، على أنها مجموعة من الكتل الحجرية تعوق حركته. . ولذلك يهرب منها إلى الطرق الطويلة العريضة بين الولايات. . فاللوري وقيادة اللوري هي الصورة النموذجية للشباب الأمريكي!

* * *

ولا يزال التقرير الذي كتبه الباحثون الأمريكان لإصلاح التربية والتعليم في أمريكا والذي عنوانه «أمة في خطر» هو أعظم وثيقة في القرن العشرين لإصلاح الخلل العلمي والتربوي والاجتماعي والأخلاقي في أمريكا، وفي أية دولة صناعية أخرى».

وقد جاء في هذا التقرير أن «حياة الكافتريا» قد أفسدت الشبان تماماً. ففيها يمضون معظم الوقت ويرون أنها نموذج للحياة الإنسانية. يجلسون فيها وينتظرون من يخدمهم. فما الذي يجدون هناك؟. يجدون مناضد كثيرة متباعدة.. ومجموعات متناثرة من الشبان والشابات.. يأكلون السندوتش! وهذه الصورة هي أخطر ما تواجهه أمريكا كلها. فالكافتيريا ليست هي الصورة النموذجية للحياة الاجتماعية.. وإنما هي استراحة مؤقتة وبعدها يستأنف الإنسان العمل والمذاكرة ولكن النظر إلى الكافتيريا على أنها الصورة المثالية والصورة الأفضل من قاعات البحث والمعامل، هذا هو الخطر الذي هدد أمريكا كلها.. الكافتيريا جعلت اللهو قاعدة، والبحث هو الاستثناء.. فالكافتيريا جعلت الاستراحة كل اليوم، والعمل بعض اليوم..

والسندوتش لا يقل خطورة عن كل ذلك. فالشعب الأمريكي يأكل السندوتش في جميع الليل والنهار، ويفضله على أي طعام آخر مهما كان مغذياً أو لذيذاً.. وهو يأكل جالساً وواقفاً ونائماً وراكباً. حتى إذا جلس الشاب إلى مائدة الطعام، ولم يكن على عجل من

أي شيء. . فإنه يصنع من الطعام سندوتشاً - أي يصنع شيئاً من كل شيء، ثم يأكله وينهض. . دون أن يلتفت إلى متعة الجلوس إلى المائدة. . ودون أن ينظر إلى ترتيب الأطباق والشوك والورود. . والبيت الهادىء الدافىء. . ودون أن يعرف أن الصحة هي الهضم الجيد بعد المضغ البطيء. . ودون أن يعرف السندوتش الذي يضعه على المائدة إهانة لكل الموجودين معه. فهو يستعجلهم أن ينهضوا. . وهو في نفس الوقت لا يبالي بهم.

وهناك سندوتش آخر أخطر على الإنسان من سندوتش اللحم والبطاطس،إنه «سندوتش المعلومات». . فقد أصبح السندوتش أسلوباً في الأكل وفي التعليم والتربية أيضاً. . فالشباب يخطف معلوماته من هذا الكتاب ومعلومات أخرى من هذا الكتاب ويترك لعقله أن يلقي كل ذلك في رغيف هزيل. . ويكون هذا السندوتش التافه هو ما لديه من معلومات. ولذلك كان الشاب الأمريكي جاهلاً. . فليس من عاداته أن يأكل على مهل، أن يقرأ على مهل، ولا من عاداته أن يترك العقل والمعدة تهضم على مهل. ولا هو قبل ذلك يجد لذة في المضغ أو في تقليب الصفحات واسترجاع سطورها ثم إعادة النظر إليها. .

ومن المألوف جداً في أمريكا وأوروبا واليابان أن تجد اثنين من الشبان قد ركبا دراجة يأكلان السندوتش وقد وضع كل منهما جهاز تسجيل في جيبه ليستمع إلى الموسيقى. . . أما هذا الذي يطل

برأسه من فوق ظهر فتاة فهو إبنهما الصغير. .

* * *

هذا ـ إذن ـ هو عصر السندوتش، عصر الكافتيريا. . عصر اللوري الذي ينطلق على عجلات خارج المدن وعلى هامش القانون. .

يقول الشاعر الأمريكي إيلي روزنتال في قصيدة عنوانها: نحن كما ترانا معاً في ورقة واحدة منزوعة من الكتاب المقدس وسرقناه من بنك تشيس مانهاتن بعد أن قتلنا إحدى الغانيات وسحبنا جثتها لنضعها في الجليد أمام كنيسة القلب المقدس؟ أما بعض القصيدة فيقول:

كما ترانا. . كل يوم. . نتغطى بلحاف واحد، لا ننطق بكلمة. لقد اتفقنا على أن من يتكلم حتى أثناء النوم، عليه أن ينام بلا غطاء. وهكذا ترى أننا بلا أطفال. . فقد طبقنا هذا الشرط على أطفالنا. . كانوا يبكون فنلقي بهم في النهر. . وأنا أعطي لزوجتي حبوباً منوِّمة حتى لا تسمعني وأنا ألعنها وأتمنى أن أجد واحدة غيرها. . فهي تحبني أكثر مما يجب. . وأنا أعرفْ حب المرأة معناه: الزواج. . والزواج معناه القسيس. . والقسيْس معناه الكنيسة. . والكنيسة معناها الجنة والنار. . والجنة والنار والموت تجعلني لا أحقد على الأغنياء والأقوياء. . ومعنى ذلك أن أتركهم يزدادون غنى وقوة. . وأزداد تقلباً تحت غطاء يزداد انكماشاً يوماً

بعد يوم . . إنني أحلم كل ليلة بقدوم الوحش الذي سمعت قصته من أمي . . فهو يجيء في الليل يلتهم النائمين وحدهم . . ومن أجل ذلك ألفّ نفسي وألفّ زوجتي وطفلي في غطاء واحد . . تعال أيها الوحش . . وابتلع هذا السندوتش المسموم فنموت معاً . . بلا معنى ولا كلمة!».

إذا كنت تحبها حقاً
تزوَّج غيرها؟!

حتى إذا جلست وحدك جاءت إليك أصوات من الشارع. فأنت مع الناس وحتى إذا سددت الباب والشباك فعتد أصابعك إذاعات العالم. وإذا أطبقت عينيك تراءت لك ألوف الصور. وإذا سددت أذنيك، تخيلت ما لا نهاية له من الأحاديث والحوار والأغاني وكلمات الحب وصرخات الغضب. فهناك أكثر من واحد دائماً، مهما كنت وحدك. ومهما حاولت ذلك حتى «رابعة العدوية» عندما اقتحموا خلوتها قالت لهم: أنا وحدي مع الله وحده!



في الديانة الهندية أن أقصى درجات الكمال والسعادة هي أن يصل الإنسان إلى حالة «النرفانا» ـ أي إنعدام الإحساس بكل شيء. . فلا ترى ولا تسمع ولا تتكلم ولا تتخيل. . ولا تشعر بحاجة إلى أحد، ولا نقص في شيء. ولذلك فهذه حالة اكتفاء الإنسان بنفسه، بل أنه لا يشعر حتى بنفسه. وهؤلاء الهنود الباحثون عن السعادة المطلقة، عراة حفاة في قمم الجبال.

ونحن لا نختار هذه العزلة المطلقة، حيث لا أمل ولا يأس. وإنما نختار خضم الناس والعذاب، والأمل في أن تجد أناساً أفضل، وعذاباً أقل. . وإذا هربنا من الناس فإلى الناس، وإذا فزعنا من الحب فإلى الحب أيضاً. والفرق بين الإنسان والحيوان والقديس هو أن الإنسان يحب ويلعن يوماً عرف فيه الحب، ويوماً لم يعرف فيه الحب. ولكن الحيوان لا يحب، والقديس يحارب الحب لنفسه وفي نفسه. بعض القديسين لم ينجحوا ـ كما سنرى.

قال شوقي:

فاتقوا الله في قلوب العذارى

فالعذارى قلوبهن هواء
جاذبتني ثوبي العصي وقالت:
أنتم الناس أيها الشعراء!

* * *

وسئل رجل من البادية: من أين؟
فقال: من بلاد إذا أحب فيها الإنسان مات!

* * *

وقال شوقي في مسرحة «مجنون ليلى» يقارن على لسان فتاة بدوية، الحب عند البدويات والحب عند الحاضرات ـ أي بنات المدن:

ونحن الرياحين ملء الفضاء
وهنَّ الرياحين في الآنية
ويقتلنا العشق والحاضرات
يقمن من العشق في عافية!

* * *

ولو قامت مظاهرة من المحبين والعشاق في هذه الدنيا، واختار كل واحد أن يعلن خلاصة تجاربه في الحياة، ووضع كل واحد لافتة على جبهته أو على قفاه، أو على صدره، أو على بطنه لكانت مثل هذه العبارات المتلاطمة عن الحب والحياة والمرأة والصداقة والغيرة واليأس والأمل. ولو قيل للعشاق: هل تعودون إلى البداية مع العذاب، لاختاروا الذي لعنوه..

* * *

يقول أبو نواس:

يقول أناس لـو وصفت لنا الهـوى فوالله مـا أدرى الهوى كيفـ يوصفـ!

* * *

يقول شوقي:

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى
لعل الذي لم يعرف الحب يعرف
فقلت لقد ذقت الهوى ثم ذقته
فوالله ما أدري الهوى كيف يوصف.

* * *

يقول مصطفى صادق الرافعي:

يا من على البعد ينسانا ونذكره
لسوف تذكرنا يوماً وننساكا
إن الظلام الذي يجلوك يا قمر
له صباح متى تدركه أخفاكا.

* * *

الكـراهية تعتقـل الحياة، والحب يـطلقهـا. . الكـراهيـة تشـل الحياة، والحب يحييها. . الكراهية عمياء والحب أيضاً!

* * *

الحبّ «أكلان» في القلب لا نستطيع أن «نهرشه»!

* * *

«الحب: أن نتكلم ونتـألم ونتعلم. أما الكـراهيـة فهي هنـاك: أطلقها وهي تتكلم!

* * *

اليأس: نهاية حبك لنفسك. وأنت تبلغ هذه الحالة عندما تدير

ظهرك لكل الناس، ظناً منك أنك قادر وحدك على كل شيء بما في ذلك الحب!

الحب والإيمان: أعظم بركانين في حياة الإنسان.. والذي يصيب أحدهما يهزّ الآخر!

انحط مستوى الحب في العالم: لقد أصبح مثل كرة القدم والكوتشينة!

من يزرع الذوق يحصد الصداقة.. ومن يزرع الرقة يحصد الحب!

الحب أعظم طاقة في الدنيا، وأقلها تكلفة!

الحب هو أن تبذل نفسك لتكتشف من تحب!

إنني عاشق بطبعي، ولكني لم أجد من أحب!

لم يعد في هذه الدنيا أحد يموت من أجل الحب، ولكن هناك ملايين يموتون لأنهم لم يجدوا الحب!

ثلاجة يوضع فيها الحب ليموت بهدوء: اللامبالاة!

يقول: لقد تغلبت على الحب ونسيت؟! فليس حباً ذلك الذي نتغلب عليه. فالحب غالب دائماً!

قالوا لي: يجب أن تحب من المحيط إلى الخليج. بصراحة لقد وجدت أنني لست كفوءاً لذلك!

الحب ينتصر على كل شيء.. إلا الموت والحظ.. إنه فقط شجعنا على مواجهة أقسى ما في حياة الحب!

قال دوق وندسور: عندما أصبحت ملكاً وجدت أنه من صعب أن أحمل أعباء الملك وهموم الضمير، دون مساعدة من لرأة التي أحبها!

الحب بين رجل وامرأة هو نوع من تنظيم النفس!

الغيرة: هي الحب في ملابس الحرب.

واليأس: هو الحب في ملابس الحداد!

إذا لم تفلح في أن تجعل امرأة تحبك، انفخ في غرورها لتزداد باً لنفسها، وما فاض عنها سوف يكون من نصيبك!

الحب كالزئبق في يدك.. إن فتحت له أصابعك استقر في بطن فك، وإن أطبقت عليه كفك، هرب من بين أصابعك!

تطاردها تطردك، تطردها تطاردك!

ما دمت لا تستطيع أن تخفي عنها شيئاً، فأنت تحبها!

لا رجل اتهم امرأة بالثرثرة، إذا كانت تتحدث عن قوته!

يجب أن تؤكد للمرأة أن ليس لها نظير في الدنيا، سوف صدقك، وبعد ذلك عاملها كأية امرأة!

الجميلة: هي التي أراها والجذابة: هي التي تراني!

إذا كنت على حق فناقشها كرجل وإذا كنت على خطأ فناقشها كامرأة!

من لا يؤمن بشيء، يحتاج إلى امرأة تؤمن به!

أجمل سنوات المرأة ما بين ٣٥ و٤٠ إلا أن المرأة لا تبلغ الأربعين فهي جميلة إلى الأبد!

أن تكوني سعيدة مع رجل يجب أن تفهميه أكثر وتحبيه أقل.. وأن تكون سعيداً مع امرأة يجب أن تحبها أكثر وتفهمها أقل ـ ولن نفهمها!

كانت أول قبلة مع أول سيجارة في يوم واحد. ومن ذلك الحين، لم أعد أجد وقتاً للتدخين!

المرأة العاقلة تضع بعض السكر في كل ما تقول للرجل، وبعض الملح في كل ما تسمعه منه!

المرأة الفاضلة تلهمك، والذكية تمتعك، والجميلة تجذبك، والرقيقة تفوز بك!

كل النساء الجذابات لهن صفة واحدة: وجوه معبِّرة!

لا يوجد رجل عدو المرأة. فالمرأة هي أعدى أعداء المرأة!

عقل الرجل هو الرجل. جسم المرأة هو المرأة!

رجل في البيت يساوي عشرة في النادي!

المرأة ليست لغزاً في جسمها ونفسها، ولكنه الرجل لم يحاول أن يعرف!

ما نسميه بالحاسة السادسة عند المرأة ليس إلا «شفافية» الرجل!

النساء مثل الحصون يتم الاستيلاء عليها بالقوة أو بالحصار الطويل!

عسل امرأة: سم امرأة أخرى!

لست على يقين من أن هناك امرأة أفضل من رجل ولكن من المؤكد أنها ليست أسوأ منه!

تحب امرأة أن تكون مثل القصص البوليسية: مثيرة غامضة لها عقدة.. ولها حل يكتشفه الرجل دون تدخل منها!

أضعف لحظات الرجل عندما تقول له امرأة: كم أنت قوي!

المرأة تتحمل الألم في جسمها وفي نفسها. ولا تقاومه. ولذلك فهي أقرب إلى الحياة. والرجل يقاومه، والمقاومة تضعفه، وتجعله أقرب إلى الموت!

المرأة إذا لم تحب، فعندها أخلاق، وإذا أحبت لا تهمها

الأخلاق، والرجل إذا أحب فعنده أخلاق، وإذا لم يحب فلا شيء يهم!

أجمل ما في الرجل القوي: شيء من الأنوثة.. وأجمل ما في المرأة الجميلة: شيء من الرجولة!

المرأة حيوان مخيف: انظر إليها وهي ترمق فساتين امرأة أخرى.. إنها حيوان شرس لا إنسانية عندها!

خلق الله الرجل ليكون وحيداً، وخلق له المرأة ليزداد وحدة!

الرجل يفضل المرأة التي تضحكه، ويحب المرأة التي تؤلمه، ويتزوج المرأة التي تنافقه!

إذا عاشت امرأة محبوبة ومكروهة ومحسودة ـ فقد كانت حياتها تساوي كل هذا العناء!

امرأة تعرفها عن طريق امرأة، فأنت لا تعرفها.. إمرأة تعرفها عن طريق رجل فأنت لا تعرفها.

يهمني الذي «في» وجهها، أكثر من الذي «على» وجهها!

الشاب: تستطيع المرأة أن تسعده وأن تشقيه.. والرجل: تستطيع أن تسعده ولا تشقيه.. والشيخ: لا تستطيع أن تسعده أو تشقيه!

أخذ الله حمامة ووردة وأفعى وعجنها في قليل من العسل

والشطة والطين فكانت امرأة!

إذا كنت تحبها حقاً، تزوج غيرها!

الحب كالأفلام: لا بد من تحميضها وطبعها في الظلام!

وراء كل رجل عظيم امرأة تقول: وراء كل عظيم امرأة!

ما أروع الزواج: فأنت تجلس في بيتك بين أولادك وتتفرج على المسلسلات التي تحبها زوجتك!

المرأة تحب الحساب: فهي تقسم سنها على اثنين، وتضرب ثمن فساتينها في ثلاثة!

في المجتمع: تبدو المرأة من غير زوجها طيبة، ويبدو الرجل من غير زوجته سعيداً!

الأعزب ليست لقميصه زراير. الزوج لا قميص له!

مشاكل الرجل ثلاثة: المرأة والفلوس والإثنان معاً!

إذا أخطأ رجل قلنا إنه مغفّل.. وإذا أخطأت امرأة قلنا أنها مغفلات!

لم أعرف أحداً في أي عصر، أحب كل امرأة رآها!

الحب هو أن تصبح أنا أنا = نحن!

الحب هو أن تبالغ في الفوارق بين شخص واحد وكل الناس!

تختلف أساليب المرأة في مواجهة الرجل، ولكن «الرسم» عليه، هو هو.

الهجوم خير وسيلة للدفاع . . قولي له أنك تحبينه. مفاجأة. ولكن سوف يصدقك!

من النادر أن يفسح الرجل الطريق لفتاة تضع منظاراً طبياً!

يقول شاعر قديم:

إذا ذكرت، يرتاح قلبي لذكرها
كما انتفض العصفور بلّله القطر
عجيب لسعي الدهر بيني وبينها
فلما انقضى ما بيننا، سكت الدهر!

فما هذا الذي يمسك الناس، ويجعل حياتهم غالية، ويجعلها تهون عليهم . . ما هذا الذي يجعل امرأة أجمل النساء، وجعل رجلاً سيد الرجال. وكلاهما على باب الله: يتسولان الطعام والفراش. ولكن الحب جعلهما ملوكاً . .

أنتم الناس أيها الشعراء كما يقول شوقي. فهم ـ إذن ـ هؤلاء الكائنات الرقيقة المعبِّرة الحزينة. هم كبار المحبين وعظماء العشاق . . إنهم لا يملكون المال ولا القوة . . ولكن عندهم في نفوسهم كنوز الدنيا، وفيهم قوة الجبال والبحار وانفتاح السماء،

ووهج الشمس، وخصوبة الأرض.. ثم أنهم اللحظات الأبـدية في تاريخ الإنسان.

إنهم عاشوا وماتوا: إثنين اثنين.. يواجهان أقسى وأقصى ما في الدنيا.. قد لا تكون لهما حياة، ولكن كانت لهما الأبدية!

«واسكبي روحك في روحي بكأس الأبدية»!

نحن لا نعرف متى بدأت قصة أول حب في التاريخ.. ولكن لا بد أن أحداً قد أحب.. بل أن ألوفاً قد أحبوا وماتوا من أجل الحب، ولكن لم تصلنا أخبارهم.. أي لم تنقل لنا كتب التاريخ ماذا جرى.. فالتاريخ لم يسجل حياة الناس إلا أخيراً.. فقد كان التاريخ مقدّساً، يروي مغامرات الآلهة وأنصاف الآلهة.. ثم يروي قصص الأنبياء والمرسلين.. ثم يصف الملوك وأبطال المعارك الحربية.. ولكن أخيراً جداً، مع الفلسفات الشعبية بدأ يروي كفاح الشعوب من أجل المزيد من الحرية.. كما أننا لا نعرف أول من اخترع النار، ولا أول من ابتدع المصباح.. ولكن لا بد أن أحداً بعد أحد قد وصل إلى فكرة المصباح الذي يضيء بالدهن وبالزيت ومن جهود الكثيرين انتقلت إلى المصباح الكهربائي.

. والتاريخ يسجل لنا أول قصة كراهية: عندما قتل قابيل أخاه هابيل.. كان حاقداً عليه. ويقال تنافس الإثنان على حب أخت لهما.. إذن هي قصة كراهية، تخفي وراءها قصة حب.. أو ليست قصة حب ولا كراهية وإنما هو تنازع من أجل البقاء.. من أجل السيطرة على مساحة من الأرض أو مساحة من جسم امرأة أخرى أو من قلبها.. أو هو الجوع كافر بالأخوة وبكل شيء آخر!

وفي الشعر العربي القديم يقال أن امرء القيس هو أول الشعراء وهو أول العشاق أيضاً. ويستحيل أن يكون أول شاعر، كما يستحيل أن يكون أول عاشق.. فلا بد أن ألوفاً قبله قد نظموا وغنّوا.. وألوفاً غيره أحبوا ونظموا وبكوا.. ولكنه هو الذي وصلت أنباؤه فقط. وكان امرؤ القيس شاعراً ممتازاً وكان عاشقاً أيضاً. وكان وسيماً يطارد النساء من مكان إلى مكان.. فأحب فاطمة وأم الحارث عنيزه..

ولا يمكن أن يكون هو أول من أحب بنت السلطان أو أخته أو

حتى زوجته. فالحب لا يعرف الفوارق الطبقية أو الاجتماعية.
ويقال أن السلطان قد غضب عليه. وبعث إليه بمن يقدم له ثوباً من الحرير والذهب. وكان مسموماً، فلبسه ومات امرؤ القيس.

ويقال أيضاً ان امرء القيس عندما علم بأن رجال إحدى القبائل ذهبوا إلى السوق وتركوا النساء وراءهم، ظل يترقَّب ويتربَّص حتى وجد النساء قد تعرَّين تماماً عند بئر صغيرة، فأسرع وخطف ملابسهن وجلس عليها. وقال لهن: كل واحدة تجيء وتأخذ ثوبها. وتقدمن جميعاً إلا واحدة!

هذه الواحدة هي التي أحبها.. أحب كبرياءها وعنادها. وهذه القصة مكررة في كثير من الآداب العالمية، بل أنها موجودة في أساطير الإغريق وعند الفراعنة وفي قصص بابل وأشور.

ويروى عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال عن امرىء القيس: ما معناه أنه قائد الشعراء إلى جهنم!

وبعد هذا الشاعر الجاهلي ظهر شعراء كثيرون وعشّاق أكثر. وتناقل الناس شعرهم وأضافوا إليه.. وتندَّروا بمغامراتهم واخترعوا قصصاً من عندهم.

فلا أحد لا يعرف «مجنون ليلى» ـ أو الشاعر الذي جنَّ في حب ليلى وهو قيس بن الملوَّح!

وليس بين مؤرِّخي الأدب واحد على يقين من وجود هذا المجنون. لا أحد. وإنما يقولون هناك في الصحراء ألف مجنون.

وكلهم يحبون ألف ليلى. . فقيس هذا لم يكن له وجود. وإنما هو رمز لأحلام اليقظة عند الشعراء والمحبين. وهو الرجل الخرافي الذي حملوه غرامياتهم. وأجروا على لسانه قصائدهم. . إنه «جحا» الرومانسي. . فكما أن جحا قد نسبوا إليه ألوف النكت في كل عصر، فكذلك مجنون ليلى. .

أما بقية العشاق من مثل: كثير وعزة وجميل وبثينة وعروة بن الورد وليلى وجرير وبثينة وابن المعتز وزرياب وليلى الأخيلية وعشاقها. . وعشرات غيرهم، ليسوا إلا صورة مكررة من العشق بين الشعراء والجميلات في زمانهم. وفي كل زمان بعد ذلك وفي كل لغة.

ولو فعل أحد ما فعله المؤرخ الكبير أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني (٣٠ جزءاً) وسجل لنا ما جرى قبل وبعد القرن الرابع الهجري، لكان عندنا ألوف الشعراء، وألوف من قصص العشق والغرام. ولكن أبا الفرج قد سجل ما جرى في القرن الرابع مما جعلنا نتوهَّم، أنه لم يكن في ذلك الوقت: إلا الحب والعشق والشعر والغناء. فالدنيا تبدأ بشاعر مجنون، لا بد أن يكون كذلك، وفتاة جميلة من أسرة رفيعة. أي أن مكانتها الاجتماعية هي العقبة الأولى في وجه الشاعر. الذي ينظم ويتوجع ويحكي. . وتتناقل القبائل شعره وفضيحة هذه الفتاة.

ولكن في زمن كتاب «الأغاني» كان الرجل يدخل البيت،

فيجد زوجته قد جلست إلى شاعر. ولم يكن الرجل يغضب لذلك. يكفي أنه شاعر. فهي وهو.. يحبان الشعر. وهذا الحب الفني، هو جواز المرور إلى أية امرأة غاب زوجها..

أما قصور الملوك والأمراء وشيوخ القبائل فكانت للغناء والطرب حتى لا يعرف كيف كانت تدار شؤون الملك.

وكانت الليالي طويلة، ولكن الطرب والعشق والفن قادر على أن يطويها في سعادة ونشوة. فلم يكن أحد في ذلك الوقت يشبع من الفن، شعراً وطرباً وغناء. وكانت المطربات مثل نجوم السينما زينة الليل. وكانت المطربة شاعرة أيضاً تحفظ الشعر وترويه وتغنيه.. ففي الأدب العربي وتاريخ الغناء مثل هذه الأسماء: عزه وحبابه وسلامه وعقيلة وخليدة وفرعة وبلبّلة ولذة العيش وسعده الزرقاء وسبعة وذات الخال وأستاذ أساتذة الغناء والطرب إبراهيم الموصلي..

ولا بد أن الشعر هو الذي فرض نفسه على المجتمع.. أي أن الشاعر هو سيد البادية. هو يلقى الاحترام العظيم لأنه شاعر، ويجردونه من هذا الاحترام إذا كان عاشقاً. لأن معشوقته من قبيلة نبيلة، والقبيلة ترى في ذلك تعريضاً بها واجتراء عليها، واقتحاماً لحرماتها.. وكان ذلك يغري الشعراء أكثر بأن يجعلوا الحب قصة الحياة والموت. فبطولة العشاق هي البطولة المعروفة في ذلك الوقت..

وفضائح الشاعر الرقيق عمر ابن أبي ربيعة ومطاردته للنساء في أي مكان من بيوتهن، وحول الكعبة الشريفة تملأ الكتب. .

وتمضي مئات السنين على الشعر العربي فلا تجد قصة حب واحدة. هل أجدبت القلوب؟ هل اختفت الجميلات. . فلا أحد يستطيع أن يحب، ولا واحدة يمكن أن يحبوها؟ لا. . ولكن اختلفت الحياة. فقد كانت الحياة البدوية مفتوحة. وكان الشعراء هم سادة الناس. ولكن الحياة بعد ذلك تغيرت. ولم يعد الشاعر هو الوحيد الذي ينشغل به المجتمع. كما أن وسائل وأشكال اللقاء بين الرجال والنساء قد تعددت. فلم يعد الشاعر، إن كان، معذباً محصوراً مخنوقاً كما يقول مجنون ليلى يصف حالته الأليمة:

كأن فؤادي في مخالب طائر
إذا ذكرت ليلى يشد به قبضا
كأن فجاج الأرض حلقة خاتم
علي، فما تزداد طولاً ولا عرضا!

ولذلك فالحب في العصر الحديث مختلف تماماً. فبرغم كل هذه التليفونات والأندية والمواصلات والحفلات والزيارات، فإن الشاعر يتعذب لأسباب أخرى. . ولكن لم يعد أحد يعيش ويموت من أجل الحب. . ففي الدنيا مشاكل أخرى أعنف وأقسى، وفي أوروبا عرفوا شعراء صعاليك ـ أي شعراء يتهوّسون بالبطولة والتغلّب على الأغنياء والأقوياء ومساعدة المقهورين في الحب. . وفي أوروبا ظهر

شعراء الحب حتى المرض، والمرض يموت من أجلها الناس!

حتى الموت، فهناك شعراء «الطروبادور» الأسبان يتعـذبون من أجل المحبوبة. ولا يريدون منها شيئاً. فقط أن يقال: أحبهـا فلان ونظم شعراً ومات من أجلها، دون أن يرى وجهها إلا مرة واحدة!

وليس الحب هو العشق. .
فالعاشق يعرف ألف واحدة. .

ولكن المحب يعرف واحدة، وتغنيه عن ألف ألف واحدة. .

والعـاشق يحب كـل النســاء. والمحب يـرى كـل النساء في واحدة. .

فهل مضى زمن الحب؟ وهل لم يبق إلا العاشقون؟

لقـد تغيَّرت الحيـاة وأشكالهـا وألوانها ووسـائـل العيش فيهـا. وسيطرت المادة على كل شيء، وكل علاقة، وكل النـاس. فأصبح الحب غريباً. وليس شيئاً شاذاً أن تسمع في أحد الأحـلام: لا حب ولا كلام فارغ. . قل ماذا تريد. . أو ماذا تريدين!

حتى الأغنيـات الحـديثـة التي تتحـدث عن الحـب، اتخـذ فيهـا الحب شكلاً عنيفاً. . تهديداً وعيداً إنذاراً. . بل أن المطرب العاشق لا يريد ن يضيع وقته واقفـاً يبكي ويشتكي ولذلـك فهو يـرقص. . كأنه فاته أن يقوم بتمرينات الصباح، فراح يؤديها في الوقت الضائع

أمام الناس.. لقد أصبح الغناء العاطفي مثل الموسيقى المصاحبة للألعاب الرياضية.. وكأن الحب عيب. والعاطفة نقص.. والغناء مرض..

ــ غير أننا في هذا الزمان أحوج إلى الحب من أي وقت. فالناس أصبحوا مثل السيارات التي يركبونها ويلعنونها، مثل التليفزيون الذي ينامون ويأكلون أمامه في سلبية مطلقة فيفعل بهم ما يشاء.. فنحن الآن نركب آلات ونذير آلات، ونقتل بالآلة، ونعيش عليها.. فإذا رأيت من يركب سيارة أو طيارة من الصعب أن تعرف أيَّهما يقود، الآخر. كلاهما: آلة!.

ولكن الحب هو وحده الذي يحرك أعمق وأجمل وأنبل ما في الإنسان. ففي داخل الإنسان قوى هائلة لا تحركها إلا كلمة السر: الحب..

إن قلب الإنسان مثل الحقائب السمسونيت لها أرقام.. هذه الأرقام يعرفها الحب. فهو يفتحها وهو يغلقها على سرك!

فما هو هذا الحب؟

هناك ألف تعريف لذلك. ولكنه ذلك الشعور العميق الذي يملأ كل حياتك ويشغلك ويجعلك تفضي إذا رأيت «المحبوب» أو فكّرت فيه.. إنه ذلك الشعور الذي يوقف عقلك على شخص واحد، ويجمد نظراتك فلا تتجه إلا لواحد، وتضبط أذنك على

موجة واحـدة. . وهو ذلـك الشعور بـالاحترام والاعجـاب. . وهو ذلك الأمل في أن يكون لك هـذا المحبوب وحـدك. . فلا يـراه ولا يسمعه ولا يقرب منه أحد سواك. . فإذا فعل أحد، اشتعلت النـار فيك. . بلا دخان وبلا حدود.

ثم أن الـذين يحبون لا يعـرفون كـل ذلك. ولا يعنيهم. إنهم يحبـون وهذا يكفي. إنهم غـارقون ولا يـطلبون النجـاة من الله. . إنهم الذين يجدون الحيـاة في الموت في المحبـوب. . إنهم الغربـاء في كل زمان، إنهم السعداء رغم كل شيء. . إنهم الضعاف المتمردون على كل القيـود. . إنهم صرخـات الغضب في وجه التـطور. . إنهم دمـوع الحنـان في جحيم العنف. . إنهم آخـر الـذين يؤمنـون بـالمعجزة. أي بـأن الحب صانـع المعجـزات. ولأن المعجـزات قـد اختفت في زمـاننا، فلم يعـد الحب وحده قـادراً على عـودة سلطان المعجزة. .

لقد كبرت المعدة، فاحتلت مكان القلب أيضاً. .

لقد أصبح القلب يدق في العقل. . أو أن دقات القلب لم تعد تسمعها الأذن. . أو أنه العقل، كالسـاعة القـديمة يـدق. . وكما أن السـاعات الكـوارتز لا تـدق، فكذلـك القلب في العصر الحديث. ولذلك فـالحب قديم، أو هـو ابن الزمن القـديم. . وإذا كان بيننـا محبـون، فهم يعيشون في غير زمانهم. . وهم يبنـون كهوفـاً بجـوار نـاطحـات السحـاب. . وهم يفضلون الـزهـرة عـلى زجـاجـة الكـولونيـا. . وهم يفضلون النظر إلى الثمـرة والأوراق والأشجار،

ويلمسونها بالأصابع وبالعين وبالخد والشفاه، على زجاجة العصير، وسلطة الفواكه والعلب المحفوظة . .

فهل كانت قصة دوق وندسور ومحبوبته الأمريكية، والتي من أجلها نزل عن العرش، آخر قصص الحب في زماننا؟

ليست آخر القصص ولكنها أشهرها. وذلك لأن المحب ملك ولأن التضحية عرش.

وكما أن في وجه الإلحاد نلوِّح بالإيمان، وفي طوفان الماء، نرفع أغصان الزيتون، فسوف يتمسك الناس بإنسانيتهم، وسوف يقف الناس وراء قلوبهم، يتحدون الموت والجوع والعطش والبرد، يقدسون الأغنية، ويملأون الأرض والسماء بالمحبوبات اللاتي لا يملكن إلا حكمة الله: الجمال والصدق!

* * *

وسوف يغني الشعراء ونطرب لما يقولون. وإن لم تكن هناك فائدة مادية، وعائد عملي لما يقولون الفن لا فائدة له. . ولكنهم خالدون بأوهامهم الجميلة، وسماواتهم الخرافية. فما أجمل ما قال شاعرنا الرومانسي المتصوف بعد ذلك: محمود حسن إسماعيل. . ولا يهم أن تصدق كلمة واحدة مما يقول، ولا أن تبحث عن هذه الفتاة التي يتغنى بها. فقد تكون قرداً، ولكنه يراها أجمل الجميلات. يقول:

أنا ظمآن فهاتي
خمر عينيك الشهية
انهليني سحرها السامي
وروي شفتيه
واسكبي روحك في روحي
بكأس الأبدية
قبل أن تغرب شمسي
بين أطباق المنية
خمرة من هالة النور
بعينيك روية
تمسح الآلام من دنيا
بآلامي ثرية
وتنسيني ضنى عمري
وأيامي الشقية
أنا ظمآن فهاتي
خمر عينيك الشهية
قبل أن تغرب روحي
في سحابات المنية

فإلى مزيد من الآهات والتأوهات والأغنيات وأشكال وألوان من العذاب في الأسبوع القادم.

الحديث الحلو
واللحن الشجي

إذا تخيلت رجلاً طويلاً عريضاً عالي الرأس عريض الجبين شامخ الأنف، قفز من مقعده تاركاً عشرات الكتب في الشريعة والفقه والسيرة والفلسفة ومشى على أطراف أصابعه واتجه إلى المطبخ، واصطدم بوابور الجاز ثم كتم أنفاسه، وألصق أذنه بالباب.. ولما لم يجد أحداً، فتح الباب ليطرد القطط التي تزاحمت على صندوق الزبالة ثم ضرب الباب بعنف وراح يتمشى في البيت الضيق، ثم لوَّح في الهواء بيديه يلعن أحداً أو يعلن ضعفه.. وفجأة يتجه إلى المطبخ ويفتح الباب وذراعيه فقد جاءت المحبوبة.. إنها فتاة سمراء واسعة العينين ممتلئة الشفتين.. ويحتضنها وهو لا يتوقف عن السؤال عنها وعن والدها وعن أسرتها.. ولماذا تأخرت هكذا.. وإنه لم يستطع أن يقرأ ولا أن يكتب.. ولا حتى استجاب لرنين التليفون.. وهي لا ترد لأنها لا تستطيع أن تجيب على كل هذه التساؤلات.. هو يراها ينبوع الشباب.. وهي تراه نصف إله.

وفي اليوم التالي تجيء هذه الفتاة وتصعد السلالم وتلقي بورقة من تحت الباب.. تعتذر عن الدخول.. وبعد ذلك بيوم تعود تدق الباب الأمامي فلا يفتح. فتتجه إلى سلّم الخدم وتدق باب المطبخ ثم تلقي بورقة من تحت الباب.. وتدق الباب وتبكي. ولكنه قد اعتصم بمكتبه واستند إلى عشرات الكتب واستبد به الغضب وعظم الاحتقار لها ولكل بنات جنسها.. ولنفسه إن كان هكذا يضعف أمام رغبات صبية صغيرة تهبط به من سماء الآلهة، إلى حظيرة الحيوانات الآدمية..

إنه الأستاذ العظيم عباس العقاد، إنه عظيم ولكنه بشر!

ولو رجعنا إلى كل أدباء ومفكري وشعراء مصر في هذا القرن فإننا لا نجد واحداً منهم قد اعترف بأنه أحب. أو ذكر اسمها أو هي أشاعت ذلك.. إلا الأستاذ العقّاد. فقد تكفّل أصدقاؤه وتلاميذه بذلك.. فأنا عندما كتبت «صالون العقّاد» لم أشأ أن أتعرض بوضوح لغراميات العقاد. وإنما حاولت أنْ ألفّ وأدور، احتراماً للمفكّر الإسلامي العظيم عباس العقاد.. وأنا أعرف أكثر اللاتي اعترضن طريق الأستاذ، أو ترامين عند قدميه.. ولم أشأ أن

أذكر بوضوح السيد مديحة يسري، ولكنها هي التي أعلنت أخيراً وصراحة أنها المقصودة من شعر العقّاد وأنها كانت تتردد عليه وأنه هو الذي علّمها كيف تقرأه وطه حسين. . إلى آخر الذي قالته، ومن الطبيعي أن تضع نفسها في حياة العقّاد بالصورة التي ترتضيها وترفع شأنها، وقد بالغت كثيراً جداً. فالشعر الذي قاله العقّاد عنها قليل، والذي قاله في الهجوم عليها كثير وشنيع جداً. .

وكان الأستاذ العقّاد عصبي المزاج، يكفي أن أحداً يتخلف عن موعده، ليثور عليه وكأنه ارتكب أعظم جريمة. . وفي غرفة نوم العقّاد كانت لوحة بشعة رسمها الفنان الكبير صلاح طاهر وبها كل مشاعر الأستاذ العقّاد للسيدة مديحة يسري. وهذه قصة أخرى.

ولم يكن ذلك هو «الحب» الذي شغل العقّاد وهزَّ أعماقه ولكن كان الحب الذي أثار أعصابه. . والأستاذ العقّاد أحب سيدة لبنانية وجعلها بطلة روايته الوحيدة «سارة» وهي ليست رواية بالمعنى التقليدي. أما مادتها فمن الممكن أن تكون رواية لكاتب آخر. فالعقّاد أغرقها وأهلكها بالتحليلات النفسية. ولكن هذه هي المحاولة الروائية الوحيدة. .

ومشكلة العقّاد في الحب هي مشكلة آلهة الإغريق. . فآلهة الإغريق، كانوا يحقدون على البشر. إنهم يحبون ويتعذبون ويستمتعون بالحياة والخوف والأرق. أما الآلهة فهم لا ينفعلون فلا يحبون ولا يكرهون ولا يثأرون. ولذلك إذا أرادوا أن يكون لهم ما

للبشر، فهم يحـولـون أنفسهم إلى بشر. ويحـوِّلـون أنفسهـم إلى حيـوانات أيضـاً.. ليستمتعوا بعـواطف الإنسان وغـرائز الحيـوان. ومشكلة العقَّاد أنه لم يشـأ أن يكون بشـراً عاديـاً. ولا يحب.. وفي نفس الوقت لا يستطيع أن يجعل المحبوبة نصف آلهة.. لا يستطيع أن يرفعها إلى مستوى رأسه.. فكـان ذلك هـو عذابـه الأكبر.. لا هو قادر على أن ينحني، ولا هي قادرة على أن ترتفع. ولذلـك فلم يصـادف العقاد واحـدة، ترضيـه عقلياً ووجـدانياً. ومن هنـا كانت نظرته إلى المرأة.. فهو يراها حيـواناً ضيق الأفق أنـانياً.. إنها لهـذه الصفات هي سبب تعاسة العظماء..

عـلى الرغم من أن الشعـراء والأدبـاء في زمن العقَّـاد ـ أي من خمسين عامـاً ـ كانـوا يعرفـون ويحبون ويعشقـون ما لا عـدد له من النساء، فإن أحداً لم يذكر ذلك صراحة.

بعض الشعراء نظم الكثير في زوجاتهم، حبهم الأول أو حبهم الأخير. ولكن كانت لهم نسـاء أخريـات.. فليس مألـوفاً في أدبنـا الحديث، ولا في أخلاقياتنا، أن يتحـدث أحد عن امـرأة يحبها ففي ذلك عيب عليه، وعار لها.. ولذلك سكت الرجال وسكت النساء أيضاً!

حتى ظهرت في الحياة الأدبية في مصر فتاة جاءت من فلسطين: أبـوها لبنـاني ماروني وأمهـا فلسطينيـة. إنها الآنسة مي زيـادة (٥٥ سنة). هذه الفتـاة السمراء الجـذابة هي التي أشعلت النـار والغبار

والـدخان في ليـالي القاهـرة. أبوهـا صحفي. وكانت تكتب بتسـع لغـات. أديبة مفكـرة شاعـرة ثائـرة معـذبـة أقصى وأقصى درجـات العذاب. فقد كانت إنساناً غريباً في القاهـرة في أوائل هـذا القرن. لها صالون أدبي. وفي الصالون يلتقي كل أدبـاء مصر: العقاد وطـه حسين وإسماعيل صبري وولي الـدين يكن ولطفي السيـد ومنصور فهمي وسـلامـة مـوسى وخليـل مـطران ومصـطفى عبـد الـرازق ومصطفى صادق الـرافعي. وهؤلاء الكبار ليس بينهم حب ولا ود. بل إنهم لا يحبون أن يكونوا معاً في مكان واحد.

ولكن من أجـل «مي» إلتقى كل الأضـداد. ولا أعـرف كيف كـانت هي تلتقي بكـل هؤلاء المفكـرين. ولا كيف كـانت تـوزع الاهتمام والاحترام والمودة بينهم بالعدل. ولا أعرف كيف كانت ترد على رسائلهم التي تكشف عن غضبهم، لأنها أبدت اهتماماً بواحـد أكثر من الآخر. . وكانت مي تضحك: إنهم أطفال كبار!

أما رسائل العقّاد لها ورسائلها إليه، وعندي الكثير منهـا، فهي نوع من «المشي على الحبل». . فالعقّاد شديد الاحتراس فيما يكتب. لأنه يعلم أن رسائله سـوف تكون في أيـدي الآخرين. فهي، مثـل كل امرأة أخرى، ولا تحفظ سراً. . ورسائل مي إلى الأستـاذ العقّاد فيها تحفُّظ شديد. . وأحياناً لا تستطيـع أن تضبط عواطفهـا، وهي تنبهه إلى أنها تود أن تقول أكثر، وأن تكون أقرب. . ولكن. . وهو يعرف ما الذي تقصده. .

واحتفظ الأستاذ العقَّاد برسائلها إليه.. ثم أمر بحرقها. إما غضباً منها، وإما احتراماً لها وكتماناً لسرها.. وإن كانت بعض هذه الرسائل لا تدل على أنها «أحبَّت» العقَّاد.. ولا أن العقَّاد «أحبها».. وإن كان الأستاذ العقَّاد قد اعترف بأنه أحبها. ولكن «مي» أصبحت غير قادرة على أن تستجيب لهذا الحب ـ فقد كانت تكبر الأستاذ العقاد بثلاث سنوات، فقد ولدت في مدينة الناصرة سنة ١٨٨٦.

وعندما أعيد قراءة رسائله التي بعث بها إليها أجد أن الأستاذ العقَّاد تمنى أن يكون بينهما حب.. ولكنه لا يعرف على التحديد من هو الأديب الذي تحبه أكثر، أو من الذي تستريح إليه.. ولكنه يستبعد أن تكون قد أحبت مسيحياً مثلها، فهي شديدة التديُّن..

رجل واحد كانت الآنسة مي تضيق به ولا تحب أن تراه ولا أن تسمعه. إنه الأستاذ مصطفى صادق الرافعي. فهو ثقيل السمع، وهو يجيء إليها من طنطا. ثم أنه شاع أنها تحبه، وأنه هو حبها الوحيد.. وكتب كثيراً جداً عن هذه العلاقة.. كتب أجمل ما قرأنا في الأدب العربي الحديث.. كتب الذي أحس به والذي تخيله. ولكن الذي كتبه شيء جميل جداً: السحاب الأحمر وأوراق الورد.. ورسائل الأحزان.. ونظم شعراً في حبها.. أو من خيالاته في عالم الحب. وليس لهذا الحب من واقع إلا في كتب

الفنان مصطفى صادق الرافعي. وكانت مي لا تحب هذا التجريح والتعريض بها!

إن «مي زيادة» كشفت الحياة الاجتماعية والأدبية في مصر. فقد كانت أشجع بنات جنسها، خطيبة ثائرة من أجل حرية المرأة، الحرية التي لا تجدها هي، وحق المرأة في تقرير مصيرها، وهو ما لم تستطع هي أن تفعله.. ومن أجل أن تختار المرأة الرجل الذي يملأ قلبها وعقلها، ولم تستطع هي أن تختار أحداً..

والصالون الأدبي لم يكن معروفاً ولا مألوفاً في ذلك الوقت. وإنما هي نقلت هذا اللقاء الأسبوعي من أوروبا.. ولم يسجل لنا أحد كيف كان هذا الصالون وماذا يقال فيه.. ومن يقول.. وكيف هي تعلق على ذلك.. وكيف ينتهي الخلاف بين العقّاد وطه حسين أو بين طه حسين ولطفي السيد أو بين منصور فهمي ومصطفى عبد الرازق وسلامة موسى؟وكيف استطاعت «مي» أن تروِّض هذه الوحوش الأدبية وأن تحتفظ بهذا «السيرك» العقلي عشرين عاماً..

وكأن هؤلاء الأدباء لم يكتفوا بتعذيبها بل تآمروا أيضاً على قتلها فلم يكتب أحد عنها، ولا عن هذه الندوة الأدبية.. فكأن علاقتهم بالأديبة مي زيادة، علاقة مشروطة. إن هي كانت لواحد منهم، كتب عنها، وأقام لها كوخاً في التاريخ إلى جوار قلعته الأدبية.. إذن هي «مؤامرة صمت» ـ لا أحد يكتب عنها، لأنها كانت لكل واحد فيهم. فكان عدم تفضيلها لواحد على واحد، إهانة عنيفة لكل

أديب ومفكّر. فكل منهم يرى أنه الأديب وأنه المفكّر. وأنه لا يقبل منافسة أحد. ولأنها لم تحب منهم، كان معنى ذلك أنها تراهم جميعاً سواء. يستحقون المنافسة. فليست لأحد منهم مزايا تجعله إلهاً، وتجعل الآخرين بشراً، أو تجعله بشراً والآخرين كلاباً!

إذن لم يكن مألوفاً في أدبنا المعاصر أن يتحدث العاشق.. وإن تحدث فدون أن يذكر اسماً ولا رسماً ولا جسماً.. ولكن أنه أحب..

ولم يعرف أحد إن كان صحيحاً أن الشاعر الغنائي أحمد رامي قد أحب أم كلثوم وأحبته.. ولا إن كان الشاعر كامل الشناوي قد أحب نجاة الصغيرة وحدها.. فقد أحب، أو تخيل، أنه أحب المطربتين فايزة أحمد ونور الهدى. ولكن كامل الشناوي هو الذي جعلنا لا نصدقه محباً أو كارهاً. فكل مشاعره يغلّفها بالنكت. فهو، كما يشنع بالآخرين، ففي مقدمة الآخرين: كامل الشناوي. فهو أكثر الناس تشنيعاً وتشهيراً بنفسه. وأكثر شعر الغضب الذي نظمه كامل الشناوي كان عن «نجاة الصغيرة» ولم يكن غضبه عليها، بقدر غضبه على الآخرين حولها، أو بينه وبينها في الطريق إليها..

والشاعر عبد الرحمن صدقي نظم شعراً كثيراً وطويلاً في زوجته الأولى.. وكان هذا الشعر أقرب إلى هجاء زوجته الثانية الإيطالية، التي لا تقرأ ما كتب ولا يهمها إن قال شعراً أو لم يقل.

ولم نعرف إلا أخيراً جداً من هو ذلك الرجل الذي كان قريباً جداً وبعيداً جداً. ومن ذلك المهاجر المهجور، من ذلك الذي يدور حول الأرض، ويدور حولها.. ومن ذلك الذي إذا رأى الشمسْ قال: يامي.. وإذا رأى القمر قال: يامي... وإذا مرض أحس أن كل مرض له شفاء إلا حبها..

كان يكبرها بثلاث سنوات، ومات قبلها بعشر سنوات. فقالت مي: عندما مات أبي وأمي فقد مات نصفي، وعندما مات هو انتهيت!

إنه المفكِّر اللبناني جبران خليل جبران.

وفي العام الماضي ظهر كتاب بالإنجليزية عنوانه «الشعلة الزرقاء ـ الرسالة الغرامية بين جبران خليل ومي زيادة». وفي الكتاب صور لرسائل باللغة العربية.. وصور لكل ورقة يجدها ويكتب عليها خواطره وأشواقه وأحزانه.. ويطلب إلى مي أن تلقي بها في المدفأة لعلها تضيف ناراً إلى النار، أو لوناً في لوحة الشتاء!

لقد عاشت «مي زيادة» فراشة وحيدة في بيتها تدور حولها مشاعل الفكر والأدب المصري تلسعها وتحرقها وتتركها تتعذب.. حتى انهارت ودخلت مستشفى الأمراض العقلية في بيروت.. وجاء الجنون يحمل عنها كل هذه الأعباء ويوفِّر عليها قراءة ألوف الرسائل تبكيها وترثيها.. فقد غابت عن العقل، وغاب عنها العقل أيضاً.

•

وصفت «مي» نفسها في رسالة إلى صديقة لها فقالت:

استحضري فتاة سمراء كالبن أو كالتمر الهندي كما يقول الشعراء، أو كالمسك كما يقول مجنون ليلى، وضعي عليه طابعاً سحابياً من الوجد والشوق والذهول والجوع الفكري الذي لا يكتفي والعطش الروحي الذي لا يرتوي،، يرافق أولئك جميعاً استعداد كبير للطرب والسرور، واستعداد أكبر للشجن والألم، واطلقي على هذا المجموع اسم «مي» تري من يتحدث إليك الآن.

قال العقّاد يرثيها:

شيم «غر» رضيات عذاب
وحجى ينفذ بالرأي الصواب
وذكاء ألمعي كالشهاب
وجمال قدسي لا يعاب
كل هذا في التراب آه من هذا التراب!

وقال الشاعر شفيق معلوف:

بنت الجبال ربيبة الهرم
هيهات يجهل اسمها حي
لم نلف سحراً سال من قلم
إلا هتفنا: هذه مي!

وقال خليل مطران:

أقفر البيت أين ناديك يا مي
إليه الوفود يختلفونا

صفـوة المشـرقـين نبـلا وفضـلا
في ذراك الــرحيب يعتمـــرونـــا
فتســاق فيـه البحوث ضـروبـا
ويـدار الحـديث فيـه شجـونـــا
ونعيـب القـلوب وهي غــراث
من ثمـار العقـول مـا يشتهـونـا

وقال العقّاد:

سـائلوا النخبة من رهط النـدى
أين «مي» هل علمتم أين «مي»؟
الحـديث الحلو واللحن الشجي
والجبـين الحـر والــوجـه السني
أيـن ولّى كوكباه؟ أين غاب؟

وقال إسماعيل صبري:

روحي على دور بعض الحي حائمة
كظامىء الطير تـواقـا إلى المـاء
إن لم أمتّـع بمي نـاظــري غـداً
أنكرت صبحك يا يوم الثـلاثاء

وفي الآداب العالمية أديبات عشقن الأدباء والفنـانين ـ ولكن في

غير عفة . . أي في غير عذاب .

كانت أديبة فرنسا جورج صانـد أحبت وأحبها الشـاعر الفـرند بميسيه والموسيقار البولندي شوبان .

وكانت «سالومي» ـ قد أحبهـا عالم النفس فـرويد والفيلسـوف نيتشه والشاعر ريلكه . . فكانوا عشاقاً، وكانت عشيقة .

وكثيرات في كل العصور . .

إلا «مي» فكانت لعصر كامل . . ولم تكن لأحد . . ولم يكن لها أحد . . كانوا قريبين جداً، وكانت بعيدة جداً . .

عاشت في خيالهم، فلما ماتت كانت وحدها!



ما هذا الطوق في عنق الحمامة؟

مفاجأة القرن العاشر الميلادي أن يؤلف شيخ أمام فقيه شاعر كتاباً عن «الحب». وهو الكتاب الوحيد في التاريخ من تأليف أحد رجال الدين.. وهو الكتاب الوحيد في كل اللغات في ذلك القرن. والمؤلف هو ابن حزم الأندلسي. كتبه وهو في الثلاثين من عمره. يتحدث فيه عن معنى الحب وأسبابه وأعراضه ورأي الناس.. وماذا يفعل المحب لكي ينجح وما الذي يجعله يفشل. ومن هو الهاجر والعاذل وما هي الإذاعة والسفارة والبين والضنى ثم أن الحب ليس حراماً ما دام المحب عفيفاً كتوماً. لا جاء في كتاب ولا سُنَّة أن المحب مجرم وأن الحب خطيئة. ويقول ابن حزم: أريحوا النفس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد.

أما الكتاب الذي ألَّفه ابن حزم الأندلسي، الوزير ابن الوزير والذي دخل السجن وخرج ودخله لأسباب سياسية فهو «طوق الحمامة». . ولكن عذاب السجن وهوان السياسة لم يتركا أثراً على قلمه. فقد رأى أن الحب ضرورة. بل هو حياة. ومهما غضب الناس من الفقيه المؤرخ الشريف النظيف، فإنه حريص على أن يقرأ الناس ما كتب.

وما دام قد قال الحق في الحب والدين والمذاهب الدينية، فلا يهم. وقد أحرق الناس كتبه وخاف منه الحكام. ويقال أنه ألَّف ٤٠٠ كتاب. ولم يصلنا إلا القليل منها.

ولم يذكر لنا ابن حزم الأندلسي معنى «طوق الحمامة» ـ أي الطوق في عنق الحمامة. . ولكنه لا بد أنه اختار الحمامة لوداعتها، أو لعله اختار الحمامة ذات الطوق. أو الحمامة المطوَّقة. ففي الحب يجب أن يختار المحب «سفيراً» ـ أي من ينوب عنه في إبلاغ فتاته وأخباره إلى المحبوبة فلا يختار شخصاً غبياً، ولا يختار عجوزاً مخرفة. وكان من عادة المحبين أن يبعثوا

بـالخياطـة والبلانـة والحجـامـة ـ أي التي تعـطي الحقن ـ فـاختيـار السفـير مهم في الحب ففي يديـه وخيالـه وذاكـرتـه وأخـلاقـه حيـاة الحب ومـوته. وكـان بعض المحبين يضعـون رسـائلهم في أجنحـة الحمام الزاجل. ونوح عليـه السلام عنـدما أراد أن يعـرف إن كان الـطوفـان قـد انحسر عن الأرض فقـد أرسـل حمـامـة. يقـول ابن حزم:

تخيرها نوح فما خاب ظنه
لديها، وجاءت نحوه بالبشائر
سأودعها كتبي، فهاكها
رسائل تهدى في قوادم طائر

ولكن هناك نوعـاً من الحمام اسمـه «الحمامـة المطوَّقـة» ويقـال «اليمـامة المـطوقة» أيضـاً. . هذا الـطائر يـاباني الأصـل عـثر عليـه المكتشفـون في جزيـرة هوتشـو في اليـابـان في القـرن الثـامن عشر. وانتشر هذا الطائـر بسرعـة من اليابـان حتى وصل إلى إنجلتـرا من سبعـين عامـاً فقط. ووصل إلى المجـر سنـة ١٩٣٠ وإلى الـدانمـرك سنة ١٩٤٨. وهو طـائر رمـادي بني اللون وله جسم رمـادي أزرق فـاتح. . وريش الجنـاحين أسـود: والذكـر ينـام عـلى البيض نهاراً والأنثى تنام ليلاً. وقـد لاحظ العلماء أن الذكـر يغالط الأنثى فينـام على البيض ست ساعات فقط!!

وصوت هذا الحمام من ثلاثة مقاطـع، أما معنى هـذه المقاطـع

الثلاثة فله تفسير في الأساطير الإغريقية: يقال أن سيدة كانت تعذِّب خادمة لها فتعطيها ١٨ قرشاً في العام. فراحت الخادمة تبكي وتصلِّي للآلهة أن ترحمها من هذه السيدة البخيلة. فاستجاب كبير الآلهة زيوس لدعاء هذه الخادمة المسكينة. وقرر أن يفضح العجوز فخلق هذا الطائر وجعل في عنقه لوناً أسود كأنه الطوق. ثم جعل صوته: ديكا - أوكتو. . وهما كلمتان يونانيتان معناهما: ٨ و١٠. . فهذه الحمامة تعلن في الدنيا بهذا الشكل الجميل والريش البديع فضيحة الـ١٨ قرشاً التي تدفعها عجوز بخيلة لفتاة مسكينة!

واختار ابن حزم «طوق الحمامة» أي هذه العلامة الزرقاء القائمة في عنقها الرقيق الرمادي البني للدلالة على أنها هذا الرسول أو السفير المخلص ينقل رسائل المحبين في أمان وكتمان. . وهذا الطوق أو هذه العلامة، دليل على ذلك. . وهذه الحمامة تختلف عن كل الطيور، كما يختلف السفير المخلص والرسول الأمين عن كل الذين يفضحون أسرار المحبين. .

ولم يكتشف المستشرقون كتاب «طوق الحمامة» إلا في أوائل هذا القرن. وكان مفاجأة أدبية كبرى: شيخ فقيه عارف بالله يتحدث عن الحب!

وقد أحب مصطفى صادق الرافعي، وهو المفكِّر الإسلامي، وأحب الأستاذ العقَّاد وهو المتفلسف الإسلامي. . وقد اندهش

قـرَّاء مجلة «الثقافـة» عندمـا كتب الأستاذ أحمـد أمـين، وهـو العـالم الإسلامي، أن سيدة كانت تعلِّمه اللغـة الفرنسيـة فقال لهـا يومـاً: إن عينيك تعجبني!

فهاج وماج القرَّاء: كيف أن رجلاً شيخـاً عالمـاً إسلاميـاً يقول ذلك. . مع أنه لم يزد على الإعجاب بعيني هذه المدرِّسة الفرنسية!

والشاعر القديم يقول مستجيراً بالله وحائراً في حكمته:

خلقت الجمال لنا فتنة
وقلت: يا عبادي اتقون!
وأنت جميل تحب الجمال
فكيف عبادك لا يعشقون؟!

وقـد جعل الشيـخ أبو محمـد علي بن أحمـد بن سعيد بن حـزم كتـابـه المشهـور «طـوق الحمـامـة» في الإلفـة والآلاف في ثـلاثـين فصـلاً. وقد ألَّفـه وأهداه إلى أحـد أصدقـائه. وقـد استمد كـل ما فيه من وقائـع وأحداث من حيـاة الناس حـوله. ولم يشـأ أن يذكـر أسماءهم. لأن أسماء المحبين عورة. وابن حـزم قد فتـح عينيه عـلى النسـاء في بيته، هنَّ الـلاتي علَّمنه القـراءة والقـرآن. . وقـد سمـع إليهن طـويـلاً وكثيـراً. وتعلم منهن حب الاستـطلاع والفضـول. ولكنـه عاش ومـات عفيفاً. ثم رأى ولاحظ وسجـل وفكَّر وحلَّل. وكـان لا بـد أن يكتب. . وكتب نـاصحـاً أمينـاً «لأنـه لا بـد أن

يحب، ولا بـد أن يتعـذب» والـذي يحب ويتعـذب يخيَّـل إليـه أنـه وحده في هذه الدنيا.

وأنه قد وقع في بئر لا خـروج منها. . فكـان هذا الكتـاب مثل حبل تدلى إلى غريق.

يقول إبن حزم: الحب أوله هزل وآخره جد.

وليس الحب حـرامـاً، فقـد أحب الخلفـاء والأمـراء والملوك وشيوخ كثيرون. . يقول الرسـول عليه الصـلاة والسلام: «الأرواح جنود مجنَّدة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

وعلامات الحب: إدمان النظر إلى المحبوب. ومتابعـة المحبوب أينما ذهب. فالعين تمشي وراء المحبوب. . كـما تتلون الحربـاء بلون الشمس. والـذي يحب يتحـدث كثيـراً عن الحب والمحبـوب. ويستريح إلى المكان الذي يجلس فيه. ويجلس بالقرب منه. وينبهـر عندما يراه. ويدق قلبه عندما يقترب منـه. أو عند سمـاع صوتـه. أو سماع اسمه فجأة. والحب يجعل المؤمن يكفـر، والكافـر يؤمن. والحب كما يقول ابن حزم أيضاً يجعلك تشـرب ما تبقَّى من كـوب المحبـوب. ويجعلك تضحـك وتبكي بسـرعـة ولأتفـه الأسبـاب. . ألست مضطرباً؟

ومن الممكن أن تحب أحداً قبل أن تـراه. تسمع عنـه. وتكون المسافة كبيرة بين الصورة التي رسمتها له، وصورتـه هو. . فـإما أن

يكـون الواقـع صدمـة تلقي بك إلى الـوراء، أو صدمـة ترمي بـك عند قدميه..

وهـذا النوع من الحب هـو حب ربات القصـور - أي الفتيات الـلاتي يخرجن ولا يـرين أحداً. وإنمـا يسمعن عن الدنيـا. والمـرأة تحب عـلى السماع، ويكـون حبها أقـوى وأعمق، والرجـال يكـون حبهم عـلى السماع ضعيفـاً. فالمرأة مخلصـة لمـا تسمـع، أكـثر من إخلاصها لما ترى.

وهنـاك الحب من أول نـظرة: تـرى الفتـاة الجميلة.. وتكـون النظرة الأولى هي الأخيرة. ففي لحظة واحدة تستـولي عليك الفتـاة الجميلة وتجـرّدك من سـلاحـك. إنها «الحـرب الخـاطفـة» - بلغـة العصر - التي تستولي فيها على كل قدراتك من الضربة الأولى!

يـروي لنا ابن حـزم قصة قـاض عظيم رأى فتـاة في السـوق، فـطار عقله ومشى وراءهـا. وأحست بـه الفتـاة فكـان هـذا الحـوار الرقيق الساخن كأنه في أحد الأفلام الحديثة..

قالت له: لماذا تمشي ورائي؟

قال: جمالك!

قالت: لا تفضحني!

قال: بل أنت فضحتني!

قالت: ماذا تريد؟

قال: أراك!

قالت: هذا مباح!
قال: حرة أو مملوكة؟
قالت: مملوكة!
قال: اسمك؟
قالت: خلوة!
قال: ومن الذي يملكك؟
قالت: السماء أقرب لك!
قال: متى أراك؟
قالت: في مثل هذا اليوم من كل أسبوع.
قال: أين؟
قالت: في نفس المكان!

وظل القاضي يذهب إلى نفس المكان في نفس الوقت حتى مات ولم يرها! والذي يحب من أول نظرة ليس عنده وقت ولا عنده صبر. إنه يسلم سلاحه من أول موقعة.. ويريح نفسه من عناء البحث، وعذاب الانتظار!

ولكن هناك حباً آخر: الحب بعد المطاولة. أي الحب من ألف نظرة. ويرى ابن حزم أن هذا الحب يدوم، فالذي يدخل القلب بصعوبة، يخرج منه بصعوبة أيضاً. ويقول: وما دخل عسيراً، لا يخرج يسيراً.

فلا بد أن يتمكن الحب ـ أي يكون له مكان ثابت في

أعماق القلب. وهكذا يطول مثل عمر الحياة.

والذي يحب، يحب كل صفات المحبوب. فالذي أحب فتاة قصيرة أو سمراء أو بدينة، فإنه لا يحب إلا هذه الصفة في كل النساء.. أي أن القلب له حب واحد. فأنت إذا أحببت فتاة لها صفات معينة، وابتعدت عنها لسبب ما، فإنك تبحث عن هذه الصفات في كل الفتيات. أي أن لديك نسخة واحدة من المحبوبة تريد أن تجد شبيهة لها بين كل الفتيات.

وإذا أنت أحببت فإنك تحاول أن تكون على صلة بالمحبوبة.. فتبعث إليها بالرسائل أو الرسل، فإذا بعثت إليها خطاباً ـ هذا عصر ما قبل التليفون ـ فليكن من ورق جيد أنيق.. فالعاشق عندما يتسلم الخطاب يضعه على القلب وعلى خده وعلى شفتيه وفي حضنه..

ويسخر ابن حزم من العشاق الذين يكتبون رسائلهم بدمهم.. وقال أنه رأى خطاباً من هذا النوع، فلم يجد فرقاً بين لون الدم ولون الحبر الأحمر. ولكن العبرة بإحساس العاشق والمعشوق بما يكتب وبما يفعل من أجل المحبوب!

ومن صفات المحب: الكتمان. فإن كتمان الحب، مثل أن تطبق يدك على النار. إنها تحرقك. ولكن لا بد أن تداري حبك عن عيون الناس حماية لك ولمن تحب. والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: من أحب فكتم فعفّ مات شهيداً.

وهو يلعن «الإذاعة» ـ أي نشر أخبار المحبوب.. أي ينشرها المحب أو تنشرها المحبوبة. فإن الإذاعة يكون سببها أن يتباهى الإنسان بأنه يحب، وأنه مغلوب على أمره، وأنه لم يقو على الكتمان. فقد فضحه الحب. كما تفضحه الحمى.

وهناك الذين ينظرون من بعيد: العازل والرقيب والواشي..

وأروع ما في الحب: الوصل.. أن تجد المحبوب وأن يجدك. وأن تلمسه وأن يلمسك. يقول ابن حزم: «وهو حظ رفيع ومرتبة سرية، ودرجة عالية، وسعد طالع، بل هو الحياة المتجددة والسرور الدائم ورحمة الله عظيمة... ولولا أن الدنيا دار ممر ومحنة وكدر، والجنة دار جزاء وأمان من المكاره، لقلنا أن وصل المحبوب هو الصفاء الذي لا كدر فيه والفرح الذي لا شائبة له ولا حزن معه وكمال الأماني ومنتهى الأراجي..».

وهناك: الهجر.. أي أن يهجر المحب حبيبه ومن أسباب الهجر: الملل.. فيضيق المحبوب والمحبوبة. ويشعر الواحد منهما أنه ليس لديهما ما يقال، ولا عندهما جديد..

وهناك: السلوى.. أي عندما يحاول العاشق أن يتسلى بعيداً عن المحبوب.. وعندما يحاول أن ينسى.. ويحاول أن يستغرقه شيء آخر..

وقد يقتنع العاشق بأي شيء يذكّره بالمحبوب.. فيتخيل

حـواراً بينهما. . ويقبـل ورقة بعث بهـا. . أو منـديـلاً. . أو خصلة شعر. ويقول أنه رأى عاشقاً ضربـه المحبوب بسكـين، فأخذ يقبِّل مكان الجرح.

يقول ابن حزم أن هذا المحبوب لم يضربه أحـد بسكين، وإنما الدم في عروقه قد أحس بقرب المحبوب فخرج لتحيته. يقول:

يقولون شجك من همت فيه
فقلت لعمري ما شجني
ولكن أحس دمي بقربه
فطار إليه ولم ينثن!

أما الفتاة التي أحبها ابن حزم فيصفهـا هكذا: جـارية نشـأت في دارنا وكانت في ذلـك الوقت بنت ستـة عشر عامـاً وكانت غـاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفـرها ودمـاثتها عـديمة الهـزل، منيعة البـذل، بديعـة البشر، مسبلة الستر، فقيـدة الذام، قليلة الكـلام، مغضـوضـة البصر، شـديـدة الحـذر، نقيـة من العيـوب، دائمة القـطوب، حلوة الأعراض، مـطبوعـة الانقباض، مليحـة الصدود، رزينـة القعـود، كثيـرة الـوقـار، مستلذة النفـار، وجهها جالب كل القلوب، وحالهـا طارد من أمهـا. تزدان في المنـع والبخـل، ما لا يـزدان غيرهـا بالسمـاحة والبـذل. أحببتهـا حبـاً مفرطاً شـديداً، فسعيت عـامين أن تجيبني بكلمـة وأسمع من فيهـا

لفظة غير ما يقع في الحديث الظاهر، فما وصلت من ذلك إلى شيء».

ثم يروي كيف يطاردها وهي وراء ستار. . يقترب منها. . لعله يسمعها. . لعله يلمسها. . ولم تشعر الجاريات بكل ذلك ـ إلى هذه الدرجة كان حريصاً وكان قادراً على إخفاء مشاعره ـ يقول لها:

منعت جمال وجهك مقلتيا
ولفظك قد ضننت به عليا
أراك نذرت للرحمن صوما
فلست تكلمين اليوم حيًّا

ثم رآها بعد ستة أعوام: «وما كدت أن أميِّزها حتى قيل لي هذه فلانة وقد تغيَّر أكثر محاسنها وذهبت نضارتها وفنيت تلك البهجة، وغاص ذلك الماء الذي كان يرى كالسيف الصقيل والمرآة الهندية، وذبل ذلك النوار الذي كان البصر يقصده نحوه. فلم يبق إلا البعض المنبىء عن الكل. . المبني على الكل. . والنساء رياض متى لم تتعاهد ذبلت.

ولو حاول أحد أن يحقق كل هذه الصفات في محبوبة ابن حزم، لوجد في ذلك صعوبة. . بل استحالة. وهكذا رآها أول مرة، وآخر مرة. . وهو يجد لها العذر. . فقد كانت تعيش في بيت

الوزير. . ثم مال عليه الزمن، فباع جواريه. . وتعذبت الجواري في كل بيت وكل شارع. . فمسح الزمان جمالهن وشبابهن. . وتعرّت هذه الجارية التي جنَّ بها ابن حزم، من كل جمال ودلال وصارت إلى هذه الهيئة الأليمة، التي أفزعته عليها. .

ولا يعتذر ابن حزم لأحد من الناس أو المؤرخين على هذا الذي كتبه عن الحب والمحبين والعشق والعشاق. ويرى أنه قال الحق. وهذا يكفي. وهذه هي أمانة الباحث وهو يطلب إلى الناس ألا يسيئوا الظن به. فيقولون «لقد خالف طريقته وتجافى عن وجهته» ـ أي أنه كان رجل دين، فإذا هو رجل دنيا. . وأنه كان وقوراً، فإذا به رجل هازل. . يقول تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إنَّ بعض الظنِّ إثم**﴾. ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**إياكم والظن، فإنه أكذب الكذب**». ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت**».

ويرى ابن حزم الذي يؤمن بالله واليوم الآخر، أنه قال خيراً!

لآخر دمعة في عينيه
وقطرة من دمها

من أشهر الصور الكاريكاتورية في نهاية القرن الماضي: عربة يجرها ثلاثة من الرجال وعلى العربة امرأة جميلة تكويهم بالسياط أما الثلاثة فهم: الفيلسوف نيتشه والعالم النفسي فرويد والشاعر ريلكه. أما السيدة فهي الأديبة الغازية الغاوية الطاغية سالومي.

وهي صورة لعجز ثلاثة من العباقرة على أن يفوز أحد بلقب أو جسد هذه الأديبة المتوسطة القيمة، البارعة الجمال الخارقة الذكاء. فلم تجد مفراً من أن تجعل منهم خيولاً أو حميراً يجرون عربتها وتلسعهم بالكرباج.فلم يفلح أحد أن يفوز بها..

أما نيتشة فيلسوف القوة، فيلسوف الرجل الذي يحتقر المرأة، وفيلسوف الشعب الآري الذي يحتقر اليهود وكل الساميين ـ وهي يهودية ـ فقد طاردها في أوروبا وطردته . .

وعالم النفس فرويد الذي يعرف كل خبايا النفس واليهودي مثلها، فلم يستطع أن يذهب إلى أبعد من أن يعلمها كيف تحلّل نفسها وغيرها . . ولما حللته هو صارحته بأنه يريد جسمها، وليس صحيحاً أنه يحبها. فطبقاً لتعاليمه النفسية. وهي ليست في حاجة إلى جنس فعندها زوجها وآخرون . .

أما الشاعر العظيم ريلكه فهو أحسن من يقرأ الشعر ويرويه ويذيب العيون والقلوب عند سماعه. وقد رأت فبه سالومي أحسن رجل تقابله قبل لقاء رجل آخر . . فهو يقوم بدور جهاز التكييف لغرف النوم، يجعلها أدفأ كأنها حضن لذيذ، وبعد ذلك عليه أن يبرح الغرفة لأنها على موعد مع عشيق تحبه . .

فكان هؤلاء الثلاثة فاشلون في الحب. ومن هذا الفشل تولدت أروع صرخاتهم في الفلسفة وعلم النفس والشعر. فالتاريخ لا يذكر لهم إلا هذه الفضيحة. وأعظم العشاق هم الذين أحبوا، وطردوا من فردوس السعادة. والحب الخالد هو الحب الفاشل. أما الذين أحبوا ونجحوا، فنحن لا نعرف عنهم شيئاً. فمن ينابيع الحرمان يولد الفن. والثمن: هو حياة الفنان وسعادته. والفنان مستعد أن يدفع ما هو أكثر من ذلك، إذا كان يساعده على أن يكون جميل

العبارة، حلو الأداء، وأن يموت بعد ذلك غريقاً في دموعه، حريقاً في زفراته.. فليس أقسى من الفشل في الحب، إلا النسيان.. أي إلا أن ينساه الناس ويموت، دون أن يدري به أحد!

ولن تجد في التاريخ نساء كثيرات تعذَّبن مثلما تعذبت «مي زيادة» التي أحبها الجميع، ولم تحب أحداً.. فالتفوا حولها حبلاً ذهبياً وشنقوها.. وعلقوها في السماء..

فالمرأة العاشقة أو المعشوقة في الآداب الغربية أحسن حالاً، لأنها أكثر حرية، وأقدر على أن تقول: نعم وتقول: لا.. أو تقول نعم ولا في وقت واحد..

فمثل سالومي كثيرات..

ربما كانت أول وآخر امرأة عرفناها في مصر هي كليوباترة (٦٩ - ٣٠ق.م) ملكة مصر. كان لا بد أن تتزوج رجلاً لتكون ملكة على مصر. فتزوجت أخاها بطليموس الثالث عشر. ولما مات تزوجت أخاها بطليموس الرابع عشر. وكان في الثانية عشرة من عمره.. وعرفت عدداً كبيراً من قادة الحرب. وتزوجت يوليوس قيصر وأنجبت منه ولداً. وانتقلت إلى الحياة معه في روما. ولم يكن لها وريث إلا إبنها المصري. ووضع لها يوليوس قيصر تمثالاً في معبد فينوس. وثار الشعب الروماني على الملكة الأجنبية التي أنجبت وريثاً أجنبياً، والتي فرض عليهم أن يعبدوها، فقتلوه. وهربت إلى مصر. وقبل أن تصل إلى مياه الإسكندرية قررت أن تغزو قلب

القائد الروماني انطونيو. . فصبغت بالألوان الذهبية والفضية سفينتها. . وارتدت ملابسها العارية وتمايلت الأمواج مع الطبول والدفوف والبخور. . ودون مقاومة استسلم القائد الروماني عشيقاً لملكة مصر. وأنجبت منه توأمين. وعاد انطونيو إلى روما وطلّق زوجته ثم ارتدَّ إلى كليوباترة. وأمام قائد آخر هربت كليوباترة وانتحر انطونيو بسيفه، وانتحرت كليوباترة بثعبانها في كامل أناقتها وفتنتها. . كأنما أرادت بعد أن تموت أن تغزو الموت أيضاً!.

ولم يعرف تاريخ مصر غير كليوباترة عاشقة للسلطة والشباب وعاشقة للأدباء والشعراء أيضاً. وكانت لها عبارة مشهورة تقول: كما أنه من الضروري أن يكون في غرفة نومك ورود وزهور، لتلقي بها في اليوم التالي في الزبالة، فكذلك لا بد من الشعراء والموسيقيين. . أما الأبطال فهم أطول عمراً!.

وعرفت فيينا، عاصمة الموسيقى والأدب والفن في القرن الماضي سيدة اسمها «ألما» شندلر. . كانت زوجة للموسيقار مالر. . ثم أحبت الرسام كوكشكا. . وعاشت معه ثم قابلت على رصيف محطة فيينا المهندس الكبير جروبيوس. . فخطفها وتزوَّجها بعيداً. . وكانت لهما إبنة، فلما بلغت الثامنة عشرة ماتت بشلل الأطفال فتبارى الرسَّامون والموسيقيون في تخليدها. . ثم أحبت الأديب فرانس فرفل الذي سجل مأساة ابنتها في رواية «أغنية برنادت» الذي ظهر على الشاشة وفاز بخمس جوائز أوسكار. .

وعـرفت «ألما» أكـثر الأدباء والشعـراء في عصرهـا. . وفي آخـر أيامها جلست تكتب مذكراتها. وعلى الرغم من أنها صاحبة أسلوب جميـل، فإن أحـداً لم يقبل عـلى قـراءتهـا. فقـد رأوا فيهـا «غـانيـة» رخيصـة. . عذبت عـدداً من العبـاقـرة لا لشيء: إلا لأنها دمـويـة المـزاج، وإلا لأنهم ارقّ حسـاً وأصـدق تعبيـراً عن مشـاعـرهم النبيلة. . فكانوا فراشات دارت وداخت حول نار محرقة!.

فكـان انصراف النـاس عن مذكـراتهـا عقـابـاً لهـا، وإن كـان متأخراً!.

الحب والعفاريت ـ يتكلم عنها الناس ولكن أحداً لم يرها.

هذه العبارة تصدق على عـدد كبير جـداً من الأدباء والشعـراء والموسيقيين وعلماء النفس. أي أكثر الناس كلاماً عن الحب، وإثارة للحب. ولكن ليس معقـولاً أن أحـداً منهم لم يعـرف الحب. من المؤكد أنه عرفه. ولكن كان هو يعانيه قليـلاً. . أي أنه لم ينجـح في الحب، وإنما كان عظيم الفشل، عميق الحـرمان. . فلم يعـرف إلا الجنس ومزيداً من الجنس. .

مثلاً: الأديب الدانمـركي هانس انـدرسن (١٨٠٥ ـ ١٨٧٥) صـاحب قصص الأطفال الجميلة المسؤولة عن إمتـاع وتربيـة مئات الملايين من الأطفال في العالم. لم يعرف الجنس ولا الحب في حياته. فهو يرى نفسه نصف مريض: لأن لديه رغبة، ولكن هذه الرغبة لم تحقق حتى الموت. .

وقد ظن الناس أنه عندما يختفي يوم الأحد من كل أسبوع، أنه يذهب لموعد غرامي. ولم نعرف إلا بعد موته أنه كان على موعد مع كتابة خطاب غرامي لفتاة. هذه الفتاة وعدت نفسها وتوعدت هذا الأديب، بأن رسائله إذا بلغت الألف فسوف تلقي بها في الزبالة. لماذا؟ تقول: إنه لم يذهب إلى ما بعد الخطابات بخطوة واحدة. هو عنده وقت للكتابة، ولا وقت ولا قدرة عنده على الحب. ولا قدرة لي على الصبر.. وعلى أن أعيش وأموت على الورق!.

فتزوجت ساعي البريد!.

أما ذلك العبقري الحيوان الفرنسي بلزاك (١٧٩٩ - ١٨٥٠) فهو أبو الرواية الفرنسية، فهو انسان في غاية الشراهة. فنفسه مفتوحة على كل طعام من كل لون: أشقر أبيض أسمر. قصير طويل.. فقير.. غني.. فالمرأة عنده: مائدة فخمة، شكلها يختلف بعد الأكل!.

وكان يكره الفتيات الصغيرات. يفضل الناضجات.

وبدأت علاقاته بالنساء مع سيدة أكبر منه بعشرين عاماً، هي التي فتحت له الباب على دنيا الجنس، وليس الحب. وعندما تقدم لإحدى جميلات باريس رفضته. فقد نظرت إلى شعره المنكوش وكرشه المنفوخ وقالت: لا..

وكانت مثل صفعة على قفاه وعلى وجهه وعلى أدبه وشهرته.

وغرق في الديون، فراح يبحث عن المطلقات والأرامل الغنيات. وعرف إيفلينا ووعدته بالزواج منها بعد وفاة زوجها. وكانت تصفه بقوله: إنه العسل والنار..

وسددت له ديونه. فأحب غيرها فتاة في الرابعة والعشرين من عمرها. وأنجبت له طفلاً.

ولما مات زوج إيفلينا رفضت الزواج منه!.

ولما مات انهار بين ذراعي إيفلينا. وخرج من الحياة بهذه الحكمة: من السهل أن تكون عاشقاً، من الصعب أن تكون زوجاً، لأنه من الصعب أن تروي النكت وتكون ضاحكاً مضحكاً ٢٤ ساعة من كل يوم!.

ولم يعرف التاريخ رجلاً تحدث بهذه الكثرة والعمق والجلال عن الجنس والحب مثل المستشرق الإنجليزي ريتشرد برتون (١٨٢١ - ١٨٩٠)، الذي ترجم «ألف ليلة وليلة». ولم يكن رجلاً سوياً، ولا محباً ولا عاشقاً، وإن كان محبوباً من كثيرات ومرفوضاً منهن بسرعة..

وقد عاش برتون في الشرق الأوسط وفي الشرق الأقصى وتعلّم عدداً كبيراً من اللغات من بينها العربية.. يقال عشرون لغة. وعرف ورأى وعايش النساء من كل لون وكل سن.. وكان يهرب من مجالس النساء إلى مجالس الرجال.. وكان حلو الحديث كثير

النكت والقصص الجنسية العارية. . ولا يطربه إلا الكلام الذي يصدم الأذواق الرقيقة. أحب فتاة هندية أحبت رجلاً آخر ثم نزوج. وتقول زوجته أنه لم يكن لها يوماً واحداً. ولم تجده وحده أبداً. . فهناك أكثر من واحد ومن واحدة في حياة «كاهن» الغرام والحب. ولكنه لم يذق طعم الحب!.

أبو الرواية الإنجليزية تشارلز دكنز (١٨١٢ - ١٨٧٠). ونحن لم نعرف أن هذا الأديب الجاد والمصلح الاجتماعي العظيم كان عاشقاً إلا من الخطابات التي تركها وراءه. وأهم سيدة في حياته هي أخت زوجته. ويحكي لنا كيف أنه عاد في إحدى الليالي ليسمع صرخات تمزق ظلام وسكون الليل. وأسرع إلى حيث غرفة «ماري» أخت زوجته. لقد أصابتها نوبة قلبية لتموت بين ذراعيه. . فينتقل خاتمها بين أصبعها إلى أصبعه، حتى الموت ولم ينس هذه الفتاة. .

ثم أحب ممثلة في سن ابنته. .

وقال أنه أحب الملكة فكتوريا. . فلما تزوجت قرر الانتحار. ولم يصدقه أحد. ولكن كان يؤكد هذا الحب، حتى اتهمه الناس بالجنون. .

أما حكمة حياته فهي: عن طريق الزواج سوف تعرف معنى المجتمع، ولكن ليس من أجل هذه المعلومات القليلة التافهة، تعاني كل هذا العذاب!.

وعبقري الرواية الروسي دستويفسكي (١٨٢١ ـ ١٨٨١) كان يحب من المرأة قدميها . . وهو دائم النظر في قدميّ المرأة. وكثيراً ما جاء في رواياته مثل هذه العبارة: وركع عند قدميها، وراح يقبّلها ويضع أصابعها واحدة واحدة بين شفتيه . . وسعيد بذلك . . ويقول أيضاً: سامحيني. أعطني قدمك الفاتنة أسكب عليها دموعي وأغسلها بعيني. . وأرتوي من أصابعك البللورية . . صدقيني، إن لم تكن هذه سعادتك، فهي أقصى درجات سعادتي . . لا تطرديني من جنتك فالجنة تحت قدميك . . بل الجنة قدماك!.

وحين بلغ الأربعين من عمره لم تكن له أية تجربة جنسية، ولا حتى عرف الحب؟ وسبب ذلك كما يقول: إنعدام الفرصة والثقة بالنفس . .

ثم تزوج الكاتبة على الآلة وكان يكبرها بخمسة وعشرين عاماً، وذلك بعد أن ماتت زوجته.

ولذلك لم يكن ألكسندر ديماس سوى «قوة جنسية»، وطاقة شهوانية . . وليس إلا حيواناً أديباً ـ ولكنه حيوان قبل أن يكون أديباً.

أما أمير الشعراء الألمان ونبي الرومانسية جيته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) فهو يرى أن الأدب يولد من التوتر . . يولد من الاحتكاك المستمر بين عجلات السيارة وفراملها . . هذه السخونة . . هذه

الشرارة هي التي يتفجر منها الشعر. ولـذلك يجب أن يكـون الفنان في هذه الحالة الساخنة، وإلا تجمد ومات.

أحب إبنة صاحب فندق. وكان يقـول: أتمنى أن أشرب السم من يدها!.

وقـال: نحن الذين نطرد أنفسنا من جنتنـا. هي جنتي وأنا لا ألقي بنفسي خارج أبواب بيتها الساحر!.

ثم أحب سيدة متزوجة وأماً لثمانية أطفـال وبعث لها بعشـرين ألف خطاب! ثم أحب عاملة في أحد المصانع وعاشت معـه وكانت تحب الموسيقى والرقص والشعر.

ثم تـزوج فتاة أنقـذته من المـوت أثنـاء الحملة الفـرنسيـة عـلى ألمانيا. وفتح الزواج شهيته على نسـاء أخريـات. . ويقال أنـه أحب زوجة إبنه.

وعندما بلغ الـرابعة والسبعـين من عمره تقـدم لسيدة تصغـره بعشرين عاماً، فرفضته. وقال ضاحكاً حزيناً صـريحاً: معـك حق. لقد نسيت أن أنظر إلى وجهي في المرآة!.

وهيجو (١٨٠٢ ـ ١٨٨٥) أمير النثر والشعر في فرنسا فقـد كان شهـوانياً، لا مثيـل له، بعـد أن تزوج وبعـد ثماني سنـوات قررت زوجته أن تستريح من هذه العلاقة بعد أن أجهضت عشرين مرة،

وأحبت الزوجة الناقد العظيم سانت بيف. وانتهى هذا الزواج بهرب الزوجة..

فأحب إحدى الممثلات وكانت عشيقة لأكثر الممثلين والنقّاد والمتفرجين أيضاً. ولكنها هي التي علّمته معنى أن يكون عاشقاً، وألا يكون محباً وهي تقول: إن المرأة لا تستحق أن يحبها الرجل.. ولا الرجل يستحق أن تموت من أجله امرأة..

وظلت هذه الشراهة الجنسية حتى موته في سن الثالثة والثمانين.

ويقال أن أحد أحفاده قد زاره وهو على فراش الموت. فلما دخل عليه الغرفة وجده يعانق خادمة أصغر منه بستين عاماً، فالتفت إليه هيجو قائلاً: هذا يا ولدي ما يسمونه بالعبقرية!.

أما تولستوي (١٨٢٨ - ١٩١٠) أديب روسيا العظيم فقد جلس يبكي على الأرض أمام سرير أول غانية عرفها. ولم ينس ذلك اليوم طوال حياته.

يقول تولستوي: يجب أن تكون على مقربة من النساء ترى وتسمع وتفكِّر وتتعلَّم، ولكن ابعد عنهن. ابعد عن هذا الشر قدر استطاعتك. خذها مني نصيحة مخلصة!.

أحب خادمة.. وخادمة.. وثالثة ورابعة أنجب منها ولداً.

وكان يقول أسعد الناس: رجل لا يحب الجنس وامرأة عفيفة لا تحب الجنس أيضاً.

وكان طاغية في أسرته مع زوجته وأولاده. .

قالت زوجته أنها لم تعرف معه نعمة الحب أو لذة الجنس. . فهو فلاّح غليظ جاف جلف ـ وإن كان رسول الحب بين الناس والسلام العالمي!.

ولم يعرف الأدب الأوروبي الحديث شاعراً في مثل رقة «ريلكه» ذلك الألماني الذي ولد في تشيكوسلوفاكيا(١٨٧٥ـ١٩٢٦). وأنا قد عايشت دواوينه وقصصه ذات الفصل الواحد، إنه مزيج من الصوفية والعشق. . وكنت استمع إلى شعره من أستاذين: عبد الرحمن بدوي وعبد الهادي أبو ريده يوم كنت طالباً. ولم أكن قادراً على قراءة شعره والاستمتاع به فلغته الألمانية صعبة. وصوره رمزية. . وتهاويمه الذهبية، غامضة. . ولكن له موسيقى، وليس من الضروري أن تفهم الموسيقى ولا اللوحات. . أنت تستسلم لها فقط. وتستريح، دون أن تعرف ما هذا الذي أراحك. . لأنك لا تعرف كيف تصف طعم التفاح ولا طعم الطماطم. . ولا تعرف معنى رائحة الوردة ولا خرير الماء ولا لون السماء عند الغروب والشروق. إنها جمال. . وهذا يكفي. .

وعندما سافرت إلى سويسرا أقمت في فندق صغير في لوزان.

وقد أقام الشاعر ريلكه في هذا الفندق في سنواته الأخيرة، ومات بالقرب منه. إنها صدفة. وصدفة أخرى هي التي عثرت بها على كتاب فوق سور الأزبكية عن «غراميات ريلكه» ووجدت في الكتاب صورة لفتاة مصرية جميلة جداً اسمها «نعمات علوى» أو نعمت علوي. وكتبت عن هذا الاكتشاف في مجلة «آخر ساعة» وتلقيت خطابات شتائم ومكالمات تليفونية تلعنني - لا بد أنهم أقارب هذه الجميلة المصرية التي كانت آخر حب للشاعر العظيم.

وصدفة أخرى أن يكون موت الشاعر بنفس الطريقة التي توفي بها الأديب «صلاح ذهني»، وكان صلاح ذهني صديقاً عزيزاً رقيقاً، وكان سكرتيراً لدار الأوبرا ومحرراً بآخر ساعة. وتشاء الصدفة أن يتقرر سفر صلاح ذهني إلى لندن مع صدور المقال. فطلبت تأجيله إلى ما بعد سفره. فقد دخلت شوكة وردة في إصبع الشاعر ريلكه، ليكتشف الأطباء أنه مصاب بالسرطان. شيء من ذلك اكتشفه الأطباء عند صلاح ذهني. وفي الليل وفي كازينو الجلاء - الذي أقيم مكانه فندق شيراتون القاهرة - قابلت صلاح ذهني، ليبدي إعجابه بالمقال الذي تأجل!!..

وليقول لي ما أوجعني؛ تصور أني سوف أموت تماماً كما مات الشاعر الألماني ولنفس السبب!.

يقول ريلكه: لا أجد لذة في الجنس وهي لا تجد لذة في

الحب. . فأنا تعيس إذا حاولت أحب، وهي تعيسة إذا حاولت أن تعشق!.

وقد أعجب بمدرسة تكبره بثلاثة عشر عاماً، وهربا معاً.

وعرف الفاتنة الفاتكة سالومي، وكانت متزوجة، وأنجبت له ولداً. .

أما حكمة حياته فهي: لا بد أن تحب وأن تكون عاشقاً، ومن الصعب أن تكون عاشقاً وأن تكون محباً أيضاً. أما حياتي فهي المستحيل الآخر: فهو ألا أحب واحدة وألا أعشقها.

شيء عجيب حقاً: إن دعاة الحب، لا يحبون. . الحب. . فإذا أحبوا فشلوا، وإذا فشلوا كتبوا. وإذا كتبوا أبدعوا.

إن للموسيقيين العباقرة قصة أخرى، إن لم تكن مطابقة تماماً، فهي مماثلة إلى آخر دمعة في عيني العاشق، وآخر قطرة من دم المحبوبة!.

زينب والاحتقار العظيم؟!

في أحد شوارع باريس وعند منتصف الليل، والهواء بارد والريح تكنس الناس وتلقي بهم فيتساندون على الجدران، شاهد المارة رجلاً يترنح يميناً وشمالاً.. ويرفع يديه ويتحدث إلى السماء، ثم يضع يده في جيبه فلا يجد ورقة ويبحث عن قلم فلا يعثر عليه.. فيقف عند أحد الأبواب ويكتب بإصبعه.. ثم يعود إلى الشارع.. ويلتقي بإحدى البغايا فتقول له:

— تعال نقضي ليلة جميلة.

— لا أريد.

— ألست وحدك.. تعال.

— وحدي. لكن لا أريد..

— إذن ما الذي ستعمله في هذا الليل وفي هذه الوحدة الشنيعة.

— إنني لست في وحدة.. إنني أعمل.. إنني لا أتسكع.

ولم يكن ذلك إلا الموسيقار الفرنسي بيزيه.. وكان من عادته أن يخرج في الليل يفكر.. فلم يكن يهبط عليه وحي النغم.. إلا وهو يمشي في الشوارع.. وكانت الفتاة التي يحبها تقول عنه: ذلك المجنون الرائع!

وكان الموسيقار الروسي برودين يضيق بالهدوء والصمت. . ويكره صوت الريح، ويفزع من الجليد. . وكان لا يؤلف موسيقاه إلا في محطات السكك الحديدية. . وكانت مواعيده الغرامية في القطارات. . وكانت نشوته عظيمة عندما يسمع القطار ينفخ وينفث ويهدر ويزمجر ثم ينطلق بعيداً. . وكان يحفظ جداول القطارات. . ويقول: لقد تأخر القطار دقيقة عن موعده.

وكان يسعده أن يأتي بالفتاة التي يحبها ويطلب إليها أن تقف في دخان القطار، ثم يراها بعد أن غطى الهباب وجهها!

ولم نعرف في تاريخ الموسيقى حباً كبيراً وإنما عشرات من قصص الحب للموسيقار الواحد. كأنه من الصعب أن يجمع الموسيقار بين الحب والموسيقى. . فإما متعة الحب، وإما روعة الموسيقى. . فكأنه مكتوب على جبين كل موسيقار عظيم أن يكون معذباً. . وأن يتعذب هو، وأن تتعذب كل من تعرفه. فليس بين كبار الموسيقيين واحد لا تقع في غرامه عشرات الفتيات. . أو يقع

هو في غرام مئات الفتيات. ولكن العبقرية الموسيقية تطرد الفتيات.. وتقصف عمر الحب.

وكل قصص كبار الموسيقيين هي كوارث عاطفية.

وأكثر العظماء تعاسة هم عبقري الموسيقى بيتهوفن (١٧٧٠ - ١٨٢٧).

فهذا العظيم عرف عشرات الفتيات والسيدات، العاملات والنبيلات. ولكنه لم يحب واحدة.. فهو يمشي وراء الفتيات الجميلات. والفتيات ينظرن إلى رأسه وشعره المهيب ثم لا يذهبن إلى أبعد من ذلك.. ففي عينيه الحادقتين شيء يخيف.

أحب اليانورة (١٢ سنة) وكانت تقرأ له شعراً وتغنيه أيضاً. وكان في الرابعة عشرة من عمره. وكتب في مذكراته: لو انتظرتني مائة عام فسوف أتزوجها!

وتقدم لفتاة اسمها ماجدولينا وتوسل إليها أن تتزوجه فرفضته قائلة: ذلك القبيح المجنون؟ مستحيل!

وجوليتيا التي أهداها عمله الجميل «سوناتا ضوء القمر»، ولكنها وصفته بقولها: ليس قبل أن يستحم ألف مرة أستطيع أن أقبله!!

وأحب سيدة اسمها مدام بيجوت. وكانت جميلة فاتنة. فبعث إلى زوجها يقول: لو قبلتها في اليوم الواحد ألف مرة وعانقتها ألف

ألف، فلا لوم عليك. . فمثل هـذا الجمال خلقـه الله لتموت فيـه ومن أجله!

وفي سنة ١٨٠٥ توقف الموسيقار العظيم عند قرية في ضواحي فيينـا. وفي هذه القـرية وجـد ليزا. . كـان يرى فيهـا جمال الكـون كله. . في عينيها في شفتيها في نهديها. . فإذا رآها ظل واقفاً جامـداً ينظر إليها ساعة. . وساعتين. . أما ليزا فتقول: جاء مجنون فيينا!

وقـد حاول أصـدقـاؤه أن يفتحـوا عينيـه ليـرى ليـزا أوضـح. ولكنهم لم يستطيعوا فهي فلاحة تقف على كوم الزبالـة وتسويـه مرة بالفأس ومرة بالمقشة. . ولكنه لم يكن يرى ذلك. وفي يـوم علم أن أبـاها كـان مخموراً فحـطم الآنيـة في أحـد الكبـاريهـات. فـأدخلوه السجن، فـارتدى أحسن مـلابسـه وذهب إلى المحكمـة وطلب من القاضي أن يفرج عن هذا الرجل المسكين. فما كان من القاضي إلا أن طرده، لأن في هذا الطلب اعتداء على القانون.

وخـرج بيتهوفن غـاضباً، ولم يعـد يرى ليـزا تلك التي وصفها بقـولـه: «ذات البهـاء والفتنـة الخـالـدة وهي تتمشى فـوق سقف الدنيا؟!» وكان ذلك رأيه حتى مات.

أما الموسيقار هكتور بـرليوز (١٨٠٣ ـ ١٨٦٩) فقـد أحب فتاة اسمهـا أستيلا (١٩ عـاماً) وكـانت تكبره بست سنـوات. . وظلت أستيلا هذه حبه الوحيد. . وكان يضايق النساء بـأن يطلق عـلى كل واحـدة اسم أستيلا الأولى والثـانية والعـاشرة. . وتـزوجت أستيـلا

واختفت. وظل الموسيقار يبحث عنها طول حياته وكتب برليوز في مذكراته: عيناها الواسعتان الساحرتان.. شعرها الذهبي تساقط من خيوط الشمس.. شفتاها ترتويان من النبيذ والسعادة الأبدية.. قدماها الصغيرتان في حذائها الأحمر الوردي.. وحياتي تراب مبعثر أمامها في انتظار دائم لعودتها وبقائها إلى الأبد هناك بعيداً أراها.. وأملأ عيني من جمالها وأدخرها في خيالي وفي أحلامي.

وعرف أنها في إحدى المدن الفرنسية، ذهب إليها، كانت في السبعين من عمرها. زوجة سعيدة وأم لأربعة من الأولاد وعشرة من الأحفاد. صارحها الموسيقار بحبه القديم لها. أدهشها ذلك. فلم تكن تعرف أنه قد أحبها.. واعترفت له أنها لم تلبس في حياتها حذاء أحمر!

وانحنى الموسيقار أمامها واستأذنها في أن يقبِّل يديها وخرج ووقف أمام الباب يبكي!

أما الموسيقار يوهانس برامز (١٨٣٣ ـ ١٨٩٥) فقد كان موهبة فريدة في العزف على البيانو. رآه وسمعه الموسيقار روبرت شومان (١٨١٠ ـ ١٨٥٦) فيصفق له واقفاً، وطلب إلى زوجته كلارا أن ترى العجب. وقال: هكذا يكون العزف السماوي على البيانو.. انظري وانتظري هذا الشاب!

وعاش برامز في بيت الموسيقار شومان واحداً من هذه الأسرة

الفنية. ودخل شومان مستشفى الأمراض العقلية. وظل برامز إلى جوار زوجة الموسيقار.. وكانت تعطف عليه وتشجعه فأحبها وراح يتابعها في كل مكان. ولم يقترب منها. احتراماً للموسيقار شومان.. وبعد وفاته لم يفكر في الزواج منها. واستغرق هذا الحب النبيل الشريف الأليم أربعين عاماً. وكان ذلك هو حبه الوحيد.

وفي أحد الأيام قال للسيدة كلارا شومان: الآن يجب أن ننفصل.. لك طريق ولي طريق.. وسوف أعود إلى الشارع الذي جئت منه وإلى الغانيات.. فمع الغانيات وجدت حريتي وراحتي.. ومعهن لا يوجد شيء اسمه العيب أو الحرام.. أو الخوف.. سوف أعود إلى الفن الذي حرمت منه، وسوف تكون ذكراك هي النور الوحيد وسط هذا الظلام.. اعذريني لا أستطيع أن أكون معجباً بزوجك المريض، وخائناً في نفس الوقت!

وفي ليلة من ليالي الربيع، والزهور في كل شجرة، في كل طريق في كل نافذة، جمع الموسيقار باقة كبيرة ودق أحد الأبواب. وخرجت إحدى البغايا. ولم تكد تراه حتى قالت: أنت؟ تعالى.. ادخل.. أيها المفلِّس المجنون!

ولم نعرف في تاريخ الموسيقى فناناً عظيماً كره المرأة واحتقرها واحتقر نفسه في أحضانها مثل الموسيقار شوبان (١٨١٠ ـ ١٨٤٩). كان يرى كل امرأة كأنها أمه أو أخته.. ولذلك فالاقتراب منها

حرام. . ولأنه حرام فهو لا يشعر بأية رغبة. ولا يقرب المرأة إلا مكرهاً مرغماً.

وقد أضاف الخوف من المرأة إلى كراهيتها واحتقارها، عندما أصيب بالزهري.

ولكن الأديبة الفرنسية جورج صاند قد طاردته وقطعت عليه الطرق وعلَّمته الأفيون. . وكان يندهش كيف أن هذه امرأة. يقول: أشك في أنها امرأة. بل هي أكثر رجولة مني!

وقد دامت العلاقة بينهما تسع سنوات هي تطارده وهو يزداد احتقاراً لها ولكل بنات جنسها. .

وكانت إبنة جورج صاند تصفه بقولها: شوبان الذي لا جنس له ولا جنس معه! وكان وسيم الوجه، شاحباً رقيقاً، وكانت النساء يعشقنه لهذه الرقة والنعومة.

ولعظمته الموسيقية. . ولكن عندما أصيب بالسل وراح ينزف دماً، ابتعدت عنه النساء تماماً. يقول في مذكراته: أنا ابتعدت عن المرأة، وأنا في كامل قوتي ولكن كان لا بد أن أصاب بالسل، لتهرب المرأة مني. . فأنا الآن في وحدة تامة. . وهذا هو الوضع المثالي لكل فنان يريد أن يبدع! وليس صحيحاً أن المرأة هي مصدر الوحي، وإنما احتقارها هو مصدر الإلهام. . فاحتقرها تعش عظيماً!

وبعد وفاته اكتشفوا بأنه يحتفظ بين أوراقه بحذاء صغير. . إنه

حذاء أول فتاة أحبها، وكانت في الثانية عشرة.. وقد تركت له هذا الحذاء واختفت مع رجل آخر.. وكان يخرج الحذاء من أوراقه ويصب فيه الشمبانيا ويشرب ويرفعه إلى أعلى من رأسه قائلاً: في صحتك يا أجمل الناس وأكثرهن كذباً وخداعاً.. أنتنَّ جميعاً كذلك!

أما عبقري العباقرة موتسارت (١٧٥٦ - ١٧٩١) وأعظم مؤلفي الموسيقى وأرقّهم وأكثرهم «حرفنة»، فقد وجد نفسه محاطاً بالنساء منذ طفولته، وكلهن يداعبنه ويقبلنه ويعانقنه.. وكان موتسارت يحب ذلك. وكل فتاة قابلها وعدها بالزواج عندما يكبر.. لقد وعد مائة فتاة.

أول فتاة كان اسمها ألويسا وكان في العشرين من عمره، اتفق معها على الزواج وكانت أمها هي التي استدرجته إلى هذه النهاية. ولما علم أبوه، استدعاه فوراً. وأمره بالإقلاع عن هذا العبث. فالزواج للإنسان العادي، أما العباقرة فهم مثل آلهة الإغريق لا يتزوجون!

وأحب أختها كونستانسة عندما قررت ألويسا أن تتزوج مدرِّساً مغموراً.. وحاصرته أمها مرة أخرى.. تقول الأم: الناس يتهامسون. فأنت تدخل وتخرج. وتجيء في ساعات متأخرة.

لا بد من الزواج!

وتـزوجهـا . . هـو في السـادسـة والعشـرين وهي في التـاسعـة عشرة. وأنجبت له ستة أولاد، عاش اثنان.

وكانت حياتهما سعيدة.

وكان الذي يعذبها ليـلاً ونهاراً، أنه يـطلب إليها أن تجلس إلى جـواره وتقـول أي شيء . . أية قصـة . . وهـو غـارق في التـأليف، وكانت تروي القصة الواحدة عشر مرات. فإذا غيَّرت فيهـا، ينبهها إلى ذلك . . وكان عليها أن تقول وتقول مهما كانت متعبة.

وفي يوم زارهما أحد ناشـري الموسيقى فـوجدهمـا يرقصـان بعد منتصف الليـل. وأدهشه ذلـك. ولكن عندمـا عرف السبب زادت دهشته. فقد كانا يرقصان طلباً للدفء فلم يكن لدى الموسيقار مال يشتري به خشباً يضعه في المدفأة!

وكان هذا المـوسيقار العـظيم يستخدم الألفـاظ النابيـة جداً في رسائله لأصدقائه ولزوجته أيضاً. وكان لـه مزاج شـاذ في وصف ما يفعله بـالضبط وبـالتفصيـل في دورة الميـاه، كيف يجلس ومـاذا يحـدث . . ويصف الأصوات التي تخـرج منه . . ثم يقـارن بـين مـا حـدث في دورة المياه في الأيـام المـاضيـة . . وأحيـانـاً في الشهـور والسنـوات السابقـة . . وكيف أنه يتمنى أن يفعـل ذلك عـلى وجـوه النبلاء والأمراء . . ويصف ذلك بالتفصيل ثم يضحك للصورة التي يتخيلها! .

أما الموسيقار فاجنر (١٨١٣ - ١٨٨٣) فقد أحب المرأة وهو ما يزال طفلاً. وكان يتظاهر بالنوم لكي تحمله الخادمة إلى فراشه. وينتهز الفرصة ليلمسها.

وقد امتلأت حياته بالنساء. ولكن رجلاً واحداً أحبه ووقع مغرماً به: إنه الأمبراطور لودفيك الثاني ملك بافاريا!

ولكن رجال الحاشية والأسرة المالكة أبعدوا هذا العبقري الشاذ عن الملك بعد أن استولى على كل قرار يتخذه.

وفي الخمسين من عمره تزوج كوزيما إبنة الموسيقار فرانتس ليست، وكانت قبل ذلك زوجة لأحد أصدقائه.

يقول فاجنر: إن المرأة وحدها أقدر على فهم الرجل، وأكثر رعاية لموهبته الفنية وأكثر احتمالاً لشطحاته. وهي بذلك تتسم بالصبر الضروري للإبداع الفني.

وقد عاش الموسيقار فاجنر ينادي بضرورة أن يكون الفنان في حالة حب دائم وإخلاص ملتهب - هو يخلص لها وهي تخلص أيضاً. وبغير هذه العاطفة الملتهبة فإن الموهبة الفنية تموت.

يقول في مذكراته: إن الحب الهادىء، يجعل منك زوجاً، ولكنه لا يساعدك على أن تكون عبقرياً مجنوناً. . وكل امرأة تحاول أن تحطِّم أظافر وأنياب الفنان هي تريده أن يكون مخالفاً لطبيعته الوحشية. . فإذا كان الفنان مجنوناً، فيجب أن تكون محبوبته

كذلك. . وهذا سر عذاب كـل الفنانـين، لأن كل امـرأة تصادفهم تحاول أن تجعل منهم أناساً عاديين. . وهذا هو طغيان المرأة التافهة، ولذلك كان فرار الفنان أمراً محتوماً.

ويقـول: يخطىء من يـظن أن الفنـان فـوضـوي. إنـه يخضـع لقواعد العبقـرية وهي صـارمة دقيقـة عنيفة. ولكنـه البركـان الذي تخرج منه السيول الملتهبة. . فهو يغلي ويتفجر في أعماقه. ونحن لا نلوم البراكين لأنها لا تهـدأ، ولا نعيب الريـاح لأنها لا تسكن، ولا نحتقر المطر لأنه هابط دائماً، ولا نصفّق للبخار لأنه صاعـد دائماً. . فهذه طبيعة الأشياء، وأمامها يجب أن ننحني في احترام عظيم!!

•

«آه يا زينب!».

جاءت هذه العبارة في خطاب بعث به الموسيقار الإيطالي فردي (١٨١٣ ـ ١٩٠١). أمـا زينب هذه فقـد رآها المـوسيقار في إحـدى الحفـلات التي أقامهـا الخديـوي اسماعيـل. ويقـال أنها إبنـة أحـد الباشوات. ويقـال زوجته. ويقـال عشيقة تـركية، تتكلم الإيـطالية والألمانية والفرنسية والقليل من اللغة العربية.

استمع الموسيقار فردي إلى صوتها وهي تغني أحـد ألحانـه. ثم اقترحت عليه تعديلاً في الأداء. ورأى أن هذا التعديل أجمل، وظل الموسيقار يرجوها أن تغني وأن تعيد وتـزيد، ولما أحسَّت زينب هذه أن الموسيقار مفتـون بها جعلت تغني ألحـاناً أوبـرالية لغيـره من كبار المؤلفين، وقد ضايقه ذلـك. فأصـرَّت. وأسرف فـردي في الشراب

وتوسل إليها أن ترافقه إلى بيته. ولكنها رفضت. وطلبت أن يشهر إسلامه. فقال لها ولكني لا أريد أن أتزوجك.

فقالت: وإنما أردت أن أرفضك بعد أن تسلم أيضاً.

قال: لا أفهم.

قالت: إنني أرفضك بكل دين!

قال: لماذا؟

قالت: إذا كنت موسيقاراً عظيماً، فلست محباً عظيماً، فالذي تريده مني في استطاعتك أن تجده على الرصيف. ولكن الذي أريده من أي رجل، هو شيء نادر، إن الله قد عذّبنا بالرجال..

ــ ولكنه عذّبك وحدك.. فأنت لا تريدين رجلاً أنت تريدين نصف إله.

ــ الرجل الذي أحبه سوف أجعل منه نصف إله، ليجعل مني إلهة كاملة!

ــ إنك تذكرينني بفتاة كنت أعرفها في شبابي..

ــ إنني لا أشعر باحترام للرجل الذي يراني ولا يراني.. يراني فيتذكر امرأة أخرى.. إنني أحب الرجل الذي يرى كل النساء في امرأة واحدة هي أنا.. أحترم الرجل الذي يراني نهاية كل شيء.. ولست أنت ذلك الرجل!

ــ هل تعلمين أنك لست جميلة.

ــ هل تعلم أنك لست ذكياً.

ــ أعلم.

ـ وأنا أعلم أنني جميلة.

ـ هل تعلم أنني صبورة.

ـ لا أعرف.

ـ يجب أن تعرف أن المرأة التي تحتمل حواراً سخيفاً كهذا، لا بد أن يكون نصف فضائلها: الصبر على المكاره!

وحتى موت الموسيقار الإيطالي جيسبي فردي، لم ينس «زينب» هذه.. لم ينس المرأة التي رفضته وهو في قمة العظمة.. ولم ينس اللحظة التي أوشك أن يعترف لها بالحب.. لولا أن هذا الحب جاء في زفة من الإهانات الأليمة.. أما عباقرة الرسم والنحت، فلهم مزاج من نوع آخر!

آه.. لو كانت تحتقره قليلاً؟!

بعد أن عقد زواجه عليها قال لها: هذه حكمة حياتي كلها: لا تجعليني أتذكر لحظة واحدة أننا متزوجان!

ولم تفهم العروس الصغيرة ما الذي كان يقصده الفنان العظيم بيكاسو. وكل ما تعرفه هو أنها جميلة جداً وأنه يحبها. وأنه فضَّلها على ألف فتاة في باريس وأنها سوف تكون ملهمته وأنها سوف تكون خالدة في لوحاته وبفرشاته.

ولكنها لم تبق طويلاً في بيته. فقد طلَّقها ليتزوَّج غيرها. وفي أذني غيرها قال نفس هذه العبارة المشهورة!

وليس بيكاسو (١٨٨١ ـ ١٩٧٣) وحده الذي يحب المرأة العاشقة، لا المرأة الزوجة وإنما كل الفنانين.. فحماس الفنان للمرأة هو حماس لاكتشاف معنى جديد، أو بشكل جديد. لا أكثر ولا أقل. فهم جميعاً مثل الفنان القديم بجماليون.. وبجماليون هو ذلك الفنان الإغريقي الذي صنع تمثالاً لامرأة جميلة من الرخام الأبيض الجميل.. وأحبه وجعله ينام إلى جواره في فراشه تحت غطاء واحد. وراح يبكي يطلب من الآلهة أن تهب الحياة لهذا التمثال الجميل. وكان الآلهة يمرُّون بالفنان ويرثون لحاله. فإذا وجدوه عارياً غطُّوه بريش الطيور، وإذا وجدوه جائعاً وضعوا الطعام في فمه. وإذا وجدوه عطشاناً صبُّوا رحيق السحر بين شفتيه.. وأخيراً عطفت عليه آلهة الإغريق فجعلوا التمثال كائناً حياً.. فعندما قبَّله بجماليون، قبَّله التمثال أيضاً.. وطلب من الآلهة أن يساعدوه على الزواج من هذا المخلوق ـ المخلوق الذي صنعه هو ـ وفي زفة سماوية تزوج الفنان هذه العروس الجميلة. ولكن التمثال أو المرأة التمثال لا تعرف إلا القبلات وإلا الحب..

ولكنها لا تعرف كيف تتكلم. . وراح يعلِّمها الكلام. . ولا تعرف كيف تعبِّر فعلَّمها أن تعبِّر. . ولا تعرف كيف تلد وتربِّي الأطفال ولا تعرف كيف تطهو. .

فلما عرفت كل ذلك أحس الفنان أنها مثل أمه وأخته، فهرب منها!

وليس بين الفنانين جميعاً رجل أحب كثيراً وأبدع كثيراً مثل عبقري القرن العشرين بابلو بيكاسو الذي ولد في ملقة بأسبانيا سنة ١٨٨١. وهو يشبه أمه: قصير القامة عريض الكتفين له عينان سوداوان لامعتان. في غاية القوة والحيوية. . أو هو الشهية المفتوحة على كل جميل، بغير حدود. عندما سافر إلى باريس سنة ١٩٠٠ ضاع. . تاه. . داخ. . ولكنه وجد نفسه تماماً. فهذا هو المكان المناسب لروحه المتشردة!

والتقى بأول فتاة في حياته. الفتاة اسمها فرناند. قابلها في البيت الصغير الذي يسكنه. طويلة أنيقة رشيقة. أما هو فكان يرتدي بنطلوناً واسعاً وقميصاً أصفر وأحمر وأخضر. . ويلف حول عنقه منديلاً أزرق. وكان يباهي بأن هذه الألوان من تصميمه هو. . وحول خصره يلف حزاماً عريضاً، كأنه نجار أو سمكري. .

وكانت فرناند «موديلاً» لكثير من الفنانين. . أي تجلس عارية أو نصف عارية لكي يرسموها ولذلك ظهرت في لوحات كثيرة قبل

أن تظهر في لوحات وحياة بيكاسو. وبيكاسو رجل شرقي جداً، فلما توثقت علاقته بها، طلب إليها ألا تكون موديلاً لغيره. . وألا تبرح الغرفة أيضاً. فهي «حريم» لهذا «السلطان».

وفي يوم ضبطها تنظِّف الغرفة التي ينام فيها فصرخ مستنكراً. أما الغرفة ففيها بقايا كل شيء من الطعام والشراب والألوان والملابس والأدوات الخشبية والمعدنية. . وكانت متعة بيكاسو أن يكوِّم كل هذه المخلفات بقدميه ويقف يتأمل هذا الخليط الهائل من الألوان والروائح. . ويقول: آه لو أعرف كيف أرسم الروائح. .

آه لو أعرف كيف أرسم الأصوات؟!

وكثيراً ما رسم لوحات للزهور بدون لون أبيض، فلم يكن قادراً على شرائه! وكان هو الذي يصمم ملابس فرناند، ويسوي شعرها. . ثم يوقع بإمضائه على طرف الفستان. .

وبدأ أول تجاربه في الرسم التكعيبي عندما رسم لوحة على ظهر فرناند!

وظهرت فتاة أخرى اسمها مارسيل، هي صديقة فرناند وانتقمت فرناند منه فهربت مع رسام آخر. وكانت فرصة لتصبح مارسيل هي العشيقة المفضلة. واتفقا على الحياة معاً. وعاشا معاً. وعادت فرناند، وكانت عودتها متأخرة جداً. . وظلت تحبه إلى أن ماتت سنة ١٩٦٦. ولما ماتت وجدوا في ملابسها مرآة على شكل قلب كان هدية من بيكاسو.

ومارسيل هذه هي أول امرأة أحبها، وأطلق عليها اسم «حواء» وهي صاحبة كل اللوحات التي جعل أسماءها: إلى حواء.. وداعاً حواء.. سلامة حواء.. لعنة حواء..

وماتت سنة ١٩١٦ ومات أبوه أيضاً. وأصدقاؤه تطوعوا في الحرب العالمية الأولى. وظل قابعاً في غرفته، يحب ويرسم ويلعن الحرب.

وانتقل إلى إبداع لوحات على مسارح الباليه. وعرف الراقصة الروسية أولجا.. وأخذها إلى والدته في أسبانيا. وتزوجها هناك. وصارحتها الأم: أنت جميلة يا ابنتي.. ولكن ابني فوضوي.. لا أضمن لك السعادة معه. حاولي أن تهربي.. فهو فنان مجنون لو استطاع أن يملأ فرشاته من دمك لفعل.. فاللوحة عنده أهم منك.. وأهم من كل الناس!

وتفجَّرت الألوان من أصابعه، وامتلأت اللوحات بصور الباليه وموسيقى الباليه.. وملأت «أولجا» دنياه كلها..

وكان يطلب إليها ألا ترتدي ملابسها إذا نامت إلى جواره صيفاً وشتاء.. لماذا؟ كان يقول لها: أريد أن أرسمك في أية لحظة من الليل والنهار.. ولذلك يجب أن تكوني جاهزة!

وأنجبت له أول أولاده باولو سنة ١٩٢١..

وفي سنة ١٩٢٢ طفت على فرشاته الأشكال السريالية فبدأ

يرسم الأجسام المشوهة، والإنسان له رأسان، وله سيقان مكسورة والعين الواحدة والأذن الواحدة والأنفان والثلاثة.

وبدأ الخلاف شديداً بينهما، هي تحب الحياة الأرستقراطية.. فقد ملّت الرقص، والحركة العنيفة على المسرح، وضاقت بالتنقل من مكان إلى مكان، وأرادت الاستقرار التام، وهو يضيق بالاستقرار وبالارستقراطية، ويكره بأن يشعر لحظة بأنه زوج وأنه أب..

وفي سنة ١٩٣١ صادف فتاة في السابعة عشرة طويلة شقراء سويسرية اسمها ماري تريز رياضية. هي الكمال في الخطوط والألوان والصحة والعافية. هي تمثال لا يهم أن يتكلم ولا أن يتألم. مرحة تافهة على استعداد لأن تكون أماً ألف مرة.. أحبها. عاشت وظهر المرح في حياته ولوحاته. لم يشأ أن يقدمها لأصدقائه. فكانت كنزه الدفين.

وطلّق أولجا في سنة ١٩٣٥ بعد أن عاشت معه ١٧ عاماً. وليس أسهل من قطع العلاقة بعد الزواج الطويل. فيكون الخلاف قد تأكد. والاحتمال قد ضعف. والحياة هانت. ويكون الفنان الذي تقدمت به السن أقل استعداداً للتضحية بأي شيء وبأية لحظة، لأن الوقت الباقي له في الحياة قليل، وهو لا يريد أن يفسده أو يضحي به، مهما كانت الأسباب. ولا شيء يجعل امرأة تهرب، إلا امرأة أخرى أصغر منها وأجمل.

والذي لم يكن يجده في السويسرية وجده في امرأة صحفية اسمها دورا. . جاءت لتكتب مقالاً عنه وتخرج وفي يدها بعض لوحاته. فدخلت ولم تخرج. فقد أبقاها الفنان واستولت عليه تماماً. . فعندها قصص وحكايات كأنها شهرزاد وهو شهريار يسمع وينام ويرسم. . فهي على عكس العشيقة السويسرية التي لا تتكلم، وإنما تجلس جميلة وتنتظر.

ولكن دورا هذه قد هزت حياته، وأشعلت الغليان في ألوانه ومعانيه. .

وفي ذلك الوقت وقع حادثان هامان جداً. الحادث الأول: الحرب الأهلية في أسبانيا سنة ١٩٣٦ والحادث الثاني: نجاح الفاشية والنازية وطغيان الفرد الذي أدى إلى اشتعال الحرب العالمية الثانية. . ثم وقوف هتلر وموسوليني إلى جوار فرانكو في أسبانيا.

وفي ذلك الوقت هاجمت قوات فرانكو مدينة «جورنيكا» الصغيرة. . فما كان من بيكاسو إلا أن سجل الأحداث في لوحة أطلق عليها اسم «جورنيكا» ـ هي أكبر لوحة رسمها فنان في التاريخ. هذه اللوحة انتقلت من أوروبا إلى أمريكا ومن أمريكا عادت إلى أوروبا إلى أسبانيا لتستقر في أعظم متاحفها، كأعظم عمل فاز به فنان أحب السلام واستنكر الحرب. فالفنان حيوان سياسي أيضاً، له أعداء يجب أن يحاربهم بالفرشاة والإزميل حتى الموت!

وفي سنة ١٩٤٣ التقى بالرسامة فرانسواز جيلو وكانت في

العشرين من عمرها. جميلة طائشة وعاشت معه. وطلب بيكاسو من عشيقته الصحفية أن تعلن لعشيقته الجديدة أن العلاقة بينهما قد انتهت. وأنجبت له فرانسواز إبنه كلود سنة ١٩٤٧ وابنته بالوما سنة ١٩٤٩. وكان في ذلك الوقت يرسم مائة لوحة في اليوم. وأصبح بيكاسو مليونيراً.

وفجأة ظهرت زوجته أولجا الروسية وراحت تطارده في كل مكان.. في الحفلات العامة وعلى الشواطىء.. وتنتهز كل مناسبة لتخلع ملابسها.. وتكشف للناس عن لوحات رسمها على ظهرها وعلى ساقيها، ولم تشأ هي أن تمسح هذه اللوحات وتقول: إن لوحاته الأعمق كانت في قلبها وفي ذكرياتها!

وكانت تقول: إنك ما تزال زوجي أمام القانون الأسباني!

وفي سنة ١٩٥٣ هربت منه فرنسواز لتكون لها حياة خاصة مع إبنها وابنتها..

وظهر بيكاسو في ميادين مصارعة الثيران مع فتاة سمراء اللون هي جاكلين.. سيدة مطلّقة ولها ابنة عمرها ست سنوات.

وكانت جاكلين هذه هي التي تدير بيته وعلاقته المالية وتنظّم له الحفلات والمعارض والمقابلات وترد على خطاباته وفي عيد ميلاده الرابع والسبعين وقف على إحدى المناضد وراح يراقص جاكلين وأعلن زواجه منها.. وكانت هي آخر علاقاته العاطفية!

يقول بيكاسو: كان صراعي كله من أجل ألا يموت الفن!

يقول: الفن ليس هو الحقيقة. الفن هو الكـذب الذي يجعلنا نفهم الحقيقة!

ويقول: الفن الجيد مثل الطعام الجيد، تتذوقه ولا تستطيع أن تشرحه!

ثم يقـول: عندمـا لا تجـد نفسـك قـادراً عـلى الـرسـم، ارسم أيضاً!

أما الرسام الفرنسي جوجان فهو يقول: الفن هو المرأة العارية. أما المرأة التي ترتدي ملابسها فهي لـوحة أخـرى من صنع التـرزي وليس لديها إحساس بالجمال!

ولـذلك هـرب جوجـان (١٨٤٥ ـ ١٩٠٣) إلى جزر تهـايتي في المحيط الهـادىء حيث الفتيات «في لـون الحمم البـركـانيـة، وحيث الـدماء تغـلي بالجنس، وحيث المـرأة ترضى من الـرجل بـأن يلمس شعرها ويعترف بأبوّته لأولادها» ـ هكذا يقول جوجـان.

ولذلك فالفنان الحقيقي هو العاشق فقط..

فالفنان يعشق ولكنـه لا يتزوج. والمـرأة في جزر تهـايتي تعشق فقط.

وفي أوروبا يجيء الحب قبل الجنس، وفي آسيا يجيء الحب بعد الجنس!

وكان جوجـان قد أحب مـدرسة تـركية وأنجب منهـا خمسة من الأولاد. ولم يفلح في إقناعها بـأن تهرب معـه من أوروبا إلى آسيـا. وكانت عندهـا حجة مقنعـة: إنني مثل أوروبـا التي تريـد أن تهرب منها.. ولذلك فأنا أفضل أن أكـون أماً لأولادك عـلى أن أكون أمـاً لأولاد عشيقاتك!

وفي الجزيرة أحب فتاة عمرها ستة عشر عـاماً. وعـاشت معه. ولكنها هربت مع رجل آخر. وتزوجته وظهرت عليه أعراض مرض الـزهري. وامتـلأ جسمه بـالبثور. وهـربت الفتيات منـه. وأنجب ولداً حاول أن يكون رسامـاً، ولم يفلح حتى مات سنـة ١٩٨٠. ولم تظهر عبقرية جوجان إلا قبيل وفاتـه عندمـا ترك في الجـزيرة مئـات اللوحات في كل مكـان.. وقد نقشت لـوحاتـه على الشجـر، وعلى الأكواخ.. وعلى سفوح الجبال.. ثم أقام معرضاً فنياً هو الأول من نوعه في التاريخ. فقد أتى بعشرين فتاة ورسم لوحاته عـلى ظهورهن وبـطونهن.. وجعل الفتيـات يتقلبن يميناً وشمـالاً أمـام الضيـوف. ولكن هذا المعرض الحي قد ذاب في المحيط عندما شعرت الفتيـات بأن الألوان تلسعهن وتجعلهن يهرشن.. فخافت الفتيـات أن تكون هذه هي أعراض المرض الذي يشكو منه جوجان!

يقول جوجـان: إذا كان الحب لعنـة تصيب القلب، فإن الفن لعنة تصيب القلب والعقل معاً.

ويقـول أيضاً: العـاشق فنان ملعـون. والفنان عـاشق مجنون.

وأنها اللعنة والحب والجنون! .

وإذا كان الفنان يحب التغيير، تغيير المناظر والألوان والأضواء والأشخاص، فإن فناناً واحداً تمنى من الله صديقة واحدة. . زوجة واحدة. واحدة وبعدها يموت. فقد تعب من الدوران في الشوارع والدق على الأبواب، والأبواب التي تصده إذا عرفته إحدى الفتيات البغايا. . ذلك الفنان هو الهولندي فان جوخ (١٨٥٣ - ١٨٩٠). لم يعرف إلا بنات الليل. ولم يجلس إلا على الأرصفة ولم يذق طعم الحلال. . وتنقَّل بين البلاد وبين المهن وبين القلوب والعقول. وحار قلبه وخارت قواه. ولم يصدق المرأة، ولم تصدقه المرأة. ولكنه لم يكذب قط. وفي إحدى المرات قطع أذنه وبعث بها إلى إحدى الفتيات، ليؤكد لها صدق مشاعره. وألقت المرأة بأذنه للقطة. وطارد القطة.

وأصيب بنوبات جنونية ودخل مستشفى الأمراض العقلية ثم أطلق على نفسه الرصاص. ولم يعرف أحد عبقرية فان جوخ إلا بعد وفاته. .

• تقول إحدى بنات الليل في مذكراتها: هذا الفنان المجنون كان يضحكني كثيراً. فهو يجيء في الليل يدق الباب وأكون مشغولة. فأطل إليه من النافذة وأطلب إليه أن ينتظرني بعض الوقت. وأكون مرهقة جداً. فأطلب إليه أن ينتظرني حتى أصحو من النوم. . وأصحو من النوم فأجده قد صنع لي القهوة وغسل ملابسي وكنس

الأرض وأطعم الكلب والقطة واشترى زهوراً من السوق. ويفتح الباب للزبون الجديد. وأطلب إليه أن ينتظرني حتى يخرج الزبون وينتظر وأنساه.

وفي يوم من الأيام وجدته ميتاً.. يحلم بإمرأة واحدة مخلصة تكون زوجة لرجل مخلص!

كان شعار الرسام الهولندي رمبرانت (١٦٠٦ - ١٦٦٩): أنت لا تعرف الحرية إلا إذا دخلت السجن.. لا تعرف الصحة إلا وأنت على فراش المرض.. لا تعرف الحب إلا إذا تزوجت.

ولذلك تزوج أولاً. وماتت زوجته وهي في الثلاثين وتركت مالاً كثيراً. واشترطت أن يكون هذا المال له، إلا إذا تزوج. ولم يتزوج. وإنما أحب ممرضة. ومن بعدها خادمته.. ومن بعدها زوجة لأحد الأغنياء. ثم تزوج وكان لا بد أن يبيع النصب الرخامي على قبر زوجته الأولى لكي ينفق على زوجته الثانية.

يقول: أكره في الدنيا شيئين: رائحة المستشفيات وعطور المرأة.. وأحب في الدنيا شيئين: الطين في الحقول والعرق..

وقد صدمت الناس لوحاته العارية.. فقد كان الرجل هادئاً وقوراً.. وكان حزيناً. وكان الناس يسخرون منه قائلين: إن هذه اللوحات رسمها بأنفه!

يقصدون أنه يحب رائحة الزيت ورائحة العرق.. وأن

الملابس تخفي عنه كل ذلك. . ولهذا فهو ينزع الملابس ويجعل أنفه أقرب إلى اللوحة.

وآخر كلمات رمبرانت: تمنيت أن أعرف طعم الحرية. رأيتها لمستها ولكني لم أذقها. . ولن يتسع عمري لذلك!

ولم يتسع عمره. فقد مات قبل أن يكمل عبارة أخرى تقول: لو نمت الليل عشرين ساعة وصحوت فسوف. . .

«لا أعتقد أنني إنسان محترم. ولو كنت محترماً لقلت لهذه السيدة: أنت أيضاً لا تستحقين الاحترام، فأنت كاذبة، وأنت تجدين متعة في عذاب الآخرين، وتجدين متعة أكبر في احتقارك لي. ثم أنني فعلاً أستحق هذا الاحتقار لأنني رضيت به. بل إنني سجلته على اللوحات. ورضيت أن أجلس أمامك ساعات لكي أعتقل بفرشاتي ابتسامة لك فيها الكثير من التعالي والنفاق. . أنت مجرمة يا سيدتي وأنا ضحيتك الذليلة. . إخلعي حذاءك واضربيني به ألف مرة على أنفي. . أرجوك. . ».

ذلك هو الفنان الإسباني جويا (١٧٤٦ ـ ١٨٢٨). وهو يمثل طرازاً من الفنانين يجدون اللذة في العذاب، والاحترام في احتقار المرأة لهم، والكرامة في الهوان، والمكان الطبيعي لرؤوسهم هو تحت أحذية المرأة الأرستقراطية التي تطلب إليه أن يكون خادمها عبداً ذليلاً لأهوائها ونزواتها. .

وقد أحبته دوقة ألبا. . ولم تصارحه بذلك. . وطلبت إليه أن

يرسمها.. وجهها.. ثم عنقها.. ثم نصفها.. ثم طلبت إليه أن يرسمها عارية.. وهي التي كشفت له عن جسمها قطعة قطعة فإذا عرت قطعة غطت بقية الجسم.. فلم ير جسمها كاملاً مرة واحدة!

ولما أكمل رسمها طردته من حياتها، وهربت!

فتقدمت له إحدى خادمات الدوقة تقول له أنها رأته وهو يرسم سيدتها. وهي تعرف بالضبط ما الذي يعجبه فيها وتؤكد له أن جسمها أجمل، وقلبها أصدق، وخيالها أوسع.. وأنها أذكى من سيدتها، فقد كانت هي التي تدبِّر شؤونها وتدبِّر حياتها كلها..

ثم خلعت ملابسها، ودارت حول نفسها وحوله. ورأى في عينيها إعجاباً شديداً. وهز الفنان رأسه قائلاً: أروع وأجمل وأكثر شباباً.. ولكنك ـ مع الأسف ـ تحتزمينني أيتها الخادمة! آه لو كنت تحتقريني قليلاً؟!

يقول بيكاسو بالنيابة عن كل الفنانين: ليس صحيحاً أن الفن منطق.. إنه جنون الفرشاة والألوان.. ليس صحيحاً أن الفن صحة.. إنه مرض يصيب العبقرية.. ليس صحيحاً أن الحب أبدي.. إنه متجدد.. أو من الواجب أن يكون كذلك.. وإلا كان الفنان زبالاً في شوارع الجمال، حانوتياً في جنة الله، متسوّلاً أمام كنوز الحقيقة.. لو عشت ألف سنة لأحببت ألف امرأة ورسمت ألف ألف لوحة «وضاق وقتي لكي أوقع عليها بإمضائي!».

علماء النفس
ليست لهم نفس

أعرف طاهياً مصرياً، هو أشهر وأبرع الطهاة في العالم العربي. وأحب أن أتفرج عليه وهو يحوِّل الدقيق واللحم إلى عشرين صنفاً. يعمل وحده. كأن له ألف عين وألف ألف أصبع. ثم أنه لا يضع في فمه لقمة واحدة. وإنما يفضِّل الخبز الجاف والجبن القديم على كل ما صنعت يداه.. ويترك المطبخ وكأنه في حالة إغماء، فيخرج من جيبه زجاجة نشادر ثم يتمشى على النيل وفي يده ساندوتش فول ـ إنه عالم وليس فناناً. إنه يعرف كل مكونات الأطعمة الفاخرة والمعقَّدة ولكنه لا يتذوقها ولا يشتهيها!

إنه مثل «النحل الشغال» يمتص رحيق الزهور ويفرز العسل ولا يتذوقه. وهذا النحل لا شيء يشغله عن صناعة هذا السحر.. لا حب ولا كره.. فالنحل الشغَّال لا جنس له ـ لا هو ذكر ولا هو أنثى!

أعرف تاجراً مشهوراً في طنطا صناعته حلاوة المولد. أقسم لي بالله العظيم ثلاثاً ـ وأنا أصدقه ـ إنه لم يذق هذه الحلاوة منذ أربعين عاماً. ولا يستطيع، ولو فعل لمات. لأنه مصاب بالسكر!

فعلماء الحلوى لا يذوقونها، ولا يحبونها!

ثم هــذه القصص الغــريبــة العجيبــة لعلماء الجنس والحب والكراهية والزواج والطلاق وكل العقد والمخاوف.

أعــظم علماء النفس جميعــاً هــو هــافيـلوك أليس (١٨٥٩ - ١٩٣٩). وهــو صاحب الثـورة الحقيقيـة في الـدراسـات الجنسيـة. وكتابه الشهير «دراسة في سيكولوجية الجنس» في سبعة مجلدات ألَّفها في ثلاثين عاماً، هــو أوفى موسـوعة جنسيـة كتبها أحـد من الناس. وقد ولد هــذا العالم الإنجليـزي عليلاً. منـطوياً. وليس عجيبـاً أن يـطول جلوسه وسـاعات قـراءاته وأن يكـون مفكراً متـأملاً. وكـان خجـولاً أيضـاً. وكـان خجله يغـري الفتيـات بـأن يتهجمن عليـه بالأسئلة، عندما كان مدرِّساً في أستراليا.

أول كتاب له كان موضوعه «الانحراف الجنسي». وقد حـرمته الرقابة في بريـطانيا. ورغم انتشـار هذا الكتـاب بعد ذلـك، وكتب أخـرى، فإن هـذا العالم الجليـل بقي منعزلاً جـالساً وراء الأبـواب يتأمل الناس دون أن يقترب منهم.

ومن رأي هذا العالم الكبير أن الطبيب النفسي يجب أن يساعد المرضى مجاناً، وقد استنكر أن يتقاضى علماء آخرون أجراً عن هذه المساعدة الإنسانية. فليس صحيحاً أن المريض هو الذي كسب الشفاء، ولكن العالم قد كسب الفهم أيضاً. فلماذا يكون المريض مديناً، ولا يكون الطبيب؟!

وكان زاهداً في الحياة، يكفيه من هذه الدنيا أن يقرأ وأن يناقش لعله يفهم، ثم يعبر. وما عدا ذلك من لذات الدنيا، فلا أهمية له.

لم يعرف امرأة حتى الخامسة والعشرين من عمره. والتي عرفها كان بالصدفة. فقد قرأ قصة لأديبة. فبعث إليها خطاباً يبدي إعجابه بها، وبعثت له المؤلفة بخطاب، ثم التقيا وكانت المؤلفة جميلة مثيرة، وأحاطته المؤلفة بالرسائل والمقابلات واستدرجته إلى بيتها.

وأعجبت به إحدى تلميذاته. وطلبت أن تتزوجه. وهذا هو الحوار بينهما.

الطالبة: أحبك يا أستاذ.

الأستاذ: عقلي يصدق ذلك.

ــ أنا أعرف ما أقول.

ــ وأنا أعرف ذلك. ولكنك لا تعرفين ما الذي يمنعني من زواجك.

ـــ إنشغالك. أنا أعرف أن هذا أهم وأعظم من أنانيتي.

ـــ ليس هذا..

ـــ أعرف. إن رأيك في المرأة سيء جداً. ولكن سوف تجدني مختلفة عن كل النساء. فأنا تلميذتك. أحبك. وأحترمك. وأعلم قداسة المهمة العلمية التي تقوم بها من أجل الإنسانية. فسوف أكون تلميذتك وعشيقتك وزوجتك وخادمة ومادة علمية لك..

ـــ ولكن ليست عندي أية قدرة. مطلقاً. لم أشعر بشيء. ولن أفعل شيئاً مستقبلاً. صدقيني!

ـــ شرف عظيم أن أتزوجك.

وتزوجا لمدة ٢٥ عاماً. وكانت حياة زوجية فاشلة عاصفة. وحاولت الزوجة الانتحار ثلاث مرات. وحاولت أن تشغل نفسها بالعمل. وبتأليف شركة سينمائية. وأنتجت أفلاماً. ثم أصابها الجنون عندما علمت أن زوجها قد تعلق بفتاة عمرها ٢٤ عاماً.

وفي سنة ١٩١٦ ماتت الزوجة عندما أصابها إغماء شديد ـ فقد أصيب بمرض السكر!

أما الزوجة الجديدة، فقد كانت تدري عيوبه. وحاولت أن تشجعه وأن تخفف عنه. وأن تهوّن عليه.. وحدثت المعجزة. فلأول مرة وفي الستين من عمره، يجد نفسه رجلاً!

ولكن هذه السعادة كانت قصيرة جداً. فقد عرف هافيلوك

أليس، أن زوجته على علاقة بأحد أصدقائه ـ هو الذي قدمه إليها قائلاً: عندما أكون مشغولاً حاولي أن تتسلي بالحديث إليه . .

وذهبت الزوجة إلى أبعد من التسلية، وظلت كذلك ٢٢ عاماً. وقد توفيت الزوجة سنة ١٩٧٤ .

أما أبو التحليل النفسي: فرويد (١٨٥٦ ـ ١٩٣٩) فله مأساة أخرى. وفرويد هو الذي فسَّر لنا الأمراض العقلية ودرس كل العقد النفسية واختار عقدة أوديب وعقدة الكترا وإرادة الموت .

إنه واحد من ثمانية أولاد. كان هو أحبهم إلى والديه. كان تلميذاً مجتهداً. ولم يكن متديناً، رغم أنه حريص على أن يكون عضواً بارزاً في جمعيات صهيونية، وقد درس الجهاز العصبي والأمراض وأثرها في الأعصاب وتعمَّق في التنويم المغناطيسي واستخدم الكوكايين كمادة علاجية . .

وتزوج في الثلاثين من عمره . .

وعاش بعد ذلك أربعين عاماً حياة هادئة عائلية، محيطاً نفسه بعدد كبير من تلامذته النابهين.

وأحرق هتلر كتبه لأنه رأى في هذه الكتب نوعاً من «الفجور اليهودي». وهاجر فرويد إلى لندن سنة ١٩٣٨ . وذلك بعد أن دفعت الأميرة اليونانية ماري بونابرت مبلغ ثلاثين ألف جنيه لألمانيا: ثمناً لحرية فرويد وسفره هو وأسرته إلى إنجلترا . .

ولكن فرويد أخفى عن الناس حياته الجنسية وعلاقاته المتنوعة. وفي المتحف البريطاني خطاباته العاطفية والجنسية، ولن يكشف عنها الستار إلا في سنة ٢٠٠٠ ـ بناء على وصيته. وإن كان قد كتب لزوجته في سنوات الخطوبة مئات الصفحات الملتهبة. مثلاً يقول لها: عندما نلتقي سوف تعرفين أيُّنا أقوى: الفتاة النحيفة التي لا تأكل، أو ذلك الوحش الآدمي الذي امتلأ دمه بالكوكايين!

هذه الزوجة قد تفرغت له تماماً. تعدّ له الطعام وتنظِّف الحذاء، وتضع المعجون على الفرشاة. وأنجبت له ستة من الأولاد والبنات. وكان يصر على تقبيلها رغم أن عشرين عملية جراحية قد أجريت له في شفتيه بسبب الإصابة بمرض السرطان!

ولم تكن الزوجة سعيدة..

ولم ينس فرويد أنه أحب فتاة عمرها ١٦ سنة. وتقدم لها. فرفضته. فاتجه فرويد إلى أمها، فطردته. فاتجه إلى أختها، فضربته.

أما الحب الحقيقي عند فرويد فهو لأخت زوجته، كانت أجمل. وأقدر على فهمه. وكانت تعمل سكرتيرة له. وتتنقل معه في أوروبا وفي أمريكا، واعترف لتلامذته بذلك.

وعندما سافر فرويد إلى أمريكا سقط في غرام المومسات. ورأى في ذلك النوع من النساء الخلاص الحقيقي لكل قيود الأسرة والدين والشرف!

وهذا العالم العظيم الذي جعل الجنس أساساً لكل تصرف إنساني وكل سلوك وكل فكرة وكل قرار وكل هروب من قرار وكل مرض، هو نفسه لا يجد لذة في الجنس العادي ولا الجنس الشاذ.. ومع ذلك كان يرغم زوجته على أن تقبِّله وأن تجد لذة في ذلك.. أي لذة في انعدام اللذة، أو في عذابه وتعذيبه!

وقد أدمن فرويد: الكوكايين.. وكان يرى أن الإدمان ـ إدمان أي شيء ـ نوع من تحقيق اللذة ذاتياً ـ أي دون أن يحتاج الإنسان إلى الآخرين. فكذلك الخمور والتدخين!

.

وكارل يونج (١٨٧٥ ـ ١٩٦١) عبقري «علم النفس التحليلي». سويسري ألماني. جاف غليظ ضخم. طويل عريض. له حاجبان منكوشان دائماً. إذا تحدث إليك فأنت لا تعرف إن كان يريد أن يطلق عليك الرصاص أو يكتفي بإلقائك من النافذة، مع أنه لا سبب هناك. ولكنه كان خشن العبارة. تزوج مبكراً.

وقضى معظم الوقت في الغابات يقطع الأخشاب، ويشعل الفرن، ويطهو. ويجد متعة كبرى في أن يدخل المطبخ ويرتِّب الأطباق ويضع الطعام للأسرة. وعندما ضبط زوجته تقرأ أحد كتب الطهي، خطف منها الكتاب وألقاه في النار بهدوء.

وكان من المعجبين بهتلر والنازية. ويرى أن اليهود يستحقون كل هذه الكراهية. فاليهود شعب مجنون. وجنونهم هو: العظمة... فهم شعب مطرود مكروه من كل الدنيا، ويرون أن

الناس يكرهونهم حقداً عليهم، لأنهم أغنى الناس وأعظم الناس. ولذلك فهتلر يقوم بتأديبهم نيابة عن البشرية؟

وعندما كان طفلاً اعتدى عليه رجل. ولم ينس هذه الحادثة حتى موته..

كثيراً ما تشاجر مع فرويد. وفي إحدى المرات أغمي على فرويد. وحمله كارل يونج إلى سرير مجاور. وكتب كارل يونج في مذكراته: إن فرويد عنده شذوذ جنسي، لأن الإغماء في حضور رجل هو استسلام له..

وأحب كارل يونج فتاة ريفية، ثم أحب طالبة أيام الدراسة وكاد يتزوجها، لولا أنه لاحظ أنها تحدثه كثيراً عن الحب والجنس...

وأحبته طالبة أخرى وبعثت لزميلاتها بهذا الخطاب: قررت أن أتزوج هذا الرجل، وسوف أتزوجه. أعطوني مهلة شهراً واحداً!

وبعد شهر واحد كانت زوجته..

وقد بدأ الخلاف بين العروسين على الفلوس. فمن رأيه أنه يجب ألا يخلط بين فلوسها وفلوسه. واختلفا. وجاء محاسب قانوني في شهر العسل يفصل بينهما. واستمر هذا الزواج خمسين عاماً! وأنجبت له خمسة أولاد.

وطوال هذا الزواج حاولت فتاة إنجليزية صغيرة أن تقنعه

بطلاق زوجته ولم تفلح، ولكن بقيت صديقة للعالم الكبير. وبعد وفاة الزوجة، جاءت وأقامت في بيته مديرة لحياته، وكان في الثمانين. وقال لها: لي شرط واحد.

قالت: أشرط يا أيها السيد!

ــ ألا تزعجيني وألا تجعليني أرى وجهك أو أسمع صوتك لأي سبب! ووافقت.

وفي آخر أيام كارل يونج كتب هذه النصيحة لواحد من تلاميذه: لكي ينجح زواجك، لا تكن مخلصاً!

ولكن بعد وفاة هذا العالم الكبير، بدأنا نعرف كيف كانت حياته الزوجية، والعاطفية والجنسية. تقول زوجته: كأنني أعيش مع إنسان آلي.. فالقبلات والأحضان مثل «طابور الصباح» في أية ثكنة عسكرية.. يقف كارل.. ويضع يديه إلى جواره. ويتقدم ناحيتي بخطوة منظمة ولا يرفع عينيه عن شفتي.. فأفهم أنه يريد قبلة.. ثم ينقل عينيه من شفتي إلى ذراعي، فأفهم أنه يريدني أن أحتضنه فإذا جلس بعد ذلك على أحد المقاعد أمام السرير.. فالمعنى واضح.. وكأنه يستمع إلى صفارة حكم في مباراة.. واحد.. إثنين إلخ.. إن لم تكن هذه هي جهنم، فكيف تكون؟!

أما مديرة البيت الإنجليزية فكانت تنظر إليه من ثقب الباب، فتجده جالساً معظم الوقت.. ثم يضع إصبعه في فمه، ويظل يمص إصبعه طوال الوقت.. وبعد ذلك يميل على كتفه العارية

يقبلها. . وأحياناً يضع أحمر الشفاه على كتفيه!

وتقول مديرة البيت وهي لا تفهم شيئاً: «طبعاً. . عبقري»!

حاول أن تفهم حياة هذه العالمة الجليلة من هذه العبارات التي جاءت في كتب لها:

أنت لا تعرف معنى الزواج إلا بعد الطلاق!

كثيرون لم يتوقعوا لزواجنا أن ينجح، ولكني أحتفل الآن بمرور شهرين على هذا الرباط!

المرأة ليست أعدى أعداء الرجل، ولكن من الممكن أن تكون وبسرعة ولأسباب تافهة!

الجنس مثل الفلوس: سخيف جداً أن تتحدث عنه كثيراً!

الخلافات بيننا عنيفة. لأننا نريد شيئين مختلفين: الرجل يريد المرأة، والمرأة تريد الرجل!

شرف المرأة مثل البصلة: طبقة فوق طبقة فوق طبقة!

المثل الأعلى للأبوة: أن تكون طفلاً مع طفلك!

ما تقوله الأم لطفلها في المهد، سوف يبقى معه إلى اللحد!

هناك أمهات لا تكف عن القبلات، وأمهات لا تكف عن الصفعات، وأكثر الأمهات يفعلن الإثنين معاً!

لو كان من طبيعة الأب أن يعتني بأطفاله، ما صدرت كل هذه القوانين تفرض عليه ذلك!

من يداعب خد طفل، يداعب قلب أم!

ما دام في الدنيا أطفال يتعذبون، فليس في الدنيا حب!

الأم المثالية هي التي لم تلد ولكنها تبنّت ثلاثة من الأطفال!

عندما تربي رجلاً فأنت تربي شِخصاً واحداً، ولكن عندما تربي امرأة، فأنت تربي أسرة!

يجب أن تتناول بالتحليل هذه الرغبة الجنونية في زيادة النسل!

الرجل هو وسيلة المرأة للحصول على طفل!

من الصعب على أية أم أن تحب أطفالها ٢٤ ساعة من أي يوم!

كـل إنسان هـو شخص ممل جـداً لإنسان آخـر ـ تـزوج وأنت تعرف!

الاحتفـاظ بالجسم والـروح معاً، ليس صعبـاً. . الصعب جداً أن تباعد بينهما!

المرأة تتزوج لأنها لا تريد أن تعمل!

هـذه السيدة البـريطانيـة ماري أستـوبس (١٨٨٠ ـ ١٩٥٨). ولدت هي وأخواتها من زواج بلا جنس وبلا حب. فقد ولدتها أمها وهي في الأربعـين من عمـرهـا. وهي أيضـاً تـزوجت وبقيت خمس سنـوات عذراء. وأعلنت في المحكمـة عندمـا طلبت الـطلاق: إنـه الزوج!

وهزَّ الزوج رأسه بأن هذا صحيح ويؤسفه ذلك!

ومـاري أستـوبس تخصصت في النبـات والحفـريـات النبـاتيـة ودراسة المناجم. ولكن بسبب الفشل المتراكم في حياة أمها وحيـاتها وبعض صـديقـاتهـا اتجهت إلى دراسـة الأسـرة والـزواج والحب والجنس. وكان كتابها الأول «الزواج عن حب» وكتابها الثاني «الأبوة العاقلة». .

ثم اتجهت إلى تحـديد النسـل. وكانت أول من نـادى بذلـك. فأغضبت الكنيسة. وكل الهيئات النسائية. ولكنهـا أصرت عـلى أن أسباب التعاسة العائلية هو أن أحـداً لا يعرف كيف يحـدد النسل.

وأن كثرة الأطفال مع نقص المال، محطِّم للأسرة. . كما أن كثرة الحمل والولادة مرهق لصحة الأم. وأقامت أول عيادة لتحديد النسل. وأصدرت كتابها الكبير: «منع الحمل: نظرية وتاريخ وممارسة».

وكان زوجها الثاني أيضاً عاجزاً.

وتقول ماري أستوبس أن أول قبلة في حياتها عندما كانت في الرابعة والعشرين. أما الذي قبَّلها فهو طالب ياباني يكره التقبيل!

وفي حياتها الزوجية ظهر شاب ترجم أعمال تولستوي إلى اللغة الإنجليزية. وكان زوجها صاحب مصنع الطائرات يعطف عليه. وأفسح له مكاناً في البيت. . وأسعده أن زوجته سعيدة مع الشاب. . وفوجىء الزوج بأن العلاقة بين زوجته وهذا الشاب قد تطورت كثيراً. فكان الحب الذي لم تعرفه من قبل. وكان كل الذي حرمته وهي شابة وهي زوجة. . فطرده من البيت!

تقول ماري أستوبس في مذكراتها أيضاً: كأنه القدر أراد أن يدفعني إلى أن أعرف مصدراً آخر لتعاسة الأسرة. . أن يكون أحدهما عاجزاً، وأن يكون كاذباً أيضاً، لماذا لا يتصارحان قبل وقوع الكارثة النفسية والعائلية؟!

تقول أيضاً: لم أفهم بالضبط ما الذي يقصده زوجي في أول لقاء لنا قبل الزواج: يجب أن ننام في سريرين منفصلين لأنني

أتنفس بصوت مرتفع. . وأنت رقيقة وسوف لا تذوقين طعم النوم.
ثم قال: إنني أؤمن بأن الأمراض كلها تنتقل بالقبـلات. . ولذلـك عاشت القبائل البدائية في صحة جيدة لأنهم لا يعرفون القبلات. . وإنما يتقاربونَ وتتلامس أنوفهم فقط. . لم أفهم. . ولا فهمت أيضاً عندما قـال لي في خطاب كنت أنتـظره طويـلًا: لو عـرفت المرأة كم يكون شكلها بشعاً عندما تكون حـاملًا، مـا تزوجت امـرأة قط. . إننا نحن الرجال أسعد حظاً!

والفـلاسفة ليسـوا أحسن حالاً، وإن كـانـوا يتـظاهـرون بغـير ذلك. . فلقد انشغلوا بحـل مشاكـل الدنيـا، ونسوا أن لهم مشكلة تستحق الحل ـ وسوف نرى. .

لست فيلسوفاً
طول الوقت!

حتى لـو كنت ملكاً، فـأنت لست ملكاً طـول الـوقت. . وأنت تـأكـل وأنت تشـرب وأنت تبكي وأنـت تعـاني مـن الإمسـاك والإسهـال. . وعندمـا يـطلب إليـك طفلك أن يـركب ظهـرك أو تدخل معه تحت السرير تبحث عن كرة. .

وشكسبير هو الذي قال: لا يكون الملك ملكاً أمام خادمـه. . لأن الخادم رآه عاريـاً ورآه حافيـاً ومنكوشـاً. . ولكن فقط عندمـا يضع التاج ويجلس على العرش. . وهو لا يفعل ذلك إلا مرة كـل عام!

وكـذلك الفيلسـوف ليس فيلسوفـاً في كل تصـرفاتـه. . فهـو أحياناً حكيم، وأحياناً عبيط. . وأحياناً يحسبها بالمليم، وأحيـاناً لا يعرف ما هو المليم. . وأحياناً يضع السماء والأرض والكائنـات في معادلة واحدة، وأحياناً لا يعرف جدول الضرب. . وهو مع المرأة حيوان، وملاك. . ثم أنها لا تراه فيلسوفاً بل تراه مجنوناً!

لا أحد يعرف لماذا تزوج سقراط (٤٧٠ ـ ٣٩٩ق.م) زوجته، ولماذا هي تزوجته.. فهو أعظم الفلاسفة، وهي امرأة عادية أو دون ذلك.. فهي لم تكن تدري تماماً من هذا الرجل الذي تلقيه خارج البيت، مع أنه لم يكن مخموراً.. فقط ليس عنده فلوس.. ولا من هذا العبقري الذي تلقي عليه بماء الغسيل، فيضحك..

هل كان سقراط سعيداً بذلك؟ يقال أنه كان كذلك، فقد كان مصاباً بالشذوذ الجنسي. هل كان تلامذته في مئات السنين سعداء؟ كانوا في غاية التعاسة إذ كيف يلقى أستاذ أساتذتهم هذا الهوان.. ولكن سقراط كان يضرب المثل الأعلى في الصبر والتسامح وكيف يمكن أن يكون الفيلسوف مضطهداً من الجهلاء والضعفاء أيضاً؟

•

ولم يكن الفيلسوف الألماني كانت (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) عاجزاً جنسياً عندما لم يتزوج، وعندما لم يجد صديقة واحدة، ولكنه كان مشغولاً ببناء الكون.. فهو يضم مفردات الكون بعضها إلى بعض، ليجعل منها بناءاً هندسياً شامخاً. وقد استطاع. ولم يستطع أي شيء آخر. وكانت حياته منظمة بالدقيقة والثانية.. وكما كان

يزن كل كلمة يقولها، كان يزن كل طعامه وشرابه وملابسه. . وفكر في الزواج مرة ثم نسي ما الذي يمكن أن يفعله. . وعاد إلى التفكير مرة أخرى. . وقرر أن يتزوج وعندما تلفت حوله لم يجد واحدة تناسبه. . ثم فكر مرة ثالثة وقرر واختار واحدة. . وفوجىء بأن هذه الواحدة قد ماتت قبل ذلك بعشرين عاماً. . وعدل نهائياً عن الفكرة والقرار والبحث عن واحدة بعد ذلك!

أما آخر الفلاسفة العظام في العصر الحديث فهو كارل ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) فهو سلالة عدد من الحاخامات. ولكن والده أصر أن يجعله مسيحياً، تفادياً لمشكلة أن يكون الإنسان يهودياً في ذلك الوقت. ولم يكن ماركس متديناً في أي وقت. فمن رأيه: أن الدين أفيون الشعوب، وكان يكره الديانة اليهودية.

وفي السادسة من عمره أحب فتاة من النبلاء. وبعد ثماني سنوات تزوجها ـ أهله غاضبون من ذلك، وأهلها أشد غضباً لزواجها من مليونير عقلياً و«مديونير» مادياً!.

وقد أدت المقالات الثورية التي ينشرها في الصحف إلى طرده من ألمانيا وفرنسا وبلجيكا. فاتجه إلى النشاط السري في الحركة الاشتراكية العالمية.

وفي باريس التقى بصديق العمر رفيق الطريق زميل الكفاح: فريدريش إنجلز. وهما معاً قد كتبا «البيان الشيوعي» الشهير. .

وفي سنة ١٨٤٨ التقى ماركس وإنجلز في لندن. واستعدا معاً للرقصة الثانية ـ أي للثورة الثانية. ولكن خاب أملهما، فالشعب الإنجليزي ليس من السهل إثارته أو قلبه على نظام الحكم في بلاده..

وعاش ماركس على مقالاته القليلة. فقد كانت الفلوس هي مشكلة المشاكل في حياته حتى موته، وبعد موته كان صديقه إنجلز ينفق على ما تبقى من أولاده، فقد كان له سبعة أولاد، عاش منهم ثلاث بنات، انتحرت منهما اثنتان. وقد علم ماركس أولاده أن يقفوا على الباب ليقولوا لكل دائن: مستر ماركس ليس هنا.. تعال غداً!

وأقام ماركس في المتحف البريطاني يجمع المادة العلمية لكتابه الضخم «رأس المال».

ولم يكن ماركس في صحة جيدة قط.. فهو مرهق دائماً، وعنده متاعب في الكبد وضعف في عينيه. ولكنه لم يتوقف لا عن القراءة ولا عن الكتابة.. وتمضي السنون لا يستحم، ولذلك تغطى جسمه بالدمامل. وكان عصبياً من السهل إثارته لأي سبب تافه. وكان ينطق بمثل هذه العبارات احتجاجاً على أي شيء: سوف أحطِّمه.. سوف أمشي بحذائي على رقبته.. سوف أضيفه إلى أكوام زبالة التاريخ!

ثم أطلق ماركس لحيته ليكون شبيهاً بزيوس كبير آلهة الإغريق

الـذي يحتفظ بتمثالـه في بيته. . وهـو معجب به لأنـه كبير الآلهـة، ولأنه لا يتعامل بالفلوس ـ لا يطلبها من أحد، ولا يطالبه بها أحد!

وتزوج الفتاة الوحيدة التي أحبها، وسافـرا إلى سويسـرا لقضاء شهر العسل على نفقة أمها. . وفي الفندق تركا الفلوس عـلى إحدى المناضد، ليأخذ منها أي أحد إذا أراد؟!

ولما أنجبت له طفله الأول هربت به إلى ألمانيا وبعثت بخـطاب تقول فيه: لن أعود إليك فلا أريد مزيداً من الأطفال!

وكان ماركس يقول في خطاب لأحد أصدقائه: أنت لا تعـرف مـدى العذاب الـذي أشعر بـه وأنا أرى أطفـالي التعسـاء، ودمـوع زوجتي التي لا تنتهي. . إنني مستعد أن أقتلع أنياب الشيـطان بحثاً عن الرغيف!

ثم أحب خـادمته. كـانت فلاحـة جميلة هـديـة من حمـاتـه. . وكانت تدير البيت وتمسك الحساب بيد من حديد. وكـانت تلاعبـه الشطرنج وتتفوق عليه. وفي سنة ١٨٥١ أنجبت منه طفـلاً وتركتـه عند سيدة أخرى. ولم يعترف به ماركس. وقد قابل هذا الإبن مـرة واحدة عندما بلغ الثلاثين. وبقيت هذه الخادمة في البيت إلى ما بعد وفاة زوجته. وبعد وفاته هو ذهبت لتعمل في بيت صديقه إنجلز.

ثم أحب سيـدة إيطاليـة غنية. . وأحب إحـدى قـريبـاتـه التي تصغره بعشرين عاماً، والتي كانت إلى جواره عندما مات. . وكانت

آخر كلماته: عيناها خضراوان خطيرتان. .

وكـان ماركس جـافـاً غليـظاً خشنـاً. . وكـان يحب استخـدام الألفاظ النابية والنكت القبيحة ورغم كل ذلك كتب لـزوجته يقـول لها: صورتك أمامي. أقبِّلك من رأسك إلى قدميـك. وأقول لـك: أحبك. . إن في الدنيا نساء جميـلات، ولكن أين هن من جمالـك. كل شيء في وجهك كل تجاعيد وجهك تعود بي إلى أجمل الذكريات معك».

أمـا فيلسوف الكلمـة القويـة والعبـارة الجميلة والعنف نيتشـه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) فقـد ولد في أسـرة محافـظة. مات أبـوه وهـو في الرابعة من عمره فتركه لبيت كل من فيه نساء: أمه وخالته وأخته.

وظهرت مواهبه الأدبية والفكـرية مبكـراً. وكان عليـلاً، وكان معـذباً بـأوجاعـه المختلفة مـدى الحياة: الصـداع النصفي وضعف النظر.

وقد عين مـدرساً في الجـامعة، ولكنـه لم يستطع أن يقـوم بهذه المهمة بسبب الصداع فاتفقت معه الجامعة على أن يمدها بالأبحاث، وأن يتقاضى مكافأة سنوية على ذلك. .

وكان على خلاف دائم مع أمه وأخته. .

ومن أروع أعماله الفلسفية كتابه: هكذا قال زرادشت. . وفي هذا الكتاب أودع فلسفتـه كلها عن الإنسـان والسوبـر إنسان ـ أي

الإنسان الأعلى: القوي النبيل المؤمن المتشدد.

وفي سنة ١٨٨٩ عندما كان يمشي في شوارع روما رأى رجلاً يضرب حصاناً بالكرباج ضرباً مبرحاً، فأغمي عليه..

ثم عاش مجنوناً بعد ذلك، حتى الموت!

وأكثر قصص الحب والغرام التي عرفناها عنه هي التي جاءت في كتاب له كتبه وهو في مستشفى الأمراض العقلية عندما تدفقت عبقريته بلا حدود. هذا الكتاب عنوانه «أختي وأنا» وقد احتفظ به أحد المرضى ولم ينشر إلا بعد وفاة نيتشه بخمسين عاماً.

وقد أحب زوجة الموسيقار فاجنر..

وأحب فتاة هولندية قابلها في سويسرا، وعندما تقدم للزواج منها رفضته..

وقدم له الفيلسوف بول ري فتاة روسية اسمها سالومي أحبها آخرون غيره: العالم فرويد والشاعر ريلكه وهي فتاة ذكية. وحاول نيتشه أن يجعلها صديقة لأخته.. ولكن أخته غارت منها.. وأفسدت ما بينهما. وأخته هي التي أشاعت أن أخاها يكره اليهود، وكانت سالومي يهودية..

وفي الكتاب الذي ألّفه في مستشفى الأمراض العقلية روى أنه كان يحب أخته.. وأن هذه العلاقة قديمة.

ولكن الموسيقار فاجنر فسَّر اضطرابات هذا الفيلسوف بأنها

بسبب الحرمان الجنسي والخجل الشديد.

يقول نيتشه: عرفت السعادة مع امرأتين: غانيتين. . وعرفت التعاسة مع امرأتين إحداهما جميلة جداً ولكنها أختي، والثانية ذكية جداً رفضت الزواج مني: سالومي. .

أما أول علاقة جنسية فكانت مع سيدة عمرها ثلاثون عاماً وكان هو في الخامسة عشرة. طلبت إليه أن يضربها بالكرباج أولاً. . وأفزعه ذلك!

أما أبو الثورة الفرنسية وأحد أنبيائها روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) فليس صحيحاً أنه عاجز جنسياً أو عاجز عن الحب عندما قال: أرسلت أولادي إلى بيوت اللقطاء. .

والحقيقة أنه أنجب عدداً من الأولاد من زواج شرعي، ولكنه أرغم زوجته على أن توزعهم على بيوت اللقطاء. وفعلت. ولم نقرأ أو نسمع عنهم بعد ذلك!

وهو فيلسوف الإنسانية. فالإنسان طيب بفطرته. ولكن المدنية أفسدته. والإنسان البدائي هو الإنسان النبيل. والناس ولدوا أحراراً، وبعد ذلك تفننوا في صناعة السلاسل والقيود. . والإنسان لكي يضمن سلامه وأمانه، لا بد أن يتعاقد مع غيره من الناس على ذلك. فالعقد الاجتماعي، أو التعاقد الاجتماعي، شرط للسلام والسلامة. .

ومع ذلك فقد كان قادراً على أن يخسر كل يوم صديقاً. لأنه كان عنيفاً وكان عصبياً. وكان متقلباً.

لم ينس حتى الموت أن أحد المدرسين قد ضربه على مؤخرته. كتب يقول: لم أكن أتصور أن هذا النوع من الضرب سوف يغيِّر مسار حياتي. فلم أعد أجد لذة إلا في هذا النوع من العقاب. .

يقول في اعترافاته: يجب أن أعرف واحدة، أحبها، وأركع عند قدميها. وتضربني على مؤخرتي، وأن أطلب إليها الصفح، فلا تصفح، ولا تكف عن ضربي!

أحب إحدى الفتيات وكتب لها يقول: أحبك ولن أتزوجك. تزوجي أنت وسأبقى على حبي لك. .

ثم تزوجها بعد ٢٣ عاماً!

وكانت جميلة بلهاء لا تعرف الحساب ولا أيام الأسبوع ولا مبادىء هجاء الكلمات. وأنجب منها خمسة أولاد. .

وأحب واحدة متزوجة ولها عشيق. . ومنها أصيب بالزهري الذي لازمه حتى موته. وكان يقبِّل «الأشياء» التي تملكها المحبوبة: مقعدها وملابسها وحذاءها ويحتفظ بين ملابسه الداخلية بملابسها. .

واعترف بشذوذه الجنسي، فقد يجد المتعة الكبرى في أن يقف في مكان مظلم من الشارع، حتى إذا رأى عدداً من المارة نزع

بنطلونه واستدار للناس. . وإذا صرخوا، كانت هذه هي المتعة الكبرى!

وبعد وفاته عرف الأطباء بعض مشاكله: فقد كان يعاني انسداداً في الحالب والتهاباً في المسالك البولية مما جعل علاقاته الجنسية أليمة جداً!

أما فيلسوف التشاؤم في العصر الحديث فهو شوبنهور (١٧٨٨ - ١٨٦٠)، وهو المسؤول وحده عن المرارة والظلام في حياة كثيرين من الأدباء والشعراء في القرنين التاسع عشر والعشرين. فهو قصير القامة دقيق الملامح كبير الرأس نافذ العينين. وهو دميم، عصبي، متقلّب المزاج. إنه يجلس على نار تكويه ولا تشويه. ولذلك فكلماته لها لسع النار ووخز الإبر ومذاق السم، وكذلك أبوه الذي انتحر.

وأما أمه فقد كانت تغار من شهرته، وكانت لها اجتهادات أدبية، ولكنها لم تكن لامعة. كان لها صالون أدبي، يضم كل أدباء عصرها، إلا ابنها. وقد التقت به في إحدى المرات على السلم. دار الحوار بينهما عنيفاً، إنتهى بأن ركلت إبنها بالشلوت فقال عبارته المشهورة: سوف تعيشين وتموتين ولن يعرفك الناس إلا بأنك أمي!

وهذا ما حدث.

وفي يوم عاد إلى البيت ليجد شاباً يقيم مع والدته. وضايقه

ذلـك. وقال لهـا: أرجو أن تختـاري بين أنـانيتـك السـافلة، وبـين احترام ابنك لك!

فـاختارت العشيق. وتـرك الفيلسـوف البيت، ولم يـرهـا بعـد ذلك.

أحب إحدى الجميلات. ولكنهـا لم تكن قادرة عـلى حب رجل يحتقر المرأة، ويحتقرها بصفة خاصة. سافر إلى إيطاليا ولما سئـل عنها قال: الخطيئة في هذه البلاد ألا تكون لك خطيئة!

يقول: الجنس قوة قاهرة تتسلط على كل شيء وتقهره..

ويقول: المرأة هي أداة الطبيعة لاستمرار الحياة..

ويقـول: المرأة ذلـك الحيوان القميء ضيق الكتفـين، عريض الردفين، طويل الشعر واللسان، قصير النظر، بليـد الحس.. ذلك الإنسان المشوّه!

ويقـول: كلما ازددتُ معرفـة بالـرجـال كـرهتهم، كلما عـرفت النساء ازددت احتقاراً لهن.. كلما أحسست أنه لا بد من الـزواج، تمسكت بكبريائي!

وفيلسوف الوجودية سارتر (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠) ففي حيـاته حب واحـد استمر خمسـين عامـاً. فقد أحب زميلتـه في الجامعـة الأديبـة سيمـون دي بوفـوار. واتفقا عـلى أن يكون بينهـما حب، لا زواج. وبعـد ذلـك أيضـاً عـلى أن يكـون بينهـما حب وأن تمتـلىء حيـاتـه

بالأخريات، وحياتها بالآخرين. وتبقى الصداقة قوية كما هي. وأن يواجه كل منهما الملل والقرف، وأن يتخفف منه على النحو الذي يراه. ويبقى الحب كما هو. .

وفي أول الأمر لم يستطيعا أن يتمسكا بهذه القاعدة. فعندما عرفت سيمون دي بوفوار أن فتاة روسية تعيش معه في برلين، سافرت وسألت الفتاة الروسية عن طبيعة هذه العلاقة. فأجابتها: بأنها مؤقتة!

هنا استراحت سيمون دي بوفوار وعادت إلى باريس، دون أن يعرف هو أنها قد سافرت من باريس إلى برلين، ولم يناقشها في هذه الحادثة.

ولكنها أيضاً عرفت رجالاً آخرين، ولم يعلق على ذلك. .

وسارتر إبن ضابط بحري. مات أبوه بعد ولادته بسنة واحدة. وهو قصير القامة خجول دميم الشكل. ورغم سيطرة الأم عليه، فقد كانت له شخصية مستقلة قوية.

وفي الحرب العالمية الثانية كان يعمل في إدارة الأرصاد الجوية. واعتقله الألمان. وسجنوه. وخرج من السجن يقاوم الاحتلال الألماني.

وفي سنة ١٩٦٤ حصل على جائزة نوبل في الأدب. ورفضها قائلاً: إن هذه الجائزة إهانة له. فقد منحتها له القوى الرجعية في

العالم. ومعنى ذلك أنه هو أيضاً رجعي. ولذلك رفضها، دفعاً لهذه التهمة عن فلسفته وعن شخصه..

وأول لقاء له بصديقة العمر سيمون دي بوفوار كان سنة ١٩٢٩، وكانت مبهورة بعقليته الفذة. واتفقا على الحب بلا زواج. واتفقا على إنعاش هذه العلاقة بصداقات أخرى كثيرة.

وأحبت سيمون دي بوفوار كاتباً يهودياً فرنسياً. ولما جاء سارتر وسيمون إلى مصر، كان معها عشيقها لانسمان رئيس تحرير مجلة «العصور الحديثة»..

وتبنى سارتر فتاة يهودية جزائرية اسمها أرليت لاقيم، وترك لها كل مؤلفاته. وكان في نيته أن يتزوجها حتى لا تتعب في جمع ثروته. ولكنه وجد في هذا الزواج إهانة لسيمون دي بوفوار بعد أن تركت عشيقها. ومنذ سنة ١٩٥٨ تفرغت تماماً لسارتر. وبقيت كذلك حتى موته.. وبعد وفاة سارتر ظهرت له ألوف الخطابات، جمعت في كتب ضخمة.

وفي أحد هذه الخطابات كتب لأديبة ناشئة يقول: آه.. لو تقدمت ثلاثين عاماً لوضعتك إلى جوار سيمون.. ورحت أقارن بينكما: أيكما أقدر على فهمي.. أيكما أقدر على احتمالي.. أيكما أخف وزناً على أعصابي.. أيكما أقل معارضة لسخافاتي.. أيكما ترعاني بشفتيها، دون أن تضايقني بذراعيها.. أيكما تقرز في اللحظة الأولى عند رؤيتي: لو كان زوجي لطلقته.. ولو

طلقته فلن أقوى على الابتعاد عنه.. أيكما يربطني بخيط من الحرير طوله ألف كيلومتر.. ثم لا يجعلني أشعر بذلك.. لا بالرباط ولا بالحرير؟!

وفي رسالة أخرى يقول: نحن الفلاسفة متقلبون. فنحن نزهد ما في أيدينا، ونحطم رؤوسنا بحثاً عن الذي ليس في أيدينا.. ففي يدي أن أحبك.. وأن أشجعك على أن تحبيني.. والذي ليس في يدي هو أن أتخيل نوعاً من العدل الكاذب بعد وفاتي.. حين يقول الناس: كان فيلسوفاً.. كان عظيماً.. ولكننا لم ندرك ذلك.. ولو أدركنا لوضعناه فوق رؤوسنا، وأرحناه.. وجعلنا طعم الحياة على لسانه أجمل وأمتع.. ومسحنا الضباب من طريقه، وأزلنا النساء من فراشه إلا التي يختارها.. هذا هو العدل الكاذب الذي أتخيله، مع أنه لم يحدث لأي فيلسوف من قبل، ولن يحدث.. ولكن هذا هو مرض الفلاسفة الذين يتوهمون أن لهم عمراً بعد أعمارهم.. ويتوهمون لو كانت لهم زوجة عاشقة، لفعلت ذلك نيابة عنهم.. ولكن بالله لماذا لا تقتنع الزوجات بالعدل إلا بعد موته.. لماذا لا يتحقق ذلك وهو على قيد الحياة.. إنها هي الأخرى مخدوعة مرتين.. مخدوعة عندما تزوجت فيلسوفاً ومخدوعة عندما تخيلت أنها قادرة على تحقيق العدل.. إن المرأة لا تكره العدل، إلا إذا كان في صالحها.. والعدل الذي تراه هو أن يكون زوجها ظالماً!

تقول سيمون دي بوفوار: كنا نتشاجر كأننا زوجان، وكنا نتصالح كأننا عشيقان. مرة واحدة اختلفت معه وقررت أن أترك له

البيت فوراً. ولكن سارتر أخجلني قائلاً: ولكننا في بيتك!

وفي فيلم تليفزيوني ظهرت السيدة سيمون دي بوفو
في عينيها تقول: كـان زواجنا أكبـر من الحب، وكان حب
الزواج. كان سارتر فيلسـوف خمسة أيـام في الأسبوع، و
مشاكساً يوماً من كل أسبوع، وكان طفلاً في اليـوم السا
كان دائماً الحب الأول والأخير في حياتي!

أبطال الحرب . .
أسرى الحب

إثنـان في دنيا الحـرب والحب ليس لهما نـظير: بشر بن عـوانة العبدي أحد شعراء الجاهلية . . ورومل : ثعلب الصحراء.

فكان بشر العبدي يركب حصانه ويشهر سيفه وفجأة يظهر له من بـين الصخور أسـد . . ويتهجم عـلى الأسـد ويضـربـه ويقتله ويتمنى لو كانت «فـاطمة» هنـاك لترى شجـاعة وبسـالة وتضحيـة «بشر» من أجل نظرة من عيني المحبوبة . .

ويقول بشر العبدي :

أفاطم لو شهدت ببطن خبت

وقد لاقى الهزبر أخاك

إلخ . .

وبعض أبطال الحرب، صرعى الغرام.. فأبطال الحرب ليسوا دائماً أبطال الحب.. إن القائد العسكري ليخوض في الجثث والدماء، وينفض عن أذنيه صراخ الجنود وزئير الأسود، وصهيل الخيول، وزمجرة المدافع ثم ينام نوماً عميقاً.. ولكن عندما تموء هرة المحبوبة، فإنه لا ينام، يتقلب على بساط من الشوك.. أليست قطة ضعيفة لامست يدي المحبوبة وتمرَّغت في أحضانها.. فهي - إذن - أروع مخلوقات الله - هذه العبارات منسوبة للإسكندر الأكبر..

ويعض أبطال الحرب عندهم براعة في تكتيك الغرام، ولكنهم ضحايا الاستراتيجية.. أي قادرون على الحب السريع، فاشلون في الزواج الطويل..

مثلاً لورد نلسون (١٧٥٨ - ١٨٠٥) بطل الحرب ومعبود الجنود والجماهير. قطعت ذراعه اليمنى في معركة جزر الكناري، وأصاب الفرنسيون رأسه في معركة أبي قير، ثم قتلوه في معركة الطرف الأغر.

وقد وصفه معاصروه: بأنه كومة من العظم في بدلة عسكرية!

تزوج أرملة إنجليزية كانت تعيش في أندونيسيا. ثم أرسل إلى نابلي بإيطاليا ليجمع قوات ضد الفرنسيين. وفي نابلي التقى بالليدي هاميلتون (٣٣ سنة) زوجة السفير البريطاني. دخلت أعماقه من أول لحظة. «جميلة ذكية» العينان رماديتان والشعر كستنائي.. وكانت أجمل نساء زمانها.

وعندما كانت في السابعة عشرة من عمرها، طلبت من أحد الضباط أن يطلق سراح جندي قريب لها. وفعل. وقدمت نفسها ثمناً لذلك. وعرفت كم يساوي جمالها. وعرضت نفسها «موديلاً» لعدد كبير من رسامي ذلك العصر.. ثم تسللت إلى فراش لورد هاملتون وتزوَّجته.

وانشغل هوراشيو نلسون بهذه السيدة الجميلة، رغم أنه كان غارقاً في الخمر والنساء. وبعد خمس سنوات عاد إلى نابلي وكان قد أصبح أسطورة أوروبا كلها. أكثر نحافة. أعرج. وقد تحطمت أسنانه ثم هو يسعل كثيراً. ولم تكد تراه «إيما» هاملتون حتى صرخت: لا أصدق.. دعني أصدق ذلك!

وألقت بنفسها عليه..

وكانت إذا انفردت به قدمت له الخمر يشربها من كفيها.. ثم ترقص له على نار هادئة.. وحملت منه وأنجبت فتاة أطلقت عليها اسم «هوراشيا» تيمُّناً باسمه. ولم تعد سراً هذه العلاقة. حتى أن الملك جورج الثالث عندما قابله راح يهمز ويلمز. ولكن نلسون

كان أكبر من كل ذلك. فهذه حياته. وهو حر.

وعندما مرض اللورد هاملتون جلس نلسون وعشيقته إلى جواره حتى مات سنة ١٨٠٣.

وقبل استدعائه لمعركة الطرف الأغر جنوبي إسبانيا، كان نلسون يشعر أن هذه آخر معاركه. وأنه لن يعود. وفي المعركة ظهر على سطح السفينة بكل نياشينه العسكرية، وحاول مساعدوه أن يمنعوه. ولكنه رفض. والفرنسيون الذين أطلقوا عليه النار، سددوها إلى النياشين.

ثم كرمه الشعب الإنجليزي وكرم زوجته أيضاً. أما عشيقته فقد استبعدوها تماماً. وكان عليها أن تواجه الدنيا وحدها.. عاشت للخمر، ودخلت السجن وفاء لديونها.. وماتت نصف مجنونة سنة ١٨١٥ عن ٥٤ عاماً!

أما عبقري الحروب الحديثة نابليون (١٧٦٩ ـ ١٨٢١) وأول أباطرة فرنسا، ومؤسس الدولة الفرنسية الحديثة وراعي إصلاحها القانوني والاقتصادي والإداري، فله عشرات القصص.. بعضها يرويها على سبيل الفخر والقرف.. وبقية القصص ترويها الفتيات والسيدات.. وآخر غراميات نابليون كانت فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، إبنة حارس جزيرة «سانت هيلانة» التي نفي إليها ومات بها..

وفي الثلاثين من عمره كان نابليون سيد فرنسا. وأقام حكومة عسكرية مطلقة، يحميها الدستور.. وهزمه الروس في معركة ليبسيج سنة ١٨١٣، واستسلم.. ثم هرب من جزيرة ألبا، ليحكم فرنسا مائة يوم، حاول أن يسترد عرشه وشعبه، ولكنه فشل.

وكانت آخر معاركه هي معركة ووترلو سنة ١٨١٥، عندما هزمه ولنجتون القائد الإنجليزي. وقد تزوج نابليون مرتين. وكان هذا البطل العظيم خجولاً. وأول غرامياته كانت مع سيدات يكبرنه في السن. حاول أن يتزوج منهن، فرفضن.. فقد وجدنه صغيراً جداً!

وفي سنة ١٧٩٦ تزوج عشيقة أحد أصدقائه: غنية وقادرة على حمايته اجتماعياً. وأحبها. وفوجىء نابليون وهو إلى جوارها في شهر العسل أن هاجمه كلبها وعقره في عنقه. وغضب نابليون.. فلم يكن يعرف أن له شريكاً من الكلاب! وعرف بعد ذلك أن الكلب ليس إلا واحداً من عشاق كثيرين!

ورافقته إلى مصر عشيقة تنكّرت في ملابس الضباط وكانوا يسمونها «الجنرالة» أو «سيدة الشرق».. وكانت تسكن في بيت مجاور لمقر القيادة العسكرية بالقاهرة.. إسمها بولين مورنس (٢٠ سنة).. وكانت ترتدي قبعة من الريش الذهبي وبنطلونات سوداء محزقة جداً.. وكانت إذا غضبت منه ارتدت فستاناً. وإذا رضيت

عنه ارتدت زياً عسكرياً في الفراش. . وقد أسر الإنجليز سفينة كانت هذه الجنرالة على ظهرها. فأعادوها إلى مصر ـ إمعاناً في السخرية من نابليون!

ثم التقى بفتاة بولندية اسمها ماريا فالفسكا ـ قدمها البولنديون للقائد البطل، كما كان المصريون القدماء يلقون بعروس إلى النيل، طمعاً في أن يفيض بالماء والخيرات. وقد بهره جمالها وذكاؤها وإخلاصها له. وكتب لها، وكتبت خطابات من نار، في منفاه.

وطلّق نابليون زوجته الأولى، فهي لم تنجب له أحداً.

واختار زوجة نمساوية بعد أن تأكد أنها من أسرة أنجبت الكثير من الأولاد. . فكان مثل أي فلاح يريد أن يشتري بقرة أو جاموسة. . وكان يتولى بنفسه البحث عن شجرة العائلة وعرف عدد البنين والبنات في الخمسين عاماً الماضية. . وأنجبت له ولداً سنة ١٨١٠.

وكان نابليون العظيم يميل إلى الشباب الوسيم. . يداعب شعورهم وآذانهم وأفواههم. . ويدخل يده في صدورهم. . ولذلك كان كل مساعديه من أجمل رجال الجيش الفرنسي.

وفي المكتبة الأهلية بباريس خطابات غرامية بعث بها نابليون إلى جنوده وضباطه.

يقول نابليون: تمنيت أن أشنق الشعراء جميعاً فهم يتكلمون

كثيراً عن الحب. وهذا ترف لا يقدر عليه جندي مثلي. لولا أنني أحترم الفن وعبقرية الإنسان.

ويقول: في الحرب أعرف بالضبط ما الذي سوف أعمله.. في الحب لا أعرف شيئاً!

ويقول: لو تفرَّغت للحب كما تفرَّغت للحرب، ما أبقيت امرأة في حضن زوجها!

ثم يقول: الحرب.. البحر.. الحب.. وأقرب الأصدقاء: لا أمان لهم!

دوق ولنجتون (١٧٦٩ ـ ١٨٥٢) ولد في نفس السنة التي ولد بها نابليون الذي انتصر عليه في معركة ووترلو.

وهو إيرلندي الأصل. وشخصيته غير جذابة. جاف خشن. قرر أن يكون جندياً. وهو إذا تكلم فكأنه مدفع رشاش: كلماته تخرج بسرعة وعباراته ناقصة..

تزوج الفتاة التي رفضته. فقد كان ضابطاً صغيراً عندما تقدم لها وكانت هي من أسرة نبيلة. قالت له الأسرة: ولكنك لا تستطيع أن تفتح بيتاً. مرتبك لا يكفي لشراء خشب للموقد. وكان رده: سوف تتغير الظروف، ولكن سيظل قلبي عاشقاً لها.

وعندما تدرج في العسكرية وأصبح لامعاً، بعثت إليه الأسرة تقول: الآن يمكنك أن تتزوج إبنتنا! وتزوجها.. وأنجب ولدين.

وأبعدته الحروب عنها. حتى جاءت معركة ووترلو. وانتصر على نابليون. وأحب ممثلة فرنسية. وكانت هذه الحسناء الصغيرة تقول: لقد كنت عشيقة نابليون وولنجتون. . ثم تهز كتفها قائلة: وكان ولنجتون أفضل!

وفجأة ظهرت مذكرات امرأة لعوب اسمها هارييت تروي غرامياتها مع المشاهير وتهدد عشرات آخرين بأنهم إن لم يدفعوا مائة جنيه، فسوف تفضحهم. . كثيرون بادروا ودفعوا ـ إلا ولنجتون قائلاً: كثيرات سوف يفعلن ذلك. . تشرُّفاً بهذه العلاقة أو ادعاء لها!

وكان يعيب على زوجته أنها اكتفت به. . فهي لا تبذل مجهوداً في حمايته من الأخريات.

وكان يقول: إنها تحتاج إلى جهد مضاعف. ولكن قدرها أن تتزوج رجلاً مشهوراً تدور الكواكب من حوله ليلاً ونهاراً. ثم أنه بشر.

ويعيب على زوجته أنها إذا ركبت عربة إلى جواره راحت تقرأ في الكتب متجاهلة الجماهير على الجانبين!

ولكن عرفنا فيما بعد أن زوجته لم تكن تفعل ذلك تعالياً، وإنما لأنها مصابة بقصر النظر. . فقد كانت لا تقوى على تمييز وجوه الناس. وكانت تخشى أن تصادف أحداً تعرفه، ثم لا تحييه فيغضب!

وهـذا الضعف في النـظر هـو الـذي يجعـل كثيـراً من النـاس يلجأون إلى حيلة معروفة: فهم دائمو الابتسام.. ويكون ابتسامهم نوعاً من الترحيب العام لمن يعرفون ولمن لا يعـرفون، لمن يكـرهون ولمن يحبون!

وفي يوم تلقى ولنجتون نسخـة من الكتاب المقـدس من إحدى الـراهبات. ذهب إليهـا يشكـرهـا، جميلة. مثيـرة. حـاول معهـا. فاشترطت أن يطلق زوجته. فرفض.. وظلت على هـذا الحب ١٧ عاماً حتى مات.

وحاولت كثيرات بعد وفاة زوجته.

وقـد اعترف ولنجتـون في آخر أيـامـه: ولا امـرأة واحـدة قـد أحبتني.. ولا واحدة. لقد قلن كثيـراً جداً. ولكني لم أصـدق شيئاً من كل ذلك!

أما لينين (١٨٧٠ ـ ١٩٢٤) أول رئيس لروسيا السوفياتيـة وأبو ثورتها ودولتها الحديثة وأقوى شخصية سياسية في القرن العشـرين، فلم يكن بهذه القوة دائماً ـ مع المرأة.

فهو من أصل ألماني يهودي. له خمسة من الإخوة. هو ثـالثهم. وفي سنة ١٨٨٧ شنقوا أخاه، فقد تآمر على اغتيال القيصر اسكنـدر الثـالث. وبعد ذلـك بشهور اعتقـل لينين لاشتـراكه في مـظاهرات الطلبة..

وفي سنة ١٩٠١ اختار لنفسه إسم «لينين». . وهو رجل قصير ممتلىء الجسم. أصلع. له عينان مغوليتان.

وقاد الثورة السوفياتية ٢٢ عاماً في منفاه بسيبيريا وسويسرا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا وبولندا. ولما قامت الثورة ضد آل رومانوف سنة ١٩١٧، أيقن لينين أن هذه فرصته. وأن القدر قد ناداه لإنقاذ الشعب الروسي. وحاول كثيرون أن يسرقوا منه السلطة. ولكنه استطاع أن ينفرد بها وكان جريئاً عنيفاً دموياً. ومات مسموماً.

أحب ثلاث نساء كنَّ مثله غارقات في الثورة. والرابعة ضايقها هذا الاندماج والاستغراق في السياسة فهجرته وهربت منه.

أول حب له كان من أبولوناريا. . يهودية كانت تكتب له المنشورات وتوزعها وتنظِّم كل اللقاءات السرية. وتقدم لها سنة ١٨٩٥ فرفضته. لأنها لم تستطع أن تحبَّه!

وأحبته ناديزاده. . وحكم عليه بالنفي، وعليها بالسجن. فطلبت أن تلحق به. ووافقت السلطات بشرط أن يتزوجا. وتزوجا. وكانت تعشق زوجها الذي هو الثورة. وكانت هي زوجته وعشيقته وسكرتيرته وطاهيته وعضواً في الحزب ـ وظلت كذلك حتى موتها. .

ثم كان على علاقة بواحدة مطلقة غنية وكان يعقد الاجتماعات السرية في بيتها في لينغراد.

وظلت هذه العلاقة تسع سنوات. وكانا مختلفين تماماً: هي أرستقراطية رفيعة فنانة، وهو فوضوي عنيف خشن دموي.

وقابل في باريس زوجة اسمها أنيسة.. دعته أن يعيش معها ومع زوجها.. ورافقته في كل مكان يذهب إليه. ولما ماتت سنة ١٩٢٠ سار في جنازتها. ولم يستطع أحد أن يتحدث إليه في أي شيء. ولما لاحظ الرفاق أن هذا العملاق الجبار يبكي أدهشهم ذلك، لأنه كتلة من الحديد والجليد.. ويقال أن صحته ساءت بعد وفاتها حتى مات.

ولسبب غير معروف كان موسوليني (١٨٨٣ ـ ١٩٤٥) لا يستحم إلا نادراً. وكان يكره المرأة التي تستحم كثيراً، ولا يطيق المرأة التي تضع عطراً. ولذلك كان يفضّل الفلاحات والخادمات.

وموسوليني هو زعيم إيطاليا عشرين عاماً. أبوه حداد وأمه مدرِّسة. طرد كثيراً من المدارس لأنه كان يستخدم السكين في المناقشة مع زملائه. وكان طالباً ذكياً. وقد اشتغل بالتدريس في سن صغيرة. وفصل من المدرسة بسبب هذا الأسلوب العنيف في التفاهم، أو في عدم القدرة على ذلك.

ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره، كان قد سجن ست مرات بسبب إثارة الشعب ضد الحكومة. وأصبح شهيراً لأنه خطيب جماهيري ولأنه ثوري عنيف.

واشترك في الحرب العالمية الأولى، وعندما عاد مشياً على قدميه إلى روما، تعلَّم في الطريق مشية الأوزة ـ التي نقلها هتلر بعد ذلك.

ونجح في تنظيم الحزب الفاشي لمحاربة الشيوعية والاشتراكية، وكان أتباعه نصف مليون.. وفي سنة ١٩٢٢ نجح في أن يفرض على الملك إيمانويل أن يجعله رئيساً للوزراء ـ وهو في التاسعة والثلاثين.. أما هدفه فهو أن تتوسع إيطاليا لتشمل البحر الأبيض المتوسط. وكان يقول: إن البحر الأبيض بحيرة إيطالية..

وكان يقول أيضاً متلاعباً باللغة الإيطالية: إن البحر ليس هدفاً، وإنما هو طريق إلى هدف أبعد من ذلك!

ولكن ساء حظه عندما ارتبط بالنازية وهتلر حتى أقيل من كل مناصبه سنة ١٩٤٣.. وبعد سنتين لم يجد أحداً من الألمان يحميه، فأعدموه رمياً بالرصاص!

وكان موسوليني يؤمن بالحظ ويتشائم بسرعة. فكان يكره أن يرى أحداً أعرج. أو يرى مظلة مفتوحة ويضع في جيبه تمثالاً للقديس أنطونيو. وكان يغمى عليه إذا شم رائحة الأثير.. أو رأى جثة!

وكان يحب الأفلام الهزلية، ويقضي الليالي يتفرج عليها. وليس مهماً أن يتابع أحداثها ويرى في ذلك نوعاً من الراحة والاستجمام والعلاج.

وقد عرف مجموعة كثيرة من النساء. يلتقي بهن بسرعة في أي مكان عام أو خاص. ولا يطيق أن تنام امرأة إلى جواره ـ حتى زوجته!

ولما تقدم لخطبة فتاة اسمها «راكيلة» رفضته. وهدد أمها أن يقتلها بالرصاص، وأن يقتل نفسه في سريرها. فوافقت على زواجه من ابنتها. وكان عنيفاً في معاملة زوجته التي أنجبت له كل أولاده. وفي أحد الأيام عاد مخموراً وحطَّم كل ما في البيت. فأمسكت الزوجة سكيناً تقول: إذا عدت مخموراً مرة أخرى، فسوف أقطع رقبتك!

وكان على يقين من أنها تعني ما تقول. ولم يذق الخمر بعد ذلك!

ولكن حبه الطويل كان لفتاة أخرى أصبحت شهيرة هي: كلارا بتاتشي. ولم يخف هذا الحب عن أحد. . حتى عن زوجته.

وفي يوم زارتها زوجته ورأت الأبهة التي تعيش فيها وقارنت بين حالها وحال العشيقة. وعندما ودَّعتها قالت لها: إن زوجي لا يستخدم الماء. والصابون. . وكنت أظنه الوحيد في العالم، حتى وجدتك أنت أيضاً ـ فأي نوع من الخنازير أنتما!

ثم كانت هذه النبوءة: أرجو أن أراك في ميدان الدعارة!

وعندما أعدم موسوليني كان في هذا الميدان، وعلَّقوه من

ساقيه . . وكـانت معه عشيقتـه كلارا ورفضـوا أن يقتلوها . ولكنهـا توسلت لهـم وهي راكعة عنـد قدميه أن يقتلوها معـه . وأعدمـوها . وعلّقـوها من سـاقيها . . ولمـا انقلب فستانها عـلى رأسهـا ، تقـدمت بعض السيدات يغطينها!

أمـا التفسير الـطبي لعقلية مـوسوليني فهـو أن قـراراتـه عنيفـة متضاربة . وخطبه غير متماسكة . . وسبب ذلك أنه أصيب بالزهري في سن مبكـرة . ولم يشأ أن يعـالج نفسـه ، رغم إلحـاح مسـاعـديـه وعشّاقه . . فانتقل الزهري إلى المخ !

أما أقوى زعيم في القرن العشرين هتلر (١٨٨٩ ـ ١٩٤٥) فهو رجـل صحيح من النـاحية الجنسيـة . وليس كما أشيـع عنـه وذلـك بشهادة أعدائه وأصدقائه .

وهو مؤسس الحزب «النازي» أي حزب العمل الوطني الألمـاني الاشتـراكي ، حكم ألمانيـا ١٣ عامـاً ، وأزهق أرواح ثلاثـين مليـون نسمة . . من بينها ملايين من اليهود والغجر وخصومه السيـاسيين ـ وضعهم جميعاً في أفران الغاز!

كان هتلر يحلم بأن يكون رسَّامـاً . . تقدم لأكـاديمية الفنـون في فيينا سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩٠٨ بلوحتين . رفضت اللوحتـان . . فقرر هتلر أن يجعل من أوروبا وآسيا وأفريقيا لوحـات من الدم والحـديد والنار والدموع .

إشترك في الحرب العالمية الأولى، وكان جندياً شجاعـاً. حصل على نياشين عسكرية. أصابتـه الغازات السـامة في حلقـه. ولذلـك كان صوته الساحر أجشّ غليظاً رناناً، استولى على مـلايين الألمـان. فـدفعهم إلى الإيمان بـه والسير وراءه فـوق جثث الملايـين في أوروبا وروسيا.

ودخل السجن. وفي السجن ألّف إنجيل النازية، قصة حياتـه بعنوان «كفاحي» وفي سنة ١٩٣٣ أصبح مستشاراً لألمانيا. وكانت له قدرة فريدة على تنويم الجماهير. . واستطاع أن يقضي على خصومه السياسيين مستعيناً بقوته الخاصة من أصحاب القمصان البنية.

أما فلسفته فتقوم على إيمانه المطلق بسيادة الجنس الآري وتفوقه على الأجناس الأخرى وهذا الإيمان هو الذي جعله يفتك باليهود. . ثم استولى على منطقة الراين التي كان يحتلها الحلفاء واستـرد النمسا ومنطقة السوديت في تشيكوسلوفاكيا. . وبعـدها غـزا أوروبا تمهيـداً لفرض سطوته على العالم ـ لمدة ألف عام!!

وفي أول سبتمبـر سنة ١٩٣٩ زحفت مـدرعاتـه على بـولنـدا. وبدأت الحرب العالمية الثانية، التي كـان يديـرها بنفسـه، متجاهـلاً نصائح خبراء الحرب الألمان.

تـآمر عليـه قواده سنـة ١٩٤٤. وفشلت المؤامـرة. واعتقلهم وعذّبهم تعذيباً بطيئاً بالأسلاك الكهربائية والنار والغاز.

وفي سنـة ١٩٤٥ انتحر هتلر في مخبأ تحت قصر المستشاريـة في برلين، ومعه زوجته إيفا براون. وليس صحيحاً أنه مصـاب بشذوذ جنسي من أي نوع. إنه رجـل هادىء.. لـطيف مع المرأة عطوف على الأطفال. أحب فتاة بافارية إسمها إيفا بـراون. نموذج للريفيـة الألمـانية. لا ثقـافـة. ولا ذكـاء. فقط تحب أن تكـون إلى جـواره. وكانت مرحة. وقد ظهرت في حياته فتيات كثيرات كانت لهن نهايـة واحدة: الانتحار بـالرصـاص والسقوط من مكـان مرتفـع.. وكان الجستابو، جهاز المخابرات الألمانية، هو الذي يدفعهن إلى ذلـك.. حرصاً على سلامة هتلر.. وخوفاً من أن يذعن أسرار الأمن القومي والنشاط الداخلي لهتلر سياسياً وعسكرياً.. ومن بين الـلاتي انتحرن إبنة أخته ولنفس السبب!

وكان لهتلر هواية التقاط الصور للفتيات عـاريات، وقـد اتخذن وضعاً خاصاً. وكان يقول: إن هذا الوضع أعـرفه أنـا وحدي حتى إذا وقعت هـذه الصور في يـد أي أحـد آخـر، فلن يعـرف من هي صاحبتها!

وأخيـراً ثعلب الصحراء رومـل (١٨٩١ ـ ١٩٤٤) أعظم قـادة الحرب الألمان في معارك الصحراء وفي بناء حائط الأطلنـطي ـ وهذا رأي جميع العسكريين والمؤرِّخين. فهـو جندي من الـدرجة الأولى، وضـابط شجـاع ذكي، بعيـد النـظر. أمــا عـلاقتـه بجنـوده فهي شخصية. وهو مثلهم الأعلى، لأنه يقدمهم على رجليه وعلى سيارته

وعلى دبابته. ولم يقع جندي واحد في الصفوف الأولى لم يجد رومل إلى جواره.. وفي مرات كثيرة كان الجنود يحاولون بصعوبة أن يقدموا له التحية وهم غارقون في الدم، فكان ينحني على أيديهم يقبِّلها.. ويترحَّم عليهم وسط الغبار والنار..

لقد حارب الحلفاء في شمال إفريقيا فبهرهم وقهرهم.

وفي سنة ١٩٤٤ إتهموه بأنه تآمر على هتلر. والحقيقة أنه لم يفعل. ولكنه كان صديقاً للمتآمرين. واعتقلوه مع اثنين من القادة الكبار.

صحيح أنه كان ينتقد هتلر، وأخطاءه العسكرية الفادحة. ولكن لم يفكر في اغتياله. وخيَّروه بين المحاكمة وبين أن يموت بيده.. فاختار السم!

وقد تزوج رومل الفتاة لوسي مولين سنة ١٩١٦. جميلة. داكنة الشعر. قوية الشخصية. وسيطرت عليه تماماً. فكانت هي الجنرال وهو الجندي الصغير. ولم يكن يخفي حبه لها. وكان يقول: لا بد أن يكون هناك جنرال في كل مكان، هو وحده الذي يلقي الأوامر ويتابع تنفيذها. وزوجتي هي هذا الجنرال!

وعندما أصبح بطلا أسطورة، كان يتلقى ألوف الخطابات من ألوف البنات. فكان يقرأ الخطابات ويرى الصور الرائعة ويضحك قائلًا: إنهن جميعاً يقدِّسن لحظة واحدة من حياتي عندما أصبحت

بطلاً. . ولكن زوجتي كانت تقدس كل اللحظات قبل ذلك عندما لم أكن شيئاً!

وكل هذه الخطابات محفوظة حتى الآن في متحف الأسرة. وله ولد واحد هو مانفرد عمدة مدينة اشتتجارت. .

ولم تكن صناعته الكلام. فكان يعلق على الخطابات قائلاً: جميلات مثيرات ولكني قررت أن أكون مخلصاً للجنرال زوجتي!

وقبل أن يتناول السم التقى بإبنه وقال له ضاحكاً: إنتهى كل شيء. لن تراني يا ولدي بعد اليوم. . ولا تهم كل هذه الانتصارات العظيمة التي حققتها. . ولكن من المؤكد أنني وفّرت الهدوء في البيت. . فلن أوافق على أن تشتري أمك البيانو الذي كانت تتمناه!

فقد كانت رديئة الأداء!

وفي ١٤ أكتوبر سنة ١٩٤٤ زاره بعض جنرالات هتلر. وبهدوء استأذن من زوجته ومن إبنه قائلاً :

كلمة لو قالها زوجها لعاش أبرياء كثيرون!

يقول كازانوفا في كتابه «تاريخ حياتي» الذي امتد ١٢ مجلداً: وجدت نفسي أتعلق بفساتين النساء. ولا أدعي أنني أكثر الناس فهماً للمرأة ولكني أكثرهم إلحاحاً واحتمالاً لأحذيتها.. ولا توجد امرأة تستطيع أن تقاوم رجلاً يطيل النظر إليها..

ويقول: لم أنس امرأة رفضتني. ولن تنسى المرأة رجلاً تركها واتجه إلى إحدى صديقاتها.. ولم أنس امرأة صدقت كل أكاذيبي.. فكم من واحدة قلت لها: يا أجمل مخلوقات الله، يا أعظم العشاق، يا ملكة على عرش القلوب، لو كان في الأرض عدل لركعت كل النساء عند قدميك.. ولن أنسى ما حييت امرأة عندما صدقت كل ذلك طلبت مني أن أركع أنا أيضاً عند قدميها.. وكنت أصرخ قائلاً: يا أكذوبتي أفيقي.. يا مخلوقتي بل أنت التي يجب أن تضعي رأسك عند قدمي!

ويقول: أكثر العشاق لا يفيقون.. وأكثر العاشقات قد ولدن مملوءات بالغرور!

هذا الرجل هو جيوفاني كازانوفا (١٧٢٥ - ١٧٩٨) رمز العشق والذئاب البشرية. وقد تعلم من معاشرة النساء الإيمان بالسحر والخرافات. وادعى القدرة على علاج الأمراض النفسية بالأحجبة والبخور والتنويم المغناطيسي.. وهو رجل متعدد المواهب: شاعر وساحر ورسّام ومغامر ورحالة.

يقول: لم أولد نبيلاً، ولكن سوف أصبح نبيلاً..

أمه ممثلة لعوب تزوجت راقصاً مشهوراً. وعندما سافرت إلى لندن وأنجبت ولداً، هذا الولد تبنّاه ملك بريطانيا جورج الثالث.

درس القانون وحصل على الدكتوراه وهو في السابعة عشرة من عمره. وطرد من الجامعة لفضيحة جنسية ودخل الجيش. ثم طرد منه لفضيحة أخرى.

في يوم ذهب لبيت أحد النبلاء. وجد الزوجة جميلة والإبنة

أيضاً. وأوهم صاحب البيت أنه وحده الذي سوف يخرج العفاريت من جسمه. وأن أحد هذه العفاريات قد اختفى تحت لسانه.. وما زال يقنع الرجل حتى عجز عن الكلام تماماً.. وانفرد بالزوجة والإبنة. ومات الرجل. وهرب كازانوفا إلى الدول الأوروبية ١٨ عاماً.

وفي الخمسين من عمره عمل أميناً لمكتبة أحد النبلاء الألمان. ووجد الساعات تمر بطيئة مملة. هنا قرر أن يكتب مذكراته فجاءت في ٤٥٤٥ صفحة. وبعد أن كتب هذه المذكرات ظل زاهداً في الحياة كارهاً للمرأة لا يغريها ولا يسمعها ٣٥ عاماً حتى مات. ولم تعرف مذكراته هذه إلا في سنة ١٩٦٦. وعندما نشرت هذه المذكرات أدركنا أنه كان أقل من الشهرة التي استحقها، فهو لم يعرف في حياته كلها إلا ١٣٢ امرأة - أي واحداً على عشرة من الذين عرفتهم الممثلة الفرنسية سارة برنار والأديب الفرنسي موبسان والمطرب الأمريكي الفيس برسلي!

وقد جاءت هذه العبارة في آخر المذكرات: مهما عرفت من النساء.. فكل واحدة عالم مختلف تماماً.. فأنا لم أعرف إلا بعضهن.. أما الباقيات فيحتجن إلى مليون سنة أخرى!

أما ماتا هاري (١٨٧٦ - ١٩١٧) فكل ما يعرفه عنها الناس أنها أشهر جاسوسة في التاريخ.. وأنها تعمل لحساب الألمان ضد الفرنسيين. أي أنها كانت تستخدم جمالها وخداعها لتجمع

معلومات عن الأسلحة من عشرات الضباط الذين عرفتهم. . ولذلك استحقت أن يعدمها الفرنسيون رمياً بالرصاص!

وإذا كان لدى أحد معلومات أكثر فهو يصفها بأنها أول راقصة عارية في كباريهات أوروبا.

كانت طالبة في أحد الأديرة بهولندا، قرأت إعلاناً في الصحف عن ضابط يريد أن يتزوج. فبعثت للصحيفة تقول أنها على استعداد لذلك. ولم يكن هذا الذي نشرته الصحف سوى مقلب دبّره أصدقاء أحد الضباط. والتقت بالضابط. هي عمرها ١٨ عاماً وهو في الأربعين. أحبها، فتزوجته. وأنجبت منه ولداً. وسافرت معه إلى أندونيسيا. ولما عرف زوجها أن لها علاقة بضباط آخرين هددها بالرصاص. وفي يوم فوجئت بأن أحد الأندونيسيين قد وضع السم لإبنها، انتقاماً من اعتداء زوجها على زوجته. فما كان من ماتا هاري إلا أن خنقت الرجل حتى الموت!

وهربت إلى باريس، وكانت العادة في ذلك الوقت: أن تهرب إلى باريس كل امرأة جرحت كبرياؤها!

وفي باريس عرفها الناس ترقص في فستان شفاف مرصّع بالمجوهرات. . ثم تنزع هذا الفستان لترقص عارية تماماً. وكان الأغنياء يتسابقون على شراء فستانها وكانت تتفنن في جعل الفستان عشرين قطعة. وتلقي على كل واحد قطعة مقابل ثمن يتقاضاه

صاحب الكباريه. . وكانت تتلوى مثل أفعى ابتلعت ألف قطعة من الماس. . فلا أحد يدري إن كان الماس فوق الجلد أو تحت الجلد. .

وماتا هاري هندية الأصل. إعتادت على الرقص في المعابد واسمها باللغة الملاوية معناه: عين النهار أي الشمس. .

بدأت الصحف الفرنسية تروي عنها الحكايات. . إنها جاسوسة ألمانية لها رقم رمزي. . ويقال أنها كانت تستحم في اللبن، بينما الأطفال يموتون جوعاً. . وقيل أنهم ضبطوها في مدريد بأسبانيا وقد ركبت دراجة متنكِّرة في ملابس سيدة عجوز. ولما نقلوها إلى السجن كانت ترقص عارية للحارس. . وقيل أنها قبل تنفيذ الإعدام سألوها: وما هي آخر رغباتك؟

قالت: أن أستحم في حوض من النبيذ، وأن يجيء الجنود بملابسهم الرسمية يرتشفون القطرات التي تتساقط من أصابع قدمي!

وقد تطوّع للدفاع عنها كثيرون. .

وسألوها قبل تنفيذ حكم الإعدام: إن كانت حاملاً.

فالدستور الفرنسي يمنع تنفيذ حكم الإعدام في الحامل حتى تلد. .

فطلبت أن ترى جميع ضباط السجن. وجمعوهم. ونظرت

إليهم جميعاً واحداً واحداً وقالت: لست حاملاً!

وسألوها: إن كانت لها أمنية أخرى!

قالت: كانت عندي أمنية جنونية.. تمنيت وأنا أمام تمثال أبي الهول أن يكون أباً لجميع أولادي؟

وفي سنة ١٩٦٢ أثبت الإنجليز براءتها تماماً من الجاسوسية. وإنما الفرنسيون قد اختلقوا هذه القصة، تغطية لهزائمهم المتكررة أمام الألمان!

ومارلين مونرو (١٩٢٦ - ١٩٦٢) كانت رمزاً للجمال والسذاجة والتعاسة طفلة وشابة وزوجة ونجماً لامعاً وعشيقة لأقوى رجل في العالم الرئيس الأمريكي كينيدي ولأخيه من بعده، ويوم كانت زوجة لرجل له عضلات، ولكاتب كبير له موهبة هو آرثر ميللر، وألعوبة في يد العصابات والمخابرات الأمريكية وحالة مرضية للأطباء النفسيين. ولم يحدث في التاريخ أن أحب الناس امرأة جميلة وعطفوا عليها، واتهموا الذين اغتالوها، كما أحبوا مارلين مونرو. وقد تبارى الأدباء والشعراء والرسّامون في البكاء عليها.. حتى الذين لا قلب لهم مثل آرثر ميللر وهرمان مايلر.. وخادمتها وسكرتيرتها وسائقها وبوّابها ومصوّرها والقسيس الذي قرأ عليها ما لم تسمع من الإنجيل ورجال المخابرات الأمريكية.. ولم يذبل الورد على قبرها حتى اليوم.. فهو كالدموع متجدد.

كان أبوهـا يعمل في معـامل السينـما. وهي من أصل نـرويجي اسمها نورماجان مورتنسون. أمـا طفولتهـا فهي حزينـة تمامـاً. إنها اليتم والفقر. عاشت مع إحدى قريباتها حتى السابعة. ثم أدخلوها أحـد الملاجىء حتى الثـالثة عشـرة. ورعاهـا الزوج الثـالث لأمها، حتى تزوجت في السادسة عشرة. وقد روت كيف كان عذابها فظيعاً وهي في الملجأ، وكيف أكرهت على الجنس، وكل أنواع الشذوذ مع زميلاتها ومدرِّساتها ومديرة الملجأ. .

عملت في أحـد مصانـع الطائـرات، عندمـا اكتشفهـا مصـوِّر مغمور. وهي أيضاً اكتشفت نفسهـا، فقد أدركت حبهـا الغريـزي للأضواء والوقوف أمام الكاميرات: جميلة بريئة هشَّة. .

وكانت تحلم بأن تصعد من الفقر والهوان إلى فوق. . إلى آخـر المـدى تـريـد أن تكـون نجـماً. . أحبهـا المصـوِّر. . ولكنهـا أحبت الصـور. تقدم لهـا. رفضت. واتجهت إلى هـوليـوود. . إلى البـاب الملكي لهـوليـود. والبـاب الملكي هـو الـذي يجلس عليـه عـدد من «العواجيز» أصحاب الملايين من المنتجين. والمعنى مفهـوم. ومقبول من كل جميلات الشاشة. فهذا هو ثمن المجد.

وغيَّروا اسمها إلى مارلين مونرو.

وكل الذين أحبَّتهم مارلين مونرو كانوا كباراً في السن. طبيعي فهي في حـاجة إلى الحنـان. وإلى الأب والمال والسلطة معـاً. وكان

أكبر الكبار هم الشيوخ أصحاب الملايين أصحاب شركات السينما. ولم تقل «لا»، لأحد منهم.

سألوها: من الذي تحبين أن تتزوجيه؟ قالت: إينشتين! وهو عبقري الفيزياء في زمانها، فبعث إليها ببطاقة يقول فيها: مع احترامي وحبي وشكري.

تزوجت لاعب كرة. وكانت الحياة معه شاقة. فهو قوي ولكنه غير غيور. وهربت من صاحب العضلات إلى صاحب العقل: آرثر ميللر. قابلته أول مرة سنة ١٩٥٠.. تقول مارلين مونرو: إنه جلس أمامي وراح ينظر ناحيتي فقط. وتزوجها سنة ١٩٥٦.

وكانت الحياة مع مارلين صعبة جداً. فهي حساسة. وهي تعمل كثيراً. وتتعب. وتنام بصعوبة. وهي عصبية جداً. وتتعاطى المسكِّنات والمهدئات والمنوِّمات والمخدرات.. وتقضي وقت راحتها في السرير. تأكل وتشرب وتتكلم ساعات، وتمسح يديها في المخدات ثم تنام ويتساقط عليها الطعام. إنها طفلة لا تريد أن تكبر. ويستحيل ذلك.. وقد التقط لها آرثر ميللر صوراً وهي تحتضن التليفون وأحذيتها.. ومخدتها.. وكل ما لديها من فراء.. والدموع على خديها..

وكان لا بد أن يطلِّقها. فكان سنة ١٩٦٠، في نفس اليوم الذي أصبح فيه جون كيندي رئيساً لجمهورية أمريكا.

كانت لها علاقة بالممثل الفرنسي إيف مونتـان. غضبت عندمـا رفض أن يطلِّق زوجته سيمون سينوريه: لها علاقة مع سائقهـا ومع الرجل الـذي يدلِّكهـا.. ثم قدمهـا المطرب الكبـير فرانـك سناتـرا للرئيس كيندي. وكان يلتقي بها الرئيس كيندي في بيت أخته زوجة الممثل بيتر لوفورد.. وأحياناً في سيارته وأحياناً في طـائرتـه.. وكان يضايقه أنها لا تجيء في موعدها.. فهي لا تنظر إلى الساعة في يدها أو بجوار سريـرها.. وكـانت تطلبـه في البيت الأبيض في ساعـات متأخرة من الليل، فغيَّر كل أرقام التليفونات وهرب منها. ثم تركها لأخيه..

وفي عيد ميلاده ظهرت مارلين مونرو بهرت الناس وهي تقترب من الميكروفون وتقول: عيد ميلاد سعيد يا سيادة الرئيس!

ولما وجدته يتفادى لقاءها هددت بأن تعقد مؤتمراً صحفياً تحكي كل شيء.. وبدأت الشركات السينمـائية تعتـذر عن عدم التعـاقد معها، لأن مواعيدها غير مضبوطـة.. فحياتهـا مضطربـة في العمل والنوم والسهر والخروج والرياضة.. وبدأت تشعر بأوجاع كثيـرة في جسمها.. وسموم في طعـامها وشـرابها.. ولم تعـد تعرف إن كـان الـذي يـزورهــا هـو طبيبــاً أو سفـاحــاً.. أو زميـلاً أو منـــدوب المخابرات..

وبلغت حالتها النفسية أقسى وأقصى درجاتها في سنة ١٩٦٢.. ووجـدوها ميتـة في فراشهـا. قالـوا منتحرة. وقـالوا قتيلة. وقـالـوا

العصابات. . وقالوا المخابرات، حماية لحياة الرئيس والأمن القومي. . فقد كانت مارلين هي أول من قال أن هناك محاولة لاغتيال كاسترو. . وأنها سمعت ذلك وهي في أحضان الرئيس. .

وفي مسرحية «بعد السقوط» لآرثر ميللر يتحدث فيها عن زوجته السابقة مارلين مونرو، ويعيب عليها أنها لا تقول. . لا. . وسبب ذلك أن لديها إحساساً بأنها مدينة لعدد كبير جداً من الناس. . وأنها لذلك في حالة امتنان دائم للآخرين. .

أما غلطتها فهي هذا الشعور الذي لا معنى له. فهم الذين يجب أن يمتنوا لها؛ إنها صاحبة الفضل على المنتج والمخرج والمصوِّر. فهي مصدر ثرائهم جميعاً فقد باعوها في الدنيا وكسبوا من لحمها ودمها وابتسامتها وجمالها مئات الملايين. فلا فضل لأحد، وإنما الفضل لها وحدها. . !

ولكنها كانت قد اعتادت على أن تظل الحمل الوديع الجميل لكل هذه الكلاب من تجار الرقيق الأشقر!

أما الشيخ الذي بهر نساء العالم رغم أنه لم يفتح فمه بكلمة واحدة فهو رودلفو فالنتينو (١٨٩٥ ـ ١٩٢٦) فقد كان بطل السينما الصامتة. . فقد وجد العالم في فيلم الشيخ الذي قام ببطولته عودة إلى الرومانسية وإلى حياة الخيام في الصحراء، حيث يعيش الرجل للحب والمرأة للبيت والأولاد. . ولم تكن الدول الصناعية قد عرفت وملأت الحياة الصناعية الميكانيكية. ولكنها كانت في مراحلها

الأولى. عندما كانت المرأة تطلب المساواة بالرجل، والخروج إلى الشارع والمكتب والمصنع.. وليأكل الأطفال في البيت أصابعهم وليموتوا برداً وجوعاً. المهم أن تتساوى مع الرجل في كل شيء مهما كان الثمن. ولكن بظهور فالنتينو رمزاً للحب والحياة والموت من أجله، تدفقت الملايين في أمريكا وأوروبا يتساءلون: هل من الممكن أن تعود الحياة إلى الوراء؟

وقد ظهر فالنتينو في فيلم «إبن الشيخ» وفيلم «دماء ورمال» وهو إيطالي الأصل ولد حالماً. لا يصلح لأي عمل. ضاق به أبواه. بعثا به إلى أمريكا يجرِّب حظه. لم يكن يعرف كلمة إنجليزية واحدة. ولكن يعرف شيئاً واحداً: كيف يكون أنيقاً نظيفاً، ذئباً دائماً.

طلب أن يقوم بدور الجنايني في بيت مليونير ثم تسلَّل إلى الكباريهات وعمل راقصاً احتياطياً - أي يظل واقفاً في حالة استعداد دائم ليراقص أية امرأة وحيدة. وتحدثت عنه النساء، وتسابقت عليه الفتيات ورغم أنه ذئب مدرب تدريباً جيداً، فقد تعلَّم من «الذئبنة» أن يكون خجولاً.. كان ذلك يغري الفتيات بأن يهجمن عليه، ويتسابقن في إثارته والفوز به في النهاية - وهذا ما يريد!

واستدرجته إحدى الفتيات إلى هوليوود - وبسرعة دخل السينما. وفي وقت قصير جداً كان بطلاً لعشرة أفلام.

يقول فالنتينو: أن تعرف امرأة واحدة هذه لعنة، أن تعرف ألف امرأة ـ هذا ألعن!

وقد تزوج سيدة أكبر منه. غنية جميلة. واكتشف في أول يوم أنه ارتكب غلطة فظيعة. خانها. حاول أن يدخل البيت تركته حتى الصباح. ثم هرب إلى فراش صديقة لها.

ثم تزوج راقصة باليه روسية. ولم يكن قد طلّق زوجته الأولى. ودخل السجن. وطلّقها. ثم ألّف الاثنان معاً ديواناً من الشعر عنوانه «أحلام اليقظة».

يقول في إحدى قصائده: ولدت مفتوح العينين.. وجدت صعوبة في فهم الدنيا.. وعرفت أن هناك أكثر من دنيا.. دنيا الرجال ودنيا النساء.. ودنيا النساء هي الأقوى وهي الأكثر غموضاً..

وفي قصيدة أخرى يقول: ولدت متأخراً في الزمان.. تمنيت أن أولد من ثلاثة قرون.. لأعيش من أجل المحبوبة وأموت في سبيلها، بشرط أن تموت هي أولاً.. فليس أروع من امرأة كلها حياة، إلا امرأة ماتت في ثوب عرسها.

يسمونها في الأرجنتين إيفيتا.. إنها إيفيتا بيرون (١٩١٩ ـ ١٩٥٢) زوجة الرئيس خوان بيرون. أقوى امرأة في بلادها. وقد عملت وزيرة للصحة ووزيرة للعمل من ١٩٤٦ حتى وفاتها..

إسمها ماريا إيفا دورانـة إبنة غـير شرعيـة لأحد الفـلاحين. . سافرت إلى بيونس أيريس وهي في الرابعة عشرة من عمرها لتجرب حظها على المسرح، لم تستطع فلهجتها ريفيـة وأسلوبها ومـلابسها. فـاتجهت إلى الإذاعة، فكـانت أحسن الممثلات، أطـول من معظم نسـاء الأرجنتين وممتلئـة. تفك الخط بصعـوبـة. دفعتهـا غـريـزتهـا وطموحها إلى أن تعثر على الكولونيل خوان بيرون وكانت زوجته قد مـاتت. وعاشت معـه. وتـزوجتـه بعـد سنتـين، ثم أصبـح رئيسـاً لـلأرجنتين. فـأطلقت رصاصهـا وسمومهـا على كـل الأغنياء وكـل الذين وقفوا في طريقها في الإذاعـة والمسرح. وأحبهـا الشعب الذي أطلقت عليـه لقب: عـراة الصـدور. . أي الـذين لا يـرتـدون قميصـاً. . وراحت تـطالب بكـل حقـوق المـرأة وأنشـأت مؤسسـة خيـرية، تحـولت إليهـا أمـوال كثيـرة ـ بعض هـذه الأمـوال دخلت حسابها في سويسرا. .

ولما ماتت بالسرطـان عن ثلاثـة وثلاثـين عامـاً، أعلنها الشعب قديسة للبلاد! وهي ذات شخصية قوية تريد القوة والمال. وقفت في شبـابها أمـام المصوِّرين عـارية وعنـدمـا أصبحت في السلطة أو هي السلطة، جمعت كـل هـذه الصـور وأحـرقتهـا وأودعت المصـوِّرين السجون. .

عندما كانت في إيطاليا التف حولها الناس يقولون: مومس!

وكان إلى جوارها في السيارة أحد جنرالات البحر فقال لها إنني

تركت البحر من عشرين عاماً ومع ذلـك ينادونني أمـير البحر! ولا يهمك. سوف يقولون كثيراً. وسوف يكون لكل شيء صدى؟

عندما قابلت زوجها الكولونيـل بيرون كـان عمرهـا ٢٤ سنة، وهو ٤٨ سنة أمسكته بأظافرها وأنيابها فهو فرصتها وقدرها ووسيلتها إلى المجـد. وهي التي أقنعتـه بـأن يقفـز إلى السلطة عن طـريق الجيش. . وأن يكون سيد البلاد وهي سيدتها.

وبعد وفاتها أقام الرئيس بيرون اتحاداً للمدارس الثانوية ـ وكان الهـدف اختيار أجمـل الطالبـات وإرسالهن إليـه. وكان هنـاك مركـز خاص يستعرض الفتيات ليختار واحدة كل يوم!

ويقال أن المليونير أوناسيس قرر أن يلتقي بها وحدها. وكان له ذلك وأعدت له طبق عجة دفع فيه خمسين ألف دولار ـ أغلى عجـة أكلها في حياته في أجمل ليلة! وكانت فضيحة!

وظلت إيفيتا أسطورة في بلادها. وظهرت في لندن أوبرا غنائية اسمها إيفيتا سنة ١٩٧٠ ومن أشهر أغانيها المحبوبة في العـالم كله: لا تبكي من أجلي يا أرجنتين. . فلن أتخلى عنك!

تقول إيفيتا: إمرأة تعيش من أجل نفسهـا. ليست امرأة فنحن النساء قد خلقنا الله لندفع الرجال إلى أبعد مما يستطيعون. .

وتقـول: طبيعي جداً أن تبـذل المرأة نفسهـا من أجـل الحب، ففي هذا البذل قمة عظمتها وحريتها أيضاً!

ثم تقول: من أجل الأرجنتين أحببت زوجي وأخلصت له وسوف أموت من أجله!

أما الانتقام الشخصي الذي اتخذ عنفاً دموياً وطنياً فصورته الحديثة هي أولريكة ماينهوف (١٩٣٤ ـ ١٩٧٦) زعيمة العصابة الألمانية المعروفة باسم: بادر ـ ماينهوف. لقد أفزعت هذه الفتاة ألمانيا كلها وشغلت كل قوات البوليس شهوراً لا ينامون ولا يأكلون..

ولكن في ١٦ يونية سنة ١٩٧٢ اقتربت قوات البوليس من بيت بالقرب من المطار دقُّوا الباب خرجت فتاة طويلة منكوشة الشعر مفتوحة العينين. وفي البيت وجدوا مسدسات وقنابل. وأمام النيابة روت جرائمها كلها في ٣٥٤ صفحة: سرقة وتزوير وقتل ونسف وخطف وسطو..

شيء غريب حقاً أن تتحول فتاة مثالية رقيقة ناعمة إلى مجرمة.. أما أنها مثالية فمعنى ذلك أنها لا ترضى عن الواقع وتتمنى شيئاً أفضل. فإن كانت كاتبة عبَّرت عن ذلك بقلمها.. أو كانت ثورية دموية استخدمت المسدس والقنبلة. وقد استراحت إلى ذلك..

تقول أولريكة: لو أنه في أول لقاء لنا قال عبارة واحدة لطيفة.. لو أنه جعلني أشعر لحظة واحدة أنه ممتن لأنني تزوجته وتركت كثيرين غيره، أغنى وأجمل لو أنه فعل لتغير التاريخ!

وكانت تقصد زوجها. فهو صاحب ورئيس تحرير إحدى المجلات الثورية. عرفها. تزوجها ترك لها المجلة، وراح يسكر ويلعب القمار ويهرب إلى فراش أخريات جميلات غنيات. وتركها تشم الحبر وتمسح عرقها بورق الصحف، وتحرق أصابعها بالسجائر، ولما انتشرت المجلة، كان في حاجة إلى مزيد من المال.. فأدخل فيها الحب والجنس والزواج والفضائح فقررت أن تتركه. وهربت ومعها ابنتان توأمتان.

وكانت أولريكة قد عاشت بعض الوقت مع إحدى قريباتها: أستاذة جامعية. ومنها تعلمت مبادىء الاشتراكية. ودخلت الجامعة وتظاهرت مع الطلبة ضد القنبلة الذرية. واحتلال الأمريكان لفيتنام. وكان ذلك هو جوهر مقالاتها الملتهبة. حتى اكتشفت خيانة زوجها. فقامت هي وعدد من الشبان بمهاجمة بيت زوجها. وسرقة كل ما به من تحف. وإطلاق الرصاص على اللوحات والتماثيل وإحراق كل الكتب!

وحاولت مع عدد من الإرهابيين خطف الزعيم الإرهابي بادر، الذي كوّنت معه عصابتها الشهيرة..

فقد سمحت له إدارة السجن أن يعمل في إحدى المكتبات في برلين، فخطفوه وقادت هي الهجوم يوم ١٤ مايو سنة ١٩٧٠..

واختارت أولريكة واحداً من هذه العصابة عشيقاً لها.

وأرسلت طفلتيها إلى الشرق الأوسط ليتدربا على أعمال المقاومة ضد إسرائيل. ولكن بعض المنظمات الفلسطينية أعادت الفتاتين إلى أمها ـ فقد اكتشفوا أنها إرهابية بلا قضية!

وحاولت تهريب الطفلتين إلى خارج ألمانيا. ولكن زوجها أفلح في القبض عليهما في جنوب إيطاليا..

وعرفت أولريكة المخدرات، ولذلك احتاجت إلى الفلوس. فهاجمت محلات كثيرة. وهاجمت البنوك.. ثم ألقي القبض على بادر وهو يكدِّس السلاح في أحد الجراجات.. ثم ألقي القبض عليها. وكانت تصرخ في داخل السجن تطلب أي كمية من الحشيش أو الأفيون.. ثم طلبت أن ترى طفلتيها ولكن الأب رفض.. ثم طلبت أن ترى عشيقها، ولكنه رفض.. ثم طلبت أن تسمع ولو كلمة واحدة من الرجل الذي أحبته وتزوجته.. طلبت أن يقول لها ولو كذباً كلمة: أحبك، لتكون آخر ما تسمع ويكون هو آخر من ترى، رفض..

وشنقت نفسها.. وسار في جنازتها ألوف الشبان قد وضعوا لافتة على وجوههم. وهم يهددون بالانتقام!

ثم نشر زوجها خطابها الأخير الذي بعثت به من السجن: إنني أطالب بمحاكمتك علناً.. فأنت المسؤول عن كل ما ارتكبت.. من جرائم.. كان يجب أن أشنقك أنت، لا هؤلاء الأبرياء.. لقد أسأت فهمي من أول لحظة، فأنا أرقّ وأكثر إحساساً مما تتصور..

ولكن وجهي الجامد قد خدع كل الناس. .

وخدعك أنت أيضاً. . أبعث لي بكلمة واحـدة. سوف أحشر خـطابك في أذني. . فـأسمـع صـوت الـورق وهـو يتثنى في أذني. . وأتوهم أنك تقول لي. . أحبك!

الفهرس

رقم الإيداع : ١٦٦٢/٨٨
الترقيم الدولى ـ ١٧٠ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ ـ برقيا : شروق ـ تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ ـ برقيا : داشروق ـ تلكس : SHOROK 20175 LE



- هناك أكثر من أثنين فى أى مكان وفى أى وقت منذ آدم وحواء فى الجنة ومعهما الشيطان والأفعى والملائكة ومخافة الله حتى نزلا إلى الأرض فامتلأت بهما الدنيا .

بل إن الإنسان إذا كان وحده فى زنزانة فى سجن .. أو كان راهبا فى صومعة .. أو كان جاجارين فى أحد الأقمار الصناعية فهو ليس وحده فى أى وقت بل إنه فى عيون وآذان مئات الملايين من سكان الأرض .

- وعندما سئلت رابعة العدوية وقد جلست وحدها : من معك ؟ قالت أنا وحدى مع الله وحده !

- وأنت عندما تنظر إلى أعماقك فلست وحدك .. فأنت أكثر من إنسان ، أكثر من صورة لنفسك .

الغلاف للفنان حلمى التونى

دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس ، ٣٩٣٤٨١٤

بيروت : ص ب . ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣